حسام عبد الكريم

صعود معاوية

صفّين، الخوارج، ونهاية عليّ

3

دراسة في المصادر الإسلاميّة

معاوية

3

حسام عبد الكريم

صعود معاوية

صفّين، الخوارج، ونهاية عليّ

3

دراسة في المصادر الإسلامية

المقدمة

هذا الكتاب هو جزء من عمل ضخم، يمكن وصفه بالموسوعيّ، يبحث في أحداث قضية كبيرة جداً في تاريخ صدر الإسلام، ويغوص في تفاصيلها. وهو يتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) إلى سنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). وهذا العمل أساساً هو بحثٌ وتنقيبٌ في أمهات الكتب والمصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي بهدف المساهمة في جلاء الحقيقة التاريخية لمن يسعى لها.

****

وأنا أزعم أن عملي هذا يختلف عن الأعمال المشهورة التي تناولت موضوع الفتنة الكبرى: يختلف عن طه حسين في كتابه «علي وبنوه» و«الفتنة الكبرى/ عثمان»، كما يختلف عن كتاب هشام جعيط «الفتنة / جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر»، ويختلف عما كتبه عباس العقاد في سلسلة عبقرياته، ويختلف عن كتابات فلهاوزن وغيره من المستشرقين، ويختلف طبعاً عن سرديّة الإسلام التقليدي (السني) لأحداث الفتنة الكبرى، كما في كتابات علي الصلابي على سبيل المثال. وكذلك يختلف عن كتب المعاجمة الشيعية وسرديتها لأحداث الفتنة، كما في كتابات وأعمال علي الكوراني مثلاً.

أنا أزعمُ أن كتابي فريدٌ من نوعه، وبه إضافة نوعية لكل ما سبقه.

****

وبالإمكان قراءة هذا الجزء من سلسلة «صعود معاوية» ككتاب مستقل،

لمن أحب الاطلاع حصرياً على موضوعه: صراع عليّ ومعاوية وحربهما في صفين وتطورات الأحداث إلى أن استولى معاوية على السلطة وأسس لأول حكم سلالي في الإسلام. لا ضير في ذلك. ولكن من الأفضل طبعاً الإحاطة الكاملة بالموضوع عن طريق الاطلاع على الجزأين اللذين قبله: أولاً «الفتنة الكبرى... عهد عثمان» وكذلك: «عليّ وعائشة... حرب الجمل».

وأتمنى أن أكون قد وفقتُ في ما كتبتُ، وأن يجد القارئ في كتابي مادة غزيرة وغنية تلبي رغبته في المعرفة عن تلك الفترة الحرجة في تاريخنا والتي لا زالت تلقي بظلالها علينا إلى الآن.

حسام عبد الكريم

آب 2010

(الجزء الأول)

حربُ صِفّين

الفصل الأول: معاوية

شخصية معاوية[1]

إن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، هو الشخصية المحورية الثانية في كل أحداث الفتنة الكبرى التي جرت ما بين 36 و 41 للهجرة، بالإضافة طبعاً إلى الشخص المحوري الأول: علي بن أبي طالب. فلا بد من إلقاء الضوء على خلفيات هذه الشخصية ومراحل صعودها المدهش.

نشأ معاوية وهو يرى نفسه سليلاً لمجد أبي سفيان وحرب وأمية، وامتداداً لعزّ قريش بين العرب. وكثيراً ما عبّر معاوية، وهو خليفة، عن اعتزازه الشديد بأبيه، وقد قال مرة لابنه يزيد: «... وإن كان أبو سفيان ما علمتُ لطيل الحلم، يقظان الرأي، طلوب الهمة، طويل الأناة، بعيد القعر، وما سوّدته قريش إلا لفضله»[2]. وغالباً ما كان معاوية يصف أباه بأنه كان «أكرم قريش وأشرفها»[3] أو «سيد قريش» أي أن معاوية، وهو خليفة، كان يعتبر مجد الحكم والزعامة

---

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص135 وص169 وج3 ص244-255)، أسباب النزول للواحدي (ص304 وص163)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج5 ص263-247)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج11 ص494 وج4 ص437)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج4 ص313).

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(3) على الرغم من حرص أبي سفيان على مظاهر الشرف الجاهلية، ومنها إغاثة الملهوف، إلا أن الكرم بمعنى البذل والعطاء النابع من الغنى لم يكن أبداً من خصاله الحقيقية، ولا كانت نفسه تجود بشيء إلا إن كان وراء ذلك هدف ومنفعة:
«كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين، فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصا، فأنزل الله تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم)». ذكر ذلك الواحدي في أسباب النزول

ليس أمراً جديداً عليه، بل هو شأنٌ طبيعي وصله عن طريق أبيه وأجداده، مع الفارق طبعاً، لأن أبا سفيان كان بنظر معاوية، سيد قريش، بينما هو الآن أصبح سيد العرب.

ويحكم انتماءه للفرع الأموي من بني عبد مناف، فقد نشأ يشعر، كأبيه وأجداده، بحساسية بالغة، تصل إلى حد الحقد، تجاه أي تميّز قد يناله الفرع الهاشمي من بني عبد مناف. وتروي كتب التراث تفاصيل كثيرة عن التنافس والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم جيلاً بعد آخر.

ورغم أن الفرعين، الهاشمي والأموي، هما أبناء عم، ويتحدّران كلاهما من عبد مناف، إلاّ أنه لم يكن غريباً في ذلك الوقت أن تكون الخصومات بين الأقرباء أشدّ حدّة وأعمق أثراً من الخصومات بين البطون المتباعدة في نسبها. فالأخيرة كانت في الغالب تزول بزوال أسبابها المباشرة بعكس خلافات أبناء العمومة التي كانت تتميز بالطابع الشخصي.

ويمكن القول أن بني أمية وعبد شمس، كانوا في الجاهلية أكثر عدداً[1] وثروة من بني هاشم وأنهم بالتالي كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية للزعامة والصدارة منهم. مع العلم بأن بني هاشم كانوا معروفين بحسن الأخلاق أكثر، وتجلّى ذلك بحلف «الفضول» الذي تمّ بمبادرة من بني هاشم، وضمّ معهم بني المطلب وزهرة وتيم، والذي كان هدفه نصرة المظلوم في مكة، ولم يشارك بنو أمية / عبد شمس في هذا الحلف.

بالتالي لم يكن بنو أمية في وارد أن يسمحوا بأن ينال بنو هاشم تميزاً عظيماً، بحجم النبوة. وقرروا ممثلين في أبي سفيان خاصة، أن ذلك لا يُطاق، ولن يكونَ، تحت أي ظرف. فبنو أمية لم ينظروا إلى دعوة محمد(ص) في

(1) وقد ذكر الإمام عليّ مرة مقارنة بين بني هاشم وبني أمية في جوابه لرجل سأله عن قريش: «... وأما بنو عبد شمس فأبعدها رأياً، وأمنعها لما وراء ظهورها. وأما نحن فأبذل لما في أيدينا، وأسمح عند الموت بنفوسنا. وهم أكثر وأمكر وأنكر، ونحن أفصح وأنصح وأصبح». وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لكلام عليّ أنه قصد بكثرة بني عبد شمس، فبالكثرة تمنع ما وراء ظهورها. وكان بنو هاشم أقل عدداً من بني عبد شمس، إلا أن كل واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كل واحد على انفراده من بني عبد شمس»

مكة إلا على أنها محاولة جديدة من أبناء عمومتهم الهاشميين للانفراد بالمجد والشرف والصدارة، وهذا ما لم يكن بمقدورهم أن يتساهلوا بشأنه.

ويحيل معاوية، وهو خليفة، إلى اعتبار الفترة النبوية التي كان فيها محمد(ص) يقود بالفعل العرب والمسلمين، وخاصة بعد فتح مكة سنة 8 للهجرة إلى حين وفاة الرسول(ص) سنة 11 للهجرة، استثناءً طارئاً نجح فيه بنو هاشم في الانفراد بمجد النبوة والحكم معاً، وفي تنحية منافسيهم من بني أمية جانباً.

وهو يشير أن وصوله للحكم سنة 41 للهجرة تتويجٌ للجهود المتواصلة التي بذلها بنو أمية من أجل استعادة مجدهم الغابر، والتي بدأت مباشرة بعد وفاة الرسول(ص).

ومن المفيد في هذا السياق عرض الرسالتين اللتين تبادلهما محمد بن أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان سنة 38 للهجرة:

نص رسالة محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

«من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر!

سلام على أهل طاعة الله، ممن هو سِلْمٌ لأهل ولاية الله، أما بعد..

فإن الله بجلاله وقدرته وعظمته، خلق خلقه بلا عبث كان منه، ولا حاجة به إلى خلقه. لكنه خلقهم عبيداً وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغوياً ورشيداً. ثم اختارهم بعلمه واصطفاهم بقدرته. فاصطفى منهم وانتجب محمداً (ص) فبعثه رسولاً وهادياً ودليلاً، وبشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً. فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فكان أول من أجاب وأناب، وأيقن وأسلم وسلّم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب. فصدّقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم ووقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل حال، وحارب حربه، وسالم سلمه، حتى برز سابقاً لا نظير له ممن اتبعه، ولا مشاركَ له في فعله.

وقد أراكَ تساميه وأنت أنت، وهو هو: السابق المبرّز في كل خير، أطيب

الناس قرابة، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم. أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة، وعمه سيد الشهداء يوم أحد، وأبوه الذاب عن رسول الله (ص). وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله ورسوله الغوائل، وتحالفان عليه القبائل وتبذلان فيه المال وتحالفان فيه الرجال.

على ذلك مات أبوك وعليه خلفته. والشاهد عليك من تؤوي وتلجي من رؤوس أهل النفاق وبقية الأحزاب وذوي الشنآن لرسول الله (ص) وأهل بيته. والشاهد لعلي سبقه القديم وفضله المبين، أنصار الدين الذين ذكروا في القرآن فهم حوله عصائب وبجنبيه كتائب. يرجون الفضل في اتباعه ويخافون الشقاق في خلافه.

فكيف تعدل نفسك بعلي وهو كان أول الناس له اتباعاً وآخرهم به عهداً يشركه في أمره ويطلعه على سره، وأنت عدوه وابن عدوه؟!

فتمتع في باطلك، وليمدد لك عمرو في غوايتك. فكأن قد انقضى أجلك، ووهن كيدك. فستبين لمن تكون العاقبة!

واعلم أنك يا معاوية إنما تكايد ربك الذي قد أمنت كيده ويئست من روحه، وهو لك بالمرصاد وأنت منه في غرور. وبالله ورسوله وأهل بيته عنك الغنى. والسلام على من تاب وأناب»

رسالة معاوية الجوابية إلى محمد بن أبي بكر:

«من معاوية بن أبي سفيان إلى محمد بن أبي بكر، الزاري على أبيه!

سلام على من اتبع الهدى وتزود التقوى

أما بعد. فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله، وما اصطفى له رسوله، مع كلام ألفته ووضعته لرأيك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف.

ذكرت حق ابن أبي طالب وسوابقه وقرابته من رسول الله ونصرته إياه، واحتججت علي بفضل غيرك لا بفضلك. فأحمد إلهاً صرف عنك ذلك الفضل وجعله لغيرك.

لقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا، نرى حق ابن أبي طالب لنا لازماً، وفضله علينا مبرزاً. فلما اختار الله لنبيه ما عنده، وأتم له وعده، وأفلج حجته وأظهر دعوته، قبضه الله إليه. فكان أبوك - وهو صديقه - وعمر - وهو فاروقه - أول من ابتزه حقه. فدعواه إلى أنفسهما ليبايع لهما. لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما، حتى مضيا وانقضى أمرهما. ثم قام عثمان ثالثاً يسير بسيرتهما ويهتدي بهديهما. فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي. وظهرتما له بالسوء وبطنتما حتى بلغتما فيه مناكما.

فخذ يا ابن أبي بكر حذرك، وقس شبرك بفترك، تقصر عن أن تسامي أو توازي من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه ولا تلين على قسر قناته: أبوك مهّد مهاده وبنى لملكه وساده.

فإن كان ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وإن كان خطأً فأبوك أسسه ونحن شركاؤه. فبهديه أخذنا وبفعله احتذينا.

ولولا ما سبقنا إليه أبوك وأنه لم يره موضعاً للأمر، ما خالفنا عليّ بن أبي طالب ولسلمنا إليه. ولكنا رأينا أباك فعل أمراً فاحتذيناه، واقتفينا أثره. فعب أباك ما بدا لك أو دع.

والسلام على من أجاب ورد غوايته وأناب»[1]

وواضحٌ تماماً أن معاوية يعتبر أبا بكر وعمر هما اللذان وضعا الأسس لملكه، حين نجحا في إبعاد المرشح الطبيعي للخلافة وهو علي بن أبي طالب. ومعاوية يلفت نظر ابن أبي بكر إلى أن الصراع الذي يخوضه سنة 38 للهجرة ضد عليّ هو في الحقيقة امتدادٌ طبيعي للصراع - غير المسلح - الذي جرى يوم السقيفة سنة 11 للهجرة، حين قرر أبو بكر وعمر منع بني هاشم من تولّي حكم المسلمين بعد محمد(ص).

---

(1) الرسالتان من أنساب الأشراف للبلاذري. وكذلك وردتا في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

فينظر معاوية، هو ببساطة جامع سياسة قررتها قريش، وتقلّدها وأرسى دعائمها المهاجرون، بأن بني هاشم لن يجمعوا بين النبوة والملك. وما دام الحكم هو لقريش وحلفائها دون بني هاشم، فلا ضير في أن ينبري معاوية ليتزعمه لنفسه لأنه ابن سيد قريش القديم. وهو يعتبر أن بني أمية قد «عوقبوا» بما يكفي عن طريق تسليمهم بقيادة البطنين الضعيفين من قريش، تيم وعدي، طوال اثني عشر عاماً من حكم أبي بكر وعمر.

وفي معرض ردّه على ابن أبي بكر، الذي ذكّره بتاريخه، وأبيه، العدائيّ تجاه الرسول(ص) ودعوته، لم ينفِ معاوية ذلك، ولم ينفِ لعنه وأبيه من قبل الرسول(ص)، ولم يجادل بشأن خصال عليّ وأهليته، قام فقط بإعلامه بأنه ينفّذ سياسة قريش التي كان أبوه رائدها.

وكان معاوية يدرك ولا شكّ مدى ضعف أهليته الإسلامية. فمعروف عن أبيه أنه كان لأشرس أعداء النبي(ص). وكان معاوية يعلم أن رسول الله(ص) قد لعن أباه مع غيره من طغاة قريش من شدّة ما أصابه من ألم يوم أحد بسبب قتلهم لعمه حمزة، رفيق دربه ونصيره، وتمثيلهم بجثمانه. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عمر قال: *«قال رسول الله (ص) يوم أحد: اللهم العن أبا سفيان. اللهم العن الحارث ابن هشام. اللهم العن صفوان بن أمية»*.

وأبو سفيان موصوفٌ في القرآن بأنه من أئمة الكفر *«نزلت الآية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) في أبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد وهم الذين هموا بإخراج الرسول»*[2]

ولكن الزمان تغيّر. ولم يعد معاوية مضطرّاً خاصة بعد صفين، إلى المداراة. فالرسول (ص) توفي قبل أكثر من ربع قرن، وهناك حقائق على الأرض صنعها الخلفاء الثلاثة. ولم تعد الخصال الإيمانية ولا الشرعية الإسلامية تكفي لتحديد مصير الحكم والقيادة. وإذا كان أبو سفيان وقريش،

---

(٢) أسباب النزول للواحدي. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق وفيها ذكر أبي جهل وعتبة بن ربيعة أيضاً. ومثل ذلك رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين.

قد فشلوا في المواجهة الطويلة الدامية مع محمد(ص) وبني هاشم والأنصار، فإن الأوان قد آن لمعاوية وقريش، أن يرتقوا الصدع وينجحوا في الصراع العامي أيضاً، ضد عليّ وبني هاشم والأنصار.

رهان معاوية الخاسر

وبالعودة إلى نشأة معاوية، فهو لم يُظهر تمايزاً عن أبيه، طوال كل تلك السنين التي أمضاها في حروبه الضارية ضد رسول الله(ص)، وبقي معه إلى النهاية، حتى أحاط بهم جيش النبي(ص) فاستسلم أبو سفيان ودخل الدين الجديد مكرهاً، ومعه أبناؤه يزيد ومعاوية وعتبة. ولذلك يمكن بالفعل مؤاخذة معاوية على جرائر أبي سفيان. فهو أصبح رجلاً ناضجاً واعياً، ومع ذلك استمرّ في ولائه لأبيه وسيره على نهجه (كان قد تجاوز الثلاثين عاماً من عمره عند فتح مكة). وهناك رواياتٌ عدّة حول استعمال أبي سفيان لابنه معاوية في ترتيباته وتحضيراته الكثيرة أثناء صراعه الطويل مع النبي(ص). فيمكن اعتبار معاوية شريكاً لأبيه في كل مواقفه.

وإذا كان مُمكناً فهمُ دوافع أبي سفيان في سعيه للمحافظة على وضعه القيادي في مكة، بحكم سنّه ومرتبته، إلا أن إحجام معاوية، الشاب، عن اللحاق بدعوة محمد(ص)، بما تحمله من آفاق للإصلاح والتغيير، يشير إلى ولاءٍ غريبٍ فعلاً، من الشاب معاوية، لتلك المنظومة البالية من القيم القرشية.

كانت أمام معاوية الكثير من الفرص للانضمام إلى الدين الجديد، ولم يفعل.

فمضى مصعب بن عمير بمجده وترفه، ووضعه في بني عبد الدار، في مكة في سبيل الرسول(ص) ودينه.

ورأى معاوية خاله، أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة[1]، وهو يترك أباه وقريشاً، وعزّ بني عبد شمس، لينضم إلى محمد(ص) ودينه.

---

(1) ويزعم أن معاوية كان يشارك أباه رأيه في أخيها اللتي لحق مبكراً إلى ركب محمد(ص) وترك أباه فقالت هند تهجو أخاها لما خلعه:

[illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible]

روى ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج14 ص176)

رأى معاوية الكثير من الأمثلة على الشباب الساعين إلى الحقيقة، ولكنه لم يتأثر بكل ذلك.

بل إن أخته، رملة، لم تتمسك بأبيها، فكانت من بين المهاجرات إلى الحبشة، مع زوجها المؤمن.

إذن تمسك معاوية بأبيه حتى الرمق الأخير. وبالتالي كان من أصحاب الرهانات الخاسرة. فوجد معاوية نفسه من «الطلقاء»، وهم الذين مَنَّ عليهم فاتحهم محمد(ص)، عفواً منهم مقابل إعلانهم الخضوع والاستسلام. وهكذا انقلب الزمان على معاوية، الشريف القرشيّ الذي وجد نفسه مفضولاً أمام أناس كان يعتبرهم من الحثالات الوضيعين! ولم يُمْدِ معاوية بقادر حتى أن يساوي أشخاصاً من أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر، اللذين أصبح لهما، بسبب السبق في الإيمان، وضعية معنوية رفيعة في منظومة الإسلام النبوي.

ولكن رسول الله(ص) اتبع سياسة تجميعية للعرب بعد الفتح العظيم. ومن هنا كان «المؤلفة قلوبهم» الذين قرر رسول الله(ص) أن يتألفهم بالمال لعله يفيد في جعلهم يعتقدون بالفعل بنبوّته.

وبالإضافة إلى العطايا المالية للزعماء القرشيين، قرر النبي(ص) أن يستفيد من القدرات الشخصية للنابهين من أبنائهم، وتسخيرها في خدمة الإسلام. ومن هنا كان معاوية، الشاب الذكي اللامع، من ضمن مجموعة من أبناء زعماء قريش الذين قرر رسول الله(ص) أن يختارهم ليستفيد من مؤهلاتهم وقدراتهم العقلية والعلمية، ولكي يدمجهم بالتدريج في منظومة الإسلام. وقرر رسول الله(ص) أن يستعملهم في مراسلاته التي أصبحت كثيرة جداً، مع القبائل العديدة في أنحاء الجزيرة العربية حول الأمور المالية والإدارية.

وهكذا فإن معاوية وجد الفرصة ليكون من ضمن الذين يحتكون بالنبي(ص).

قال هشام جعيط «إن هذا الشاب، ذا الذكاء والحساسية البالغين، ما كان في مستطاعه أن لا يحس، بحكم هذا القرب من الرسول، بالجاذبية

والأصحاب الذين يشعر بهما كل فكر وقاد حين يجاوز عقلاً رتيباً. ولا شك أن هذا السياسي بتوجهه قد راح يفهم، مهنياً، المجهود التوحيدي والتشييدي الكبير الذي كان يجري أمام عينيه، والبنية الداخلية لشبكات الولاء والسابقة في الإسلام، وربما الإشعاع الروحي الذي كان يفيض من الشخصية النبوية»[1]

عقيدة معاوية[2]

ورغم ذلك، إلا أنه من المشروع التساؤل عن حقيقة عقيدة معاوية، بعد الإسلام، وإلى أن صار خليفة. فعلى الرغم من حرص معاوية، أثناء حكمه، على الالتزام بشعائر الإسلام من صلاة وصيام وحج، وإظهار التوقير الشخصي للرسول(ص) ودينه، إلا أن هناك الكثير من المؤشرات والشواهد التي تدعو للشك في حقيقة إيمان معاوية. فالمرسوم الذي أصدره الطاغية معاوية بشأن إلزام ولاته وزعماء الأمصار بشتم العائلة النبوية، ممثلة بعلي بن أبي طالب، على المنابر، لا يمكن أن يصدر من شخص مؤمن حقاً بنبوة محمد(ص). فعملية الفصل التعسفي بين الرسول وآله، لا تتفق مع النصوص الشرعية الداعية بكل صراحة إلى تعظيم آل البيت، ولا مع تاريخ الإسلام النبوي، الذي لعب فيه آل الرسول(ص) الدور الرئيسي في حملة دعوة الإسلام، وخصوصاً في البدايات، وتمكينها من الصمود، حتى الانتصار.

ومن الممكن أن يكون معاوية، حتى وهو خليفة المسلمين، متأثراً بعقيدة أبيه.

والأرجح أن يكون أبو سفيان من «الزنادقة» في قريش في الجاهلية. وهم الملحدون الذين لا يؤمنون بشيء بعد الموت والقائلون ببقاء الدهر. وقد عدّه ابن حبيب في مقدمة زنادقة قريش بالإضافة إلى عقبة بن أبي معيط والوليد بن

(1) من «الفتنة» لهشام جعيط (ص 178).
(2) مصادر هذا البحث: مسند أحمد بن حنبل (ج1 ص246)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص540)، كتاب المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص388)، البداية والنهاية لابن كثير (ج8 ص22)، صحيح البخاري (ج9 ص94)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج1 ص72 وج2 ص45 وج4 ص130 وج15 ص191).

المغيرة والعاص بن وائل وأُبيّ بن خلف والنضر بن الحارث[1] وهؤلاء لم يكونوا يدافعون عن الأصنام إلاّ بحكم الحميّة وحفاظاً على النظام القائم في مكة الذي يضمن لهم المصالح المادية. وفي حقيقتهم لم يكونوا يؤمنون أن الأوثان تضرّ أو تنفع.

فأبو سفيان، كان أذكى بكثير من أن يؤمن بعبادة أصنام مصنوعة من خشب أو حجارة. وعلى الرغم من أنه كان قاد كل حروب قريش على محمد(ص) حاملاً راية الأصنام، إلاّ أن ذلك كله كان بهدف المحافظة على الامتيازات ونظام الهيمنة القرشي. ولم تكن صرخة النصر التي أطلقها أبو سفيان يوم أحد «اُعلُ هُبل» إلاّ تعبيراً عن انتصار القوى القرشية الرافضة للتغيير، الساعية للمحافظة على مكاسبها الموروثة، أكثر منها إيماناً من أعماق أبي سفيان بذلك الصنم الكبير!

وعندما انفرد معاوية بالحكم، سوف يصرّ دائما على إبراز دور «الإرادة الإلهية» في ذلك، ويلبسها مرفقة مع نبوءات نبوية، كل ذلك من أجل تعزيز عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، بطريقة مشوهة، لدى الرعية المسلمين:

فهو قال إن رسول الله(ص) قال له «يا معاوية: إن مُلكت فأحسن»[2]

وقد روى معاوية حديثاً فسر حياته، يتلخص محتواه في أن الرسول(ص) قد بشّر بأن معاوية وجماعته سيظهرون على من خالفهم! وكان دائماً يجد من عبيد المال وعديم السلاطين من يؤيد أيّ عبر يرويه، وبل ويزايد عليه فيه!

فمثلاً جاء في صحيح البخاري عن معاوية:

«سمعت النبي(ص) يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك.

قال عمير: فقال مالك بن يخامر قال معاذ: وهم بالشام.

فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول وهم بالشام».

---

(1) كتاب المنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي

(2) البداية والنهاية لابن كثير، نقلاً عن البيهقي

والملفت للنظر هو ذلك الطابع الرخيص الذي يتطلّع ليضيف بعباراته إلى ما قاله سيّده معاوية: وهم بالشام!

*****

وفي حالة نادرة، أفلتت من معاوية عبارات تنمّ عن نوع من الاستهزاء بكلام النبي (ص):

«... ذلك أن النعمان بن بشير الأنصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية. فشكوا إليه فقرهم وقالوا: لقد صدق رسول الله (ص) في قوله لنا: ستلقون بعدي أثرة. فقد لقيناهم.

قال معاوية: فماذا قال لكم؟

قالوا: قال لنا: فاصبروا حتى تردوا عليّ الحوض.

قال: فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غداً عند الحوض كما أخبركم.

وحرمهم ولم يُعطهم شيئاً»[1]

وفي حالة أخرى لم يتردد معاوية في مخالفة فعل بيّن للرسول (ص)، حتى في موضوع العبادات، البعيد عن السياسة وشؤونها. فقد روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل:

«رأيت معاوية يطوف بالبيت، عن يساره عبد الله بن عباس وأنا أتلوهما في ظهورهما، أسمع كلامهما.

فطفق معاوية يستلم ركن الحجر. فقال له ابن عباس: إنّ رسول الله (ص) لم يستلم هذين الركنين!

فيقول معاوية: دعني منك يا ابن عباس! فإنه ليس منها شيء مهجور.

فطفق ابن عباس لا يذره كلما وضع يده على شيء من الركنين قال له ذلك»[2]

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. ونقل ابن أبي الحديد أيضاً عن شيخه أبي القاسم البلخي قوله إن معاوية وعمرو بن العاص كانا ملحدين.
(2) وكذلك روى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين.

ويبدو أن قريشاً كانت تفعل ذلك قبل الإسلام، فرغب معاوية بمتابعة سنتها.

وفي أواخر عهده وبعد أن توطدت أركان حكمه وسلطانه، عبّر معاوية لبعض أوليائه وخاصته، عن أقوالٍ فيها كفرٌ بمحمد(ص) ونبوّته. فلما نصحه المغيرة بن شعبة بأن يصل رحم بني هاشم لأنه لم يعد لديهم شيء يخافه، وحتى يبقى له ذكرٌ حَسَن، ردّ عليه:

«هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه؟

ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: عمر.

وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمداً رسول الله)!

فأي عملي يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك؟ لا والله إلا دفناً دفناً»[1]

• وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب (أخبار الملوك) أن معاوية سمع المؤذن يقول (أشهد أن لا إله إلا الله)، فقالها ثلاثاً. فقال: (أشهد أن محمداً رسول الله)! فقال: لله أبوك يا ابن عبد الله! لقد كنت عالي الهمّة، ما رضيت لنفسك إلا أن يُقرن اسمك باسم رب العالمين»[2]

معاوية في ظل عمر[3]

قال هشام جعيط عن سياسة أبي بكر وعمر [4] «لقد أرادا ملك الخلافة،

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
(3) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص846 وج3 ص826 وص832 وص837)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص103-104)، تاريخ الطبري (ج3 ص277 وص164)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص7)، كتاب الموطأ للإمام مالك (ج2 ص634).
(4) «الفتنة» لهشام جعيط (ص 176-179).

بالأخص عمر، أن يُخرجا الجيل الأموي الجديد من الظل والركود، من خلال تكليفه بمهمات قيادية. ومثال ذلك، يزيد بن أبي سفيان، الأخ الأكبر لمعاوية، الذي شارك مشاركة فعّالة وبارزة في فتح الشام والذي عيّنه عمر والياً على هذا المصر بالذات سنة 13 هجرية، وكلّف يزيد معاوية ببعض المسؤوليات القيادية لا سيما الاستيلاء على قيسارية، إحدى المدن القلاع التي أخذت عنوة. بعد عدّة أشهر مات يزيد واستبدله عمر بأخيه. ولم يكن ذلك من جانب عمر مجرّد اهتمام بربط الأرستقراطية القرشية على نحو أفضل بالإسلام، بل كان نوعاً من إضفاء الاعتبار والتقدير عليها لأنها كانت حقاً قد تألّقت وبرزت في فتح الشام، سواء كانت من أمية أم من مخزوم أم من بطون أخرى، ولأنّ شبابها كان دافع ضريبة الدم في معركة اليرموك الحاسمة (15 هجرية)... لقد عرف عمر كقائد شعب، وكقائد حقيقي للعرب، مع نزعة قومية، كيف يطبّق استراتيجية عربية مجتمعة، وكيف يمحو الردة والصراعات القديمة بين القرشيين...

وفي الشام كان ميالاً إلى تعيين قرشيين: أولاً من كبار الصحابة مثل أبي عبيدة، ثم رجالاً ذوي قيمة، لكن دون ماضٍ إسلامي مرموق. لقد كانت الشام المختبر الذي جرى فيه اختبار صدق الانضواء القرشي في الإسلام، صدق أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام منذ أمد بعيد كما صدق المنضوين في الساعة الأخيرة على حد سواء: من خالد بن سعيد بن العاص إلى خالد بن الوليد إلى عمرو بن العاص إلى يزيد وإلى معاوية....

وعلى هذا النحو، تفرض جذور ارتقاء معاوية في ظروف فتح الشام بالذات بقدر ما تفرض في سياسة عمر المتقنة أو المخطّطة. ومما سهّل ارتقاء معاوية موت أو تغيّب القرشيين من أهل السابقة، بسبب الحرب، وانفتاح أمصار أخرى أمام الفتح (مصر)، والضربة القاضية التي أصابت صفوفهم من جرّاء طاعون عمواس (17-18 هجرية). فقد مات من جرّائه خالد بن سعيد بن العاص وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد وسواهم وانتقل عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر. وبالتالي بقي معاوية، ولقد نجا من كل هذا، في موقع مثالي ليخلف شقيقه، بقدر ما كان قد أثبت قيمته.

ويقول مؤكداً على الدور الذي لعبه عمر بن الخطاب في إعادة تأهيل أرستقراطية قريش بعد هزيمتها:

«كان معاوية يرتجف أمام عمر، ولم يكن في السياق المحتدم على الفتوحات الذي كان يحرّك ليالي كل الجزيرة العربية، ويزعزع الممالك والامبراطوريات، ويقيم مكانها النظام الاسلامي الجديد، مكانٌ للارستقراطية القرشية والأموية إلاّ ما كان يمنحه عمر لها، بشكل أبوي. فعندما أظهر رجلٌ منهم من رجالات الحرب والاسلام مثل خالد بن الوليد العجب بنفسه، نظراً لمزاياه القتالية، لم يتردد عمر في ضرب عنجهيته وعزله ...»

لقد فهم أبو سفيان حجم المحنة التي أصابته بانتصار الرسول (ص) وانتصاره وهزيمته المدوّية هو وقريش كلها. وعرف أبو سفيان أن الدنيا تغيّرت ولا يمكن العودة إلى الوراء، وأن تأخره هو وقومه عن اللحاق بركب الرسول(ص)، إلى أن دخلوه مرغمين، قد أدّى إلى ضياع «الشرف» الذي كان أبو سفيان يدّعيه لنفسه، وأدّى أيضاً إلى أن مَن يعتبرهم أقل منه «شرفاً» قد أصبحوا ذوي الفضل الأعلى في ظل منظومة الدين الجديد الذي بناه الرسول(ص)، وبالتالي أصبح لا أمل له هو وقومه في أي مكان في المجتمع الجديد إلاّ عن طريق الانصياع لمن يعتبرهم هو دونه في «الشرف»، وانتظارهم إلى أن تحين الفرصة التي تمكنه هو وقومه من النهوض من جديد وبالتالي الانتقام مما حصل واستعادة المكانة الضائعة.

فكان أبو سفيان نفسه يرغم عنجهيته وكبره يمالئ عمر بن الخطاب ويتملّقه. فقد روى ابن شبة حادثتين يظهر فيهما أبو سفيان أقصى درجات الطاعة والولاء لعمر:

«أتى عمر رضي الله عنه على أبي سفيان رضي الله عنه وهو يبني له، قد أضرّ بالطريق.

فقال: يا أبا سفيان انزع بناءك هذا فإنه قد أضرّ بالطريق.

فقال: نعم وكرامة يا أمير المؤمنين...»

وأيضا:

« خرج عمر رضي الله عنه ومعه أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، فعثر بلبن في الطريق، فأمر أبا سفيان أن ينحيه.

فجعل ينحّيه...»(1)

وفي السنة السابعة عشرة للهجرة، كان طاعون عمواس. وذلك كان كارثة بكل المقاييس. فمات بسببه حوالي 25 ألفا من المسلمين بالشام ومن بينهم كل القيادة الفعلية للجيوش: أبو عبيدة، معاذ بن جبل، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ويزيد بن أبي سفيان.

ونجا عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان من ذلك الطاعون الرهيب. فأمر عمرو بن العاص الناس بالتفرق في الجبال إلى أن تزول آثار الوباء، وفر هو بنفسه إلى مصر. واستخلف يزيد وهو في الرمق الأخير أخاه معاوية على عمله – ولاية دمشق – فأقره عمر في ذلك المنصب.

فقال أبو سفيان لابنه معاوية عندما ولاه عمر «يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد ولّوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم فإنك تجري إلى أمدٍ فنافس فيه، فإن بلغته أورثته عقبك»(2)

وقالت له أمه كما يروي ابن عساكر أيضاً «والله يا بني إنه قلّ ما ولدت حرّةٌ مثلك، وقد استنهضك هذا الرجل فاعمل بموافقته، أحببتَ ذلك أم كرهته»

وقد نقل معاوية تعاليم أبيه وأمه، فكان شديد الطاعة والولاء لعمر بن الخطاب، حتى أن الامام علي وصفه مرة بأنه «كان أطوع لعمر من غلامه» في معرض رده على عثمان حين قال له عثمان أن عمر هو الذي استعمل معاوية.

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري.

(2) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ويلاحظ في نص أبي سفيان، الكلمة الأخيرة «فإن بلغته أورثته عقبك»، ملحمة على الرواية.

ويقصد عليّ أن معاوية أصبح فرعوناً في ظلّ سياسة الخليفة عثمان الذي تركه بلا حسيب ولا رقيب يتصرّف بالشام كما يشاء - بعكس عمر الذي كان يراقب عمّاله ويتابعهم.

وقد ذكر ابن شبة رواية توضح مدى الهلع الذي كان يجتاح معاوية من عمر بن الخطاب، والحرص الذي كان يبديه على استرضائه، إلى درجة تقترب به من الذل! فعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام على جمله «... وتلقّى معاوية رضي الله عنه على برذون، فنزل، ومشى معه.

وتغافل عنه عمر رضي الله عنه.

فقيل له: يا أمير المؤمنين: جهدت الرجل، إنه بادن.

فقال: دعه.

حتى بلغ من ذلك ما أراد، لم أتركه أركب»[1]

فمعاوية هنا يترجّل ويسير على قدميه ماشياً خلف عمر بن الخطاب الذي هو على جمله، لمسافة طويلة جداً حتى يناله الجهد والتعب الشديد، دون أن يبدي أي اعتراض، إلى أن يتطوّع أحدهم ليذكّر عمر أن يرأف به ويرحم بدانته!

وطوال سنوات حكم عمر بن الخطاب، كانت أمه هند وأبوه أبو سفيان شديدي الحرص على الاستمرار في رعاية ولدهما، وأملهما، معاوية وإسداء النصائح المخلصة له بما يمكنه من المحافظة على منصبه المهم في ولاية دمشق. وقد بلغ حرص هند عليه إلى حد أنها لما سمعت مرة أن أبا سفيان، وكان طلّقها، قد ذهب لزيارة معاوية في الشام خافت أن يتهوّر معاوية فيعطي أباه مالاً كثيراً فيجلب عليه غضب عمر، فلحقت إليه مسرعة، فلما رآها قادمة من بلاد بعيدة:

«... قال: ما أقدمك أي أمه؟

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة، والبرذون هو دابة من أشهر وسائل الركوب في ذلك الوقت.

قالت: انظر إليك أي بني. إنه عمر، وإنما يعمل لله. وقد أتاك أبوك فخشيتُ أن تخرج إليه من كل شيء - ولعل ذلك عمر - فلا يعلم الناس من أين أعطيته، فيؤنبوك ويؤنبك عمر فلا تستقيلها أبداً...»(1)

وهكذا فإن هنداً تتحمل المشقة وعناء السفر لكي تتأكد أن ابنها الحبيب لن يرتكب زلّة قد تطيح بمستقبله السياسي. وقد كان عند حسن ظنّها فلم يعطِ أباه سوى مائة دينار وكسوة. وفعلاً حصل ما توقعته عندما سأل عمر أبا سفيان لدى عودته عما أعطاه معاوية، فأخبره، فلم يعلّق.

ويمكن ملاحظة نوع من التساهل من طرف عمر تجاه ابنيّ أبي سفيان، يزيد ومعاوية من بعده، فيما يتعلق بأخلاقهما وسلوكهما الشخصي. فمهما برع هذا أبي سفيان في المداهنة والتزلّف للخليفة وإظهار التمسك بحرفية تعليماته وأوامره، إلا أنه لا يمكن التصديق بأن شخصاً من طراز عمر يمكن أن يخدع أو يغفل ببساطة. وهناك ما يكفي من الإشارات إلى أن عمر كان بالفعل يعرف أن يزيداً، ومن بعده معاوية، كانا لا يتصفان، على الصعيد الشخصي، بالزهد والورع والتقشف التي كان عمر يطالب به ولاته ويحاسبهم عليه.

«بلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل ألوان الطعام. فقال لمولى له يقال له يرفأ: إذا علمتَ أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني. فلما حضر عشاؤه أعلمه.

فأتاه عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له. فدخل فقرب عشاءه.

فجاء بثريد لحم، فأكل عمر رضي الله عنه منها. ثم قرّب شواء، فبسط يزيد يده وكفّ عمر رضي الله عنه يده.

ثم قال: الله يا يزيد بن أبي سفيان! أطعام بعد الطعام؟!...»

وأيضاً:

«إن عمر رضي الله عنه غزا إلى الشام وعليها يزيد بن أبي سفيان فدعاه إلى طعامه.

---

(1) تاريخ الطبري. وروى ذلك أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق.

لإذا بيتٌ مستور. فوضع عمر رضي الله عنه طيلسانه ثم طفق تلك الستور يقطعها.

وأخذ الآخر يقول: أعوذ بالله من غضب الله وغضب أمير المؤمنين!

فقال: ويحك ! أتلبس الحيطان ما لو آليته قوماً من الناس لسترهم من الحر والقر؟!»[1]

من هذين الاقتباسين يظهر جليا أن عمر كان يعلم بإسراف يزيد بن أبي سفيان في ملذات الطعام واتخاذه الأمتعة وزخارف الحيطان. ولكن لم يُرْوَ أن عمر قد طبّق أي عقاب بحقه، باستثناء اللوم والزجر.

ومن المثير مقارنة موقف عمر تجاه يزيد، بموقفه من والٍ آخر له كان قد استعمله على الشام أيضاً. فعندما بلغه أن عياض بن غنم الفهري قد اتخذ مظاهر الأبهة استدعاه إلى المدينة وعاقبه بشدة: أجبره أن يرعى ثلاثمائة شاة لمدة شهرين كاملين! إلى درجة أن عياضاً أخذ يحاول إرسال الوساطات لطلب ودّ عمر إلى أن سامحه، بعد أن حطّ من كبريائه.

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك التساهل من طرف عمر تجاه معاوية ما رواه الذهبي عن الصحابي عبادة بن الصامت الذي كان عمر بعثه إلى الشام لتعليم الناس القرآن:

«إن عبادة أنكر على معاوية شيئاً. فقال: لا أساكنك بأرض. فرحل إلى المدينة.

قال له عمر: ما أقدمك؟

فأخبره بفعل معاوية.

فقال له: ارحل إلى مكانك. فقبّح الله أرضاً لست فيها وأمثالك. فلا إمرة له عليك»

---

(1) هذا الاقتباس وما قبله من تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. والخبر الذي بعده عن عياض بن غنم هو من نفس المصدر.

وهنا يكتفي عمر بإعادة الصحابي إلى الشام مع استثنائه –هو وحده– من إمرة وسلطان معاوية، دون أن يتجاوز ذلك إلى إيقاع أي عقاب بمعاوية على ما بدر منه تجاه عبادة.

وروى الإمام مالك رواية أخرى تفيد أن الصحابي أبا الدرداء قد أنكر على معاوية ممارسة نوع من الربا، عن طريق بيع الذهب بأكثر من وزنه:

فقال أبو الدرداء: سمعتُ رسول الله (ص) ينهى عن مثل هذا، إلاّ مثلاً بمثل.

فقال له معاوية: ما أرى بمثل هذا بأساً!

فقال أبو الدرداء: من يعذرني من معاوية؟ أنا أخبره عن رسول الله (ص)، ويخبرني عن رأيه! لا أساكنك بأرض أنت بها.

ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب، فذكر ذلك له.

فكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أن لا تبيع ذلك، إلاّ مثلاً بمثل، وزناً بوزن.

وهنا أيضاً يكتفي عمر بنهي معاوية، ولا يتجاوز ذلك إلى اتخاذ أي إجراء بحقه.

وربما يمكن تفسير ذلك التساهل الذي أبداه عمر تجاه ابنَيْ أبي سفيان، يزيد ومعاوية، بضرورات الحكم والسياسة. فولاية الشام كانت بنظر عمر أهم ولاياته وكانت تحتاج إلى تدبير محكم للسيطرة عليها وتثبيت مواقع المسلمين فيها. فالامبراطورية البيزنطية لم تكن قد انهارت كلياً، بل انكفأت وتراجعت بعد هزيمتها المرّة على أرض الشام، ولكنها، وبعكس الامبراطورية الساسانية في إيران التي سقطت في عقر دارها، حافظت على تماسكها كدولة وبقيت قادرة على الدفاع عن نفسها إلى الشمال من سورية، بل كانت تشكّل تهديداً حقيقياً ومتواصلاً للسيطرة العربية في الشام. كان الخطر الرومانيّ موجوداً على الدوام وماثلاً أمام ناظريْ عمر، الذي كان يخشى من أن ينجح الرومان في لمّ شملهم وشنّ هجوم كاسح على العرب لاسترجاع ما خسروه في بلاد الشام.

فكانَ عمر قرر إعطاء الأولوية المطلقة لحسن الإدارة والكفاءة في سياسة الفتوحات لضمان الجاهزيّة التامة لمواجهة الروم، على أي اعتبار آخر. ويمكن الاستنتاج أن عمر كان مُتنَ الرأي في الخصال الشخصية لابنَي أبي سفيان فيما يتعلق بالقدرة على القيادة والتعامل الواقعي مع المخاطر والتحديات.

وقد عبّر عمر مرة عن ذلك حين عزل شرحبيل بن حسنة عن قيادة أحد المقاطعات التي كان والأ عليها - الأردن - في الشام وضمّ عمله إلى معاوية:

«... وعزل شرحبيل واستعمل معاوية...،

فقال له شرحبيل: أعن سَخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟

قال: لا. إنك لكما أحب، ولكني أردتُ رجلاً أقوى من رجل...»[1]

وكانت النتيجة النهائية أن معاوية نجح في المحافظة على ثقة عمر لأكثر من أربع سنوات كاملة، إلى أن قتل عمر، دون أن يُروى أن عمر قد طبّق عليه عقاباً يماثل ما كان يفعله بغيره من العمّال. أبقاه عمر حاكماً لنصف بلاد الشام. لم يعزله لم يقاسمه ماله، ولم يطبّق بحقّه أي عقوبات تذكر.

صعود معاوية بفضل سياسة عثمان

ولما تولى عثمان بن عفان الحكم، فُتِحت أمام ناظري معاوية آفاقٌ هائلة لا حدود لها. فالرجل ابن عمه. والأهم من ذلك أنه حبيب قريش والمتفضل عليها والمعروف بودّها وصلة رحمها. وكان معاوية يعرف من خصال عثمان وطباعه ما يجعله متأكداً أنه سيكون له ولبقية قومه من بني أمية نصيبٌ وافرٌ من شؤون الحكم والقيادة في دولة الخلافة في كل مكان.

وبعكس عمر بن الخطاب، كان عثمان رقيقاً وديعاً، تجاه قومه بالأخص. ولم يكن لعثمان قوة شخصية عمر ولا هيبته.

وبدلا من ذلك، فقد كان عهد عمر بن الخطاب عهدَ الفتوحات، والجهاد، والمعارك، والتضحيات. وأما عهد عثمان فهو منطقياً سيكون عهدَ قطف

(1) تاريخ الطبري

تلك الفتوحات وجني الفوائد منها، حتى وإن لم يخلُ الأمر من حروب لتثبيت تلك الانتصارات أو توسيع حدودها.

وكان بنو أمية جاهزين تماماً للاختصاص على كل مفاصل الدولة، وعلى رأسهم كان معاوية.

وسّع عثمان صلاحيات معاوية، وزاد في ولايته وجعلها تشمل كل بلاد الشام والجزيرة بعد أن كانت تقتصر على دمشق. وغيّر ذلك غيّر عثمان أسلوب التعامل مع الوالي. فبعد أن كان عمر يحكم قبضته على كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحكم في الولايات كلها، لجأ عثمان إلى أسلوب تفويض الصلاحيات إلى الوالي. وسواء اتخذ عثمان هذا المنحى بسبب ضعف في شخصيته، أم بسبب صعوبات موضوعية ناتجة عن بُعد المسافات وضخامة حجم الدولة، فالنتيجة واحدة وهي المزيد من اللامركزية في الإدارة والقرارات.

تخلص معاوية، أخيراً، من شبح عمر المُهيمن، وأصبح حراً طليقاً في ولايته الضخمة والغنية. فعدا عن المبلغ السنوي الذي يرسله معاوية من خراج الشام إلى مركز الخلافة في المدينة، صار معاوية مستقلاً بالفعل فيما يختص بشؤون الجيوش والإدارة، والتجمعات العربية التي استوطنت الشام، والعلاقة مع أهل البلاد القدماء ومع دولة الروم في الشمال.

واستغل معاوية قرابته من عثمان وصلاته العائلية به، في ترسيخ هيبته وسيطرته على مقاليد الأمور في الشام، فكان يقول لرعيته إن كل ما يأمر به ويقرره إنما هو أمر الخليفة وسياسته. ولم تكن هناك قنوات تواصل بين الخليفة في المدينة وبين الرعية في الشام، إلاّ من خلال معاوية. وبمرور الوقت، أخذ الناس في الشام يعتقدون أن معاوية هو فقط مَن يعبّر عن مؤسسة الخلافة وينطق باسمها، ويمتلك صلاحية القرار بالنيابة عنها.

آراء في سياسات معاوية

قال عنه عبد الرحمن الشرقاوي:

«حقاً .. حقاً.. إن رجل هذا العصر هو معاوية! فهو وحده يخاطب

الأطماع ويشبعها، ويستفز الأهواء فيرضيها. ملكٌ قادرٌ قاهر، لا يعفّ عن شيء يخدم به هدفه، حتى القدر نفسه... وحتى سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك المحرمات، وسبي النساء المسلمات!

... وهو يصنع كل شيء، وأي شيء، مهما يكن من شيء، للوصول إلى الغاية... وغايته الملك..

وهو قد استقى من منبع أبي سفيان وهند وتربى على اكتساب المغنمة من أي سبيل.

ووجد عصراً سلطته المنتفعة، وهدفه المنفعة، وقانونه المنفعة، فكان بحق رجل العصر.

... ثم إن معاوية ليصطنع لنفسه الكثيرين من رؤساء القبائل العربية: يثير فيهم العصبية القبلية، والنعرات الشخصية، ثم يغدق عليهم ويجزل لهم من العطاء بغير حق...

... ومعاوية يحسب حساب الربح والخسارة. فالحياة عند معاوية صفقات، يبرم منها وينقض، ويساوم ويتنازل، ويهادن بقدر ما تدر من ربح أو تجلب من خسارة!!

ويقال عن نشأة معاوية:

«... نشأ معاوية في بيت أبي سفيان، رأس الكفر في الحجاز. وربّته أمه هند بنت عتبة التي عرفها المسلمون باسم آكلة الأكباد...

وتربى معاوية منذ نشأته في قصر ضخم يملكه رجلٌ من أكبر أغنياء مكة، يعمر لياليه بالمتاع، وما من شيء يعنيه إلا قتل محمد وصحبه وهدم الإسلام قبل أن يرتفع بنيانه وتترسّخ أركانه!

... كلا الوالدين يملأ قلبه الضغن وطلب الثأر، وخوف ضياع المكانة، أو فقدان السكينة إذا انتصر محمد وأتباع محمد....

كان معاوية فتىً مترفاً، يلبس كل يوم حلتين ثمينتين، ويتحلى بالجواهر. وهو يحب الطعام الفاخر مهما يتكلف. وكان يتخير من أنواع الطيور والأحياء

المالية ما يجلب إليه من أماكن بعيدة، وعلى مائدته من الحلوى وحدها عشرة أصناف»[1]

*****

قال هشام جعيط «سرف يميل معاوية، لأن هذا كان يوافقه، إلى وضع الفيء فوق الاعتبارات العشائرية والعائلية، وإلى إبراز خصوصية وصلاته الإحسانية وطابعها الشخصي جداً. فالفيء للجميع، إنه ملك مشترك. فلا يستطيع أحد أن يدّعيه لنفسه باسم الأواصر الدموية الضيقة. لكن قريشاً بمجملها، يمكنها ادعاء ذلك، أكثر من سواها، لأنها قبيلة الله»[2]

*****

وقال عباس محمود العقاد عن معاوية «كانت له حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة، من المسلمين وغير المسلمين. وكان قوام تلك الحيلة، العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه، بإلقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه.

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس (الفطري) بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بهم

ومضى معاوية على هذه الخطة التي لا تتطلب من صاحبها حظاً كبيراً من الحيلة والروية - فلو أنه استطاع أن يجعل من كل رجل في دولته حزباً منابذاً لغيره من رجال الدولة كافة لفعل»[3]

وهناك الكثير من الشواهد التي تدل على صحة تحليل العقاد. فمثلاً روى ابن عساكر[4] أن معاوية كان يحاول الإيقاع بين اثنين من الرياسة وأعمدة

---

(1) من كتاب «علي إمام المتقين» لعبد الرحمن الشرقاوي (ص 690).
(2) من «الفتنة» لهشام جعيط (ص 170).
(3) من كتاب «شيخ المضيرة» لمحمود أبو رية (ص 204) نقلاً عن كتاب «معاوية في الميزان» للعقاد.
(4) تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 31 ص 127).

حكمه، مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. وملخّص القصة أن معاوية كتب لسعيد بن العاص حين كان واليا على المدينة يقول له: «بلغني أن مروان ابتنى داراً، وأنه خرج في الطريق، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم داره»، ولكن سعيد يبدو أنه تلكأ في مطلب معاوية فلم ينفذ. وفي العام التالي عيّن معاوية مروان والياً، ثم كتب إليه يهدم دار سعيد. وأراد مروان التنفيذ فأخرج له سعيد كتب معاوية له، والتي كان قد احتفظ بها، وأعلمه بمقصد معاوية، مما دفع مروان إلى كتابة شيء لمعاوية يلومه على ذلك.

ذكر اليعقوبي في تاريخه:

«وكان لمعاوية حلمٌ ودهاء، وجودٌ بالمال والمداراة ....

وقال سعيد بن العاص: سمعت معاوية يوماً يقول: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني.

ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت! قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: كانوا إذا مدّوها خليتها، وإذا خلوها مددتها[1].

وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره، قطع لسانه بالإعطاء، وربما احتال عليه، فبعث به في الحروب، وقدّمه.

وكان أكثر فعله المكر والحيلة»[2]

*****

وأما في ميزان الشرعية الإسلامية، والتفاضل المبني على أساس ما بذله الرجال من تضحيات في سبيل الدين وما ورد بشأنهم من أحاديث على لسان النبي(ص)، فلم يصح بشأن معاوية أيّ ذكر على لسان النبي(ص) إلاّ حديث رواه مسلم في صحيحه، وليس فيه تشريف له أبداً:

«عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله(ص) فتواريت خلف باب، فجاء فحطأني حطأة وقال: اذهب وادع لي معاوية.

---

(1) ومن هنا راج المثل المشهور: شعرة معاوية !

(2) تاريخ اليعقوبي (ج2 ص232).

فجئت فقلت: هو يأكل.

ثم قال لي: اذهب فادعُ لي معاوية.

فجئت فقلت: هو يأكل.

فقال: لا أشبعَ الله بطنه»[1]

عمرو بن العاص: حليفُ معاوية الأول[2]

ولا يكاد يُذكر معاوية إلاّ ويذكر معه حليفهُ الأكبر والأهم: عمرو بن العاص بن وائل السهمي.

لقد شكّل معاوية وعمرو بن العاص ثنائياً متكاملاً من كل النواحي. وأثبتا فعالية حقيقية في المواجهة الكبرى ضد عليّ بن أبي طالب.

كان اجتماعهما أمراً طبيعياً. فهناك الكثير من عناصر الشبه بينهما تجعل أمر التقائهما في جبهة واحدة أمراً شبه حتمي. كان عمرو بن العاص، مثل معاوية، ذا ماضٍ غير مشرّف في المنظور الإسلامي:

---

(1) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب (ص974).
وفي سيرة معاوية اللاحقة ما يؤيد شدة نهمه بالطعام. وقد روى الشيخ أبو رية في «شيخ المضيرة» (ص 220) نقلاً عن ابن كثير في البداية والنهاية أن معاوية كان يأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ووصف الأحنف بن قيس طعام معاوية بقوله: دخلت على معاوية فقدم لي من الحار والبارد والحلو والحامض ما كثر تعجبي منه. ثم قدم لوناً لم أعرف ما هو. فقلت: ما هذا؟ فقال: مصارين البط محشوة بالمخ قد قلي بدهن الفستق وذُرّ عليه بالطبرزد.
ويروى في كتب التراث الكثير حول مدى نهم معاوية، وولعه بالطعام وحشده الأصناف، إلى درجة أنه قد أصيب بأحد أمراض التخمة، فصار يخطب وهو جالس، فكان أول من خطب جالساً في الإسلام!
وروى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج1 ص 190) نقلاً عن المدائني: كان يأكل في اليوم أربع أكلات أخراهن عظماهن، ثم يتعشى بعدها بثريدة عليها بصل كثير ودهن كثير قد شغلها. وكان أكله فاحشاً، يأكل فيلطخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يفرغ. وكان يأكل حتى يستلقي ويقول: يا غلام: ارفع، فوالله ما شبعت ولكن مللت.
(2) مصادر هذا البحث: كتاب المغازي للواقدي (ج2 ص201)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج6 ص291 وج2 ص243 وج1 ص274)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص110)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج12 ص11).

لقد اختارته قريش ليكون مفاوضها الرئيسي عند النجاشي من أجل تسليم المسلمين الأوائل اللاجئين بدينهم الى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب القرشي. ولم تكن قريش لتنتخبه هو بالذات لهذه المهمة الإجرامية، لولا أنه من أوثق رجالها المعروفين ببغض الرسول(ص) ومن ثمه والحريصين على رفض التغيير والدين الجديد الذي جاء به.

وعندما استعدت قريش للمسير لقتال محمد(ص) يوم أحُد بعثت أربعة من أبنائها المتحمسين لاستنفار قبائل العرب ومن حالفهم لدعم قريش في حربها. وكان عمرو بن العاص على رأس هؤلاء المندوبين، إلى جانب هبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعري وأبي عزة الجمحي.(1)

وقد هجا عمرو بن العاص رسول الله(ص) هجاءً كثيراً كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون برسول الله(ص) إذا مرّ بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء. فكان رسول الله (ص) يقول وهو يصلّي بالحجر: اللهم إن عمرو بن العاص هجاني، ولستُ بشاعر، فالعنه بعدد ما هجاني.

وروى ابن أبي الحديد عن الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات عن الحسن بن عليّ أنه قال لابن العاص:

وأما أنت يا ابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من عُهر وسفاح، فتحاكم فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسباً وأخبثهم منصباً.

ثم قام أبوك فقال: أنا شانئ محمد الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل.

وقاتلت رسول الله(ص) في جميع المشاهد وهجوته وآذيته بمكة، وكدته كيدك كله، وكنت من أشدّ الناس له تكذيباً وعداوة.

ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً، وأكذبك واشياً، جعلت حدّك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكب مع حليلتك. ففضحك الله وفضح صاحبك.

(1) كتاب المغازي للواقدي.

ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله(ص) بسبعين بيتاً من الشعر. فقال رسول الله(ص): اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي. اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة، فعليك إذاً ما لا يحصى من اللعن.»

وكان عمرو بن العاص أكبر سناً من معاوية، وكان أيضاً أكثر حنكة منه حين أحسن تقدير موازين القوى واتجاه الريح، فتدارك نفسه في اللحظات الأخيرة قبل فتح مكة فذهب إلى يثرب وأشهر إسلامه أمام النبي(ص)، وبذلك تمكن من تجنّب صفة «الطليق» البغيضة في المنظور الإسلامي، والتي كانت لاصقة بمعاوية الذي لم يستطع منها فكاكاً. ولذلك كان وضعه في منظور الشرعية الإسلامية أفضل قليلاً من معاوية، خاصة وأنه استفاد من سياسة النبي(ص) المتسامحة تجاه خصومه، فقاد سرية أرسلها النبي(ص) إلى ذات السلاسل لإخضاع بعض القبائل التي كان بينها وبينه علاقة خؤولة.

وفي عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، نال عمرو بن العاص فرصته الذهبية. فقد أحسنا تقدير خصاله القيادية المميزة سلفاً في ميدان الصراع الحربي والسياسي. فكان من قيادة الجيش الذي أرسله أبو بكر لفتح الشام. وأما إنجازه الأبرز فكان في عهد عمر، حين كان قائد الحملة التي نجحت في فتح مصر.

وهذه الإنجازات الحربية المهمة أضفت نوعاً من الشرعية الإسلامية على شخصية عمرو بن العاص، وغطّت، قليلاً، على ماضيه الملطّخ في الإسلام.

واشتهر عمرو بن العاص بدهائه الشديد في مواجهة خصومه، حتى لقب بـ«داهية العرب». وعرف عنه فصاحته ونحته المخاطر. ولا يمكن الجدال حول صفاته القيادية الفذة، ولا حول حنكته وحسن إدارته للجيوش والرجال، ولكن لا يمكن أبداً اعتباره فارساً مغواراً على الصعيد الشخصي، فقد كان قصير القامة ولم تروَ عنه بطولاتٌ تذكر في القتال أو المبارزة.

قال عنه علي بن أبي طالب:

«عجباً لابن النابغة ...

لقد قال باطلاً ونطق آثماً. أما وشرّ القول الكذب، إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويَسأل فيلحف، ويُسأل فيبخل، ويخون العهد، ويقطع الإلّ.

فإذا كان عند الحرب فأيّ زاجرٍ وآمرٍ هو، ما لم تأخذ السيوف مآخذها. فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم سبّته...

وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. إنه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتيه أتيّة، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة»[1]

وقد وصفه ابن عباس وصفاً بليغاً فقال له:

«لا أراك حضرت إلاّ بالغدر ولا مشيت إلاّ بالتقصير والغش.

وذكرتَ مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ولا نكأت فينا جرأتك.

ولقد كنت فيها طويل اللسان قصير البنان، آخر الحرب إذا أقبلت وأولها إذا أدبرت.

لك يدان: يدٌ لا تقبضها عن شرٍ ويدٌ لا تبسطها إلى خير.

ووجهان: وجهٌ مؤنسٌ ووجهٌ موحش.

ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ حزنه على ما باع واشترى.

أما إن لك بياناً ولكن فيك خطل.

وإن لك لرأياً ولكن فيك فشل.

وإن أصغر عيبٍ فيك، لأعظم عيبٍ في غيرك»[2]

وكمكافأة له على إنجازه بقيادته للجيش الذي فتح مصر، ثبّته عمر بن

---

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد نقلاً عن البلاذري.

الخطاب في منصب والي مصر. وربما قدّر عمر أن الوضع في مصر غير مستقر، وتتهددها مخاطر جدّية من قبل الرومان، مما يتطلّب رجلاً من طراز عمرو هناك.

ولكن عمرو بن العاص تعرّض إلى نكسة في عهد عثمان بن عفان. فقد نشب صراعٌ باطنيٌ طويلٌ وغامض بين عمرو بن العاص ورجل يماثله في الخلق: عبد الله بن أبي السرح، على أرض مصر، غذّته المكائد والوشايات، من أنصار الأخير، الذي لا شكّ استغلّ علاقته الوطيدة بالخليفة، وكونه أخاه بالرضاعة. فقام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعيين ابن أبي السرح مكانه. والمرجّح أن عثمان أراد حاكماً لمصر يدين له شخصياً بالولاء والطاعة، فكان ابن أبي السرح هو الحل. فابن أبي السرح يدين بحياته كلها لعثمان الذي أنقذه من حكم الإعدام الذي كان النبي(ص) قد أصدره عليه، وإخلاصه لشخص عثمان لن تشوبه شائبة.

وجد عمرو بن العاص نفسه مهمّشاً تماماً بعد أن عزله عثمان. وتوجد روايات كثيرة تصف مدى مشاعر السخط[1] على عثمان، الذي اعترى عمرو بن العاص بعد أن فقد حكم مصر، ولا شك أن ذلك صحيح. فالأحداث أثبتت أن عمرو بن العاص كان مهووساً بولاية مصر، التي يبدو أنه كان يعتبرها ملكاً شخصيا له. ولم يهدأ ابن العاص ولم يقرّ له قرار حتى استرجع منصبه بعد بضعة سنوات، كوالي لمصر، نتيجة تحالفه الناجح مع معاوية بن أبي سفيان.

وكانت تكثفت الاتصالات بين الرجلين فور سماعهما أنباء تولي علي بن أبي طالب منصب الخلافة. فكتب عمرو بن العاص لمعاوية: *ما كنتَ صانعاً فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاءها*[2] وسرعان ما توصل الرجلان إلى تفاهم واتفاق على استراتيجية لمواجهة الخطر القادم: حُكم عليّ.

---

(1) بل وتذهب بعض الروايات إلى حد تصوير عمرو بن العاص كمحرّض على قتل عثمان!

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

وتجمع الروايات على أن الشرط الرئيسي الذي وضعه عمرو على معاوية من أجل تسخير طاقاته لحرب عليّ معه، كان استرجاع حكم مصر، بصلاحيات مطلقة. وطبعاً لم يكن لدى معاوية أيّ مانع في ذلك. فخلفية هذا الشرط مرهونة بكسب معاوية الحربَ ضد عليّ، ولو تحقق ذلك فلا ضَير في منح ولاية مصر لعمرو، بل وأكثر. وكان معاوية مصيباً في تقديره مدى أهمية شخصية مثل عمرو بن العاص له في صراعه المصيري ضد الخليفة عليّ. فقد كانت بصمات ابن العاص ظاهرة في كل مراحل ذلك الصراع المرير. ومن أبرز تلك المحطات الهامة التي برزت فيها فوائد عمرو كان قرار رفع المصاحف على الرماح في صفين، ودوره في مؤتمر التحكيم، وأخيرا قيادته للجيش الذي أرسله معاوية لفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر.

تكتل معاوية وعمرو ثنائياً لا ينفصم في كل مراحل المواجهة.

ومن شدة قربه من معاوية وملازمته له، أثار ابن العاص غيرة بني أمية على منزلته تلك. فمثلاً قال له سعيد بن العاص مرةً حين لاحه عمرو على تفاخره على معاوية: *هذا شعبتم الحيّ (نهتف) ما لبني سهمٍ ومعه شيء؟ ولكنك كالذباب على كل شيء تقع؟ أنا والله أحب إلى ابن حربٍ وأعز عليه منك*[1]

كانت كتلة الذكاء والدهاء التي نتجت من اجتماع هذين الطالبين المتفاهمين تصنع سياسةً جبارة تعرف هدفها وتسير إليه بتدرّج وثبات وتجتاح في طريقها كل سياسات علي بن أبي طالب الأخلاقية والمبدئية.

الشك في تفاصيل حوارات ومفاوضات معاوية وعمرو بن العاص

تروي لنا المصادر تفاصيل كثيرة جداً حول مفاوضات ومساومات معاوية وعمرو بن العاص، والشروط التي وضعها الاخير من أجل انضمامه لمعسكر معاوية. وهذه الحوارات والنقاشات كلها من وحي الخيال، لا شك عندي في ذلك.

وسوف آخذ رواية واحدة طويلة، كنموذج، وأعلق عليها فقرة فقرة.

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر.

روى اليعقوبي في تاريخه[1]:

«وبعث معاوية من ليلته إلى عمرو بن العاص أن يأتيه وكتب إليه: أما بعد: فإنه قد كان من أمر علي وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك. فقد سقط إلينا مروان في رافضة أهل البصرة، وقدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي. وحبستُ نفسي عليك حتى تأتيني. فاقدم على بركة الله»

وإلى هنا لا مانع في قبول الرواية. فمعاوية يريد تجميع الشخصيات القرشية البارزة من حوله. ولكن بعدها تبدأ في الحديث عن نفسية ابن العاص، وتردده بين الدنيا والآخرة، وتصميمه على قبض ثمن باهظ مقابل أن يبيع دينه ...الخ

«فلما انتهى الكتاب إليه دعا ابنيه عبد الله ومحمداً فاستشارهما. فقال له عبد الله: أيها الشيخ! إن رسول الله قبض وهو عنك راضٍ، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فإنك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية فتضجعان غداً في النار»

ورغم ما في ظاهر هذه الرواية من وصف لمعاوية بأنه رجل دنيا ربما يجر معه عمراً إلى النار، إلا أنها تحوي في ثناياها مدحاً ضمنياً لابن العاص، حين تقول إن النبي (ص) مات وهو راضٍ عنه، وكذلك خليفتاه!

«ثم قال لمحمد: ما ترى؟

قال: بادر هذا الأمر. فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً. فأنشأ يقول:

تطاول ليلي للهموم الطوارق   وخوف التي تجلو وجوه العوائق

فإن ابن هند سائلي أن أزوره   وتلك التي فيها بنات البوائق

أتاه جرير من عليّ بخطة   أمرّت عليه العيش مع كل ذائق

فإن نال مني ما يؤمل ردّه   فإن لم ينله ذلّ ذلّ المطابق

فوالله ما أدري وإني لهكذا   أكون ومهما قادني فهو سائقي

---

(1) ج2 ص ١٨٤-١٨٥

أأخدعه؟ فالخداع فيه دنية　　أم أعطيه من نفسي نصيحة وامق

أم أجلس في بيتي وفي ذاك راحة　　الشيخ يخاف الموت في كل شارق

وقد قال عبد الله قولاً تعلقت　　به النفس إن لم يعتقلني عوائقي

وخالفه فيه أخوه محمدٌ　　وإني لصلب العود عند الحقائق

فلما سمع عبد الله شعره قال: بال الشيخ على عقبيه! وباع دينه بدنياه

ومن المستبعد أن يكون عبد الله قد تلفظ بهذه الكلمات الجارحة بحق أبيه. فلو كان حقاً أنه يعتبر أباه «شيخاً يبول على عقبيه» وأنه «باع دينه بدنياه» فلمَ إذن اتبعه وكان معه في صفين وغيرها؟ ان تبرير تلك التبعية من عبد الله لأبيه بسبب «طاعة الوالدين» لا يصح وغير مقنع، لأن من البديهيات لكل المسلمين ان لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والروايات تقول ان عبد الله كان ورعاً تقياً، فكيف يطيع أباه الذي يعتبره «باع دينه»؟! فلا يبقى إلاّ أن عبد الله لم يكن رأيه بأبيه كما تصوره هذه الرواية، ولم يتلفظ بتلك العبارات أبداً.

فلما أصبح دعا وردانَ مولاه فقال له: ارحل يا وردان. ثم قال: حطّ يا وردان!

فحطّ ورحل ثلاث مرات! فقال وردان: لقد خلطتَ أبا عبد الله. فإن شئت أخبرتك بما في نفسك. قال: هات!

قال: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: عليٌّ معه آخرة بلا دنيا، ومعاوية معه دنيا بلا آخرة، وليس في الدنيا عوض من الآخرة، فلستَ تدري أيهما تختار!

قال: لله درك ما أخطأت مما في نفسي شيئاً، فما الرأي يا وردان؟!

ولو كانت الأمور في ذهن عمرو بن العاص بهذا الوضوح: عليٌّ مع الدين والآخرة، ومعاوية مع الدنيا بلا آخرة، لما جاز له أن يتردد بينهما أبداً. فهو رجل عجوز في الثمانينات من عمره فما الذي يريده من دنيا معاوية؟ بل

ما الذي بقي له من الدنيا بأسرها؟ أقول ذلك لأن الرواية تصوره مؤمناً حقيقياً بالدين والآخرة.

فإما أن ابن العاص، المؤمن الحقيقي، لم يكن يرى أن علياً مع الحق وأن معاوية على باطل، وإما أنه كان يعرف ذلك بالفعل ولكنه اختار الباطل لأنه لم يكن مؤمناً حقاً.

ولا يجوز الجمع بين الحالين كما يظهر في الرواية.

فقال: الرأي أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك.

قال عمرو: الآن، وقد شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية! ارحل يا وردان. ثم أنشأ يقول:

يا قاتل الله وردان وفطنته أبدى لعمرك ما في الصدر وردان

فقدم على معاوية، فذاكره أمره فقال له: أما علي، فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء. وإن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش، إلا أن تظلمه.

قال: صدقت، ولكنا نقاتله على ما في أيدينا، ونلزمه قتل عثمان.

قال عمرو: واسوأتاه! إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت!

قال: ولم ويحك؟

قال: أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتى استغاث بيزيد بن أسد البجلي فسار إليه، وأما أنا فتركته عياناً، وهربت إلى فلسطين.

وهنا نرى في الرواية المذكورة أن معاوية تقاعس عامداً عن نصرة عثمان.

فقال معاوية: دعني من هذا، مد يدك لتبايعني.

قال: لا لعمر الله! لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك!

وهنا أيضا الكلام عن إعطاء الدين وأخذ الدنيا، فأي دين هذا الذي يمكن أن يعطيه؟ وهل من كان عنده دين يجوز أن يتنازل عنه؟

فقال له معاوية: لك مستشر طمعة.

فغضب مروان بن الحكم وقال: ما لي لا أستشار؟!

وهنا يظهر التنازع على تقاسم الغنائم، ولكن هل الوقت كان مناسباً لذلك؟ إن مروان كان لتوّه قد وصل من البصرة بعد أن نجا برقبته من موت محقق مرتين: يوم الدار ويوم الجمل، فهل هو في وضع يتيح له النقاش حول تقاسم البلاد والعباد؟ أليس البقاء والحفاظ على الذات كان قمة المنى في تلك المرحلة؟

فقال معاوية: اسكت، فإنما يستشار بك.

فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، بت عندنا الليلة. وكره أن يفسد عليه الناس. فبات عمرو وهو يقول:

معاويَ لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصراً فأربح بصفقة ... أخذتَ بها شيخاً يضرُّ وينفعُ

وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنَّعُ

ولكنني أعطيك هذا وإنني ... لأخدع نفسي والمخادع يخدع

فأعطيك أمراً فيه للملك قوة ... وألقى له إن زلت النعل أخدعُ

وتمنعني مصراً وليست برغبة ... وإني ترى الفتوح يوماً لمولعُ

فكتب له بمصر شرطاً، وأشهد له شهوداً، وختم الشرط، وبايعه عمرو، وتعاهدا على الوفاء!

وأخيراً: لا بد من ملاحظة الركاكة في الشعر المنسوب إلى عمرو بن العاص.

ركائز جبهة معاوية

أظهر معاوية مقدرة فذّة على التعاطي والتعامل مع تيارات وشخصيات متنوعة، ذات مآرب مختلفة، ولها مرامي ومصالح متعددة، وتجميعها لتحقيق

ائتلاف رهيب يخوض به المواجهة مع علي بن أبي طالب، بكلِّ ما له من ثقل وشرعيةٍ في الإسلام.

ونجح معاوية تماماً في الاستفادة من ذلك الخليط من البشر الذي يمكن القول أنه لا تجمعه صلة ولا رابطة سوى كراهية علي بن أبي طالب والرغبة في إزالته من منصب الخلافة بأيِّ ثمن. لقد نصّب معاوية نفسه علماً مرفوعاً وعنواناً معروفاً يؤوب إليه كل من يريد معاداة عليٍّ بن أبي طالب. فما على من يكره علياً، أو يخشى منه شيئاً، أو يريد الفرار منه، سوى الذهاب إلى الشام، ليضمّ جهوده إلى معاوية وحزبه.

ولم تكن تلك الشخصيات التي تجمع معاوية أخيراً في حشدها خلفه، ترتبط معه بالضرورة برابطة الولاء والتبعية، خاصة عند بدء الصراع والمواجهة مع علي بن أبي طالب.

والرسائل التي بعث بها معاوية إلى أهل المدينة ومكة قبيل معركة صفين هي مثالٌ بارزٌ على دهاء معاوية وحرصه على إزالة حساسية كل من هو كارهٌ لعليٍّ ولكنه مترددٌ باللحاق بمعاوية بسبب ما هو ظاهرٌ من ضعف أهليته الإسلامية:

«أما بعد، فإنه مهما غابت عنا من الأمور فلن يغيب عنا أنّ علياً قتل عثمان، والدليل على ذلك مكانُ قتلته منه. وإنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله. فإن دفعهم عليٌّ إلينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. وأما الخلافة فلسنا نطلبها.

فأعينونا على أمرنا هذا وانهضوا من ناحيتكم، فإن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمرٍ واحدٍ هابَ عليٌّ ما هو فيه»[1]

والإبداع الذي أظهره معاوية كان في حرصه على مخاطبة كل فئةٍ كان يشعر أنها يمكن أن تفيده باللغة التي تناسبها، وبالمنطق الذي يطابق مصالحها وأهواءها. فخطابه لكبار صحابة النبي(ص)، من أمثال سعد بن أبي وقاص،

---

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص49).

كان يختلف تماماً عن خطابه لزعماء القبائل العربية. وكلامه مع أم المؤمنين عائشة كان بعيداً تماماً عن كلامه لقومه من بني أمية. وأسلوبه مع زعماء البطون القرشية كان مغايراً لتعامله مع أهل الأمصار أو رؤساء الأجناد.

وأقام معاوية خلافته القوي اعتماداً على محورين يكملان بعضهما البعض:

الجهاز السياسي / الإداري / العسكري لمعاوية: وكان يتكون من:

بني أمية / عبد شمس: من أمثال أخيه عتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن عامر بن كريز، ومروان بن الحكم، وأبناء عثمان بن عفان. وأضاف إلى هؤلاء، بعد اغتيال علي بن أبي طالب وانفراده بالسلطة، شخصية قيادية مهمة، وهو زياد بن أبيه، الذي عقد معه صفقة تضمنت أن يدّعيه ويغيّر نسبه إلى زياد بن أبي سفيان.

زعماء البطون القرشية الأخرى: من أمثال عمرو بن العاص (سهم)، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد (مخزوم)، وبسر بن أرطأة (عامر بن لؤي)، وحبيب بن مسلمة (فهر)، والضحاك بن قيس (فهر).

زعماء القبائل العربية، من أمثال شرحبيل بن السمط الكندي، وأبي الأعور السلمي[1]، ومسلم بن عقبة المري (غطفان)، وحمزة بن مالك الهمداني.

وهذا الجهاز الإداري / العسكري كان أساس قوة معاوية ودعامة حكمه الرئيسية. وهو كان جهازاً فعالاً يمتلك خبرة كبيرة جداً تراكمت خلال عهد الخلفاء الثلاثة. كان معظم إن لم يكن كل رجالات معاوية قد تقلّدوا مناصب قيادية ولعبوا دوراً مهماً في نجاح حركة الفتوحات الكبرى، خاصة في الشام.

---

(1) أبو الأعور السلمي من أهم قادة جيش معاوية كانت قد نزلت الآية «يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين» فيه وفي أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل حين قدموا المدينة بعد أحد. جاء ذلك في أسباب النزول للواحدي (ص243). وربما الأصح أنها نزلت في والده سفيان بن عبد شمس السلمي الذي كان من قيادات الأحزاب التي هاجمت المدينة في غزوة الخندق.

تهم كانوا معتادين على المعارك والمواجهات والتخطيط الحربي المحكم، وظهرت خبرتهم وقوتهم في حرب معاوية ضد الإمام عليّ.

الجهاز الدعائي / الإعلامي لمعاوية: كان يتكون من:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر

كان معاوية يقدّر عالياً الدور الذي لعبته عائشة في الصراع ضد عليّ، وخاصة في مراحله الأولى. فموقف عائشة كان هدية إلهية له. فهي التي أشعلت فتيل أول حرب أهلية بإعلانها الحرب على الخليفة عليّ، قبل معاوية! فإذا كانت زوجة الرسول(ص)، وابنة الخليفة الأول، تشهر السيف في وجه عليّ، فبمَ يختلف معاوية عنها؟ هو ببساطة يتابع دربها ويقتدي بنهجها! بل إن معاوية قد أضاف سبباً آخر لاستعماله في الأغراض الدعائية: الانتقام لكرامة أم المؤمنين التي أهدرها عليّ يوم الجمل!

وبفضل عائشة، يستطيع معاوية أن يُعلن للمسلمين بأنه لم يكن هو أول من شقّ العصا في قتالٍ داخلي في الإسلام. كانت عائشة هي التي كسرت ذلك الحاجز النفسي وعبّدت الدرب الذي سار عليه معاوية إلى نهايته.

وإذا كان صحيحاً أن عائشة عندما أعلنت تمردها على عليّ وأشعلت حرب الجمل لم تكن آنذاك تسعى لخدمة شخص معاوية أو تهدف إلى جعله خليفة، إلا أن سيرة أم المؤمنين أثناء خلافة معاوية تظهر أنها قد توصلت إلى تفاهم معه بحيث تمتع بوضع مميز، ومقام رفيع، وتحاط بالتوقير البالغ والاحترام في دولة معاوية، في مقابل قبولها ودعمها المعنوي له، وسكوتها عن انحرافاته الكثيرة عن مبادئ الإسلام النبوي. فلم يُروَ أبداً أن عائشة غضبت أو اعترضت على تولي معاوية، وهو من الطلقاء، المنصب الأعلى في دولة الإسلام، غصباً وقهراً. لم تدعُ عائشة المسلمين إلى معارضة معاوية، ولم تطالب بخلعه، ولم تحشد الجيوش ضده.

بعض «الصحابة» من أمثال المغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب[1]

كان معاوية محتاجاً جداً لأي شخص يمكن أن يطلق عليه اسم «صحابي» لكي يستغله في دعايته، فيظهر أن في معسكره من صاحبوا رسول الله.

وقد وجد ضالته في المغيرة بن شعبة[2]، الداهية الانتهازي. فلأنّ المغيرة قد أسلمَ قبيل صلح الحديبية، كان بإمكان معاوية أن يقول لجماعات من أهل الشام: هذا صحابيٌّ جليلُ القدر ممن عرفوا الرسول(ص)، وهو معنا وعلى نهجنا!

لم يشارك المغيرة مع معاوية في حرب صفين وبقي في الحجاز. ويبدو أن سبب ذلك كان غموض الموقف بنظر المغيرة وعدم يقينه بقدرة معاوية على الصمود في المواجهة مع عليّ أو الانتصار فيها.

ولكنه لما رأى الأمر قد استتب لمعاوية في آخر المطاف، شمّرَ عن ذراعيه وانخرط بكلّيته في جبهة معاوية. وبلغ به الولاء لسيده إلى درجة أنه كان يثابر في كل جمعةٍ على شتم علي بن أبي طالب من على المنبر، حينما عيّنه معاوية والياً على الكوفة.

وقد أدى المغيرة دوره بكفاءة[3].

---

(1) ويمكن أن يضاف أبو هريرة إلى هذين الصحابيين. وقد خصصنا فصلاً عن دور أبي هريرة وأحاديثه في خدمة دولة معاوية عند تطرقنا إلى غزوة بسر لمرحلة المدينة المنورة بأمر معاوية سنة 40 للهجرة. فليراجع في موضعه لاحقاً.

(2) والكلام عن سلوكه الشخصي وانحرافاته يطول. ويكفي ذكر حادثة الزنا التي اتهم بها في زمان عمر بن الخطاب، حين شهد عليه ثلاثة: أبو بكرة ونافع بن الحارث وشبل بن معبد أنهم رأوه يولجه ويخرجه في امرأة في البصرة. ولكن الرابع، زياد بن أبيه، أفلت من الاحتلام حين أبى أن يشهد بذلك أمام عمر. روى ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (ج3 ص27).

(3) ويمكن بسهولة اشتمام رائحة السياسة ومآربها في كثير من الأحاديث التي رواها المغيرة بن شعبة. ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده (ج4 ص247) عن المغيرة: «... وقد رأيت رسول الله(ص) صلى خلف عبد الرحمن بن عوف ركعة من صلاة الصبح...» فهدف هذا الحديث واضح لكي يسهّل الأمر على المسلمين من أهل الشام ويقنعهم بشرعية الصلاة خلف رجل فاقد الشرعية كمعاوية. قائلاً لهم إن رسول الله(ص) صلى خلف غيره من المسلمين! فإذا كان رسول الله(ص)، القائد والمعلم والمثل الأعلى، يصلي خلف رجل من المسلمين، فلا بأس إذن من الصلاة خلف معاوية.

وكذلك كان سمرة بن جندب موظفاً رخيصاً لدى معاوية، استعمله ليساعده في تثبيت حكمه في العراق أيام زياد بن أبيه. ويروي ما يروق له من الأحاديث.

عبيد الله بن عمر بن الخطاب[1]

لقد أحسن معاوية بن أبي سفيان، بدهائه المشهور، الاستفادة من عبيد الله بن عمر بن الخطاب حين لجأ إليه. كيف لا وهو يمثل كنزاً ثميناً فهو يحمل اسم عمر بن الخطاب. وما أشدّ حاجة معاوية في موقفه المحارب للخليفة الشرعي إلى اسم من طراز عمر بن الخطاب.

يروي نصر بن مزاحم:

«لما قدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص.

فقال: يا عمرو! إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر.

وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على علي بقتل عثمان، وينال منه.

فقال: الرأي ما رأيت. فبعث إليه فأتى.

فقال له معاوية: يا ابن أخي! إن لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك وتكلم بكل فيك فأنت المأمون المصدق. فاصعد المنبر واشتم علياً واشهد عليه أنه قتل عثمان.

فقال: أيها الأمير! أما شتيمته، فإنه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسبه؟

وأما بأسه، فهو الشجاع المطرق، وأما أيامه فما قد عرفت. ولكني ملزمه دم عثمان.

وكذلك روى المغيرة حديث «الضحضاح» المشهور والذي يؤكد فيه أن مصير أبي طالب والد علي هو نار جهنم.

(1) وعبيد الله هذا عنده عقدة نفسية تجاه علي بن أبي طالب تعود الى يوم اغتيال أبيه عمر عندما قام بقتل الهرمزان وابنته الصغيرة انتقاماً منه لأبيه وبدون أدلة بل بالشبهة فقط، فكان رأي علي أن يُطالب بالاقتصاص ولكن الخليفة عثمان عفى عنه.

فقال عمرو بن العاص: إذا والله قد نكأت القرحة»[1]

النعمان بن بشير الأنصاري[2]

كان معاوية بحاجة ماسة إلى أشخاص من أوساط الأنصار في صفوفه، وكان النعمان جاهزاً ليلعب ذلك الدور الذي قدّره معاوية عالياً، فعينه في مناصب قيادية.

فالنعمان بن بشير ورث عن أبيه الولاء لقريش. فأبوه كان أول من شق الصف الأنصاري يوم السقيفة فبايع المهاجرين. ويبدو أنه قدّر أنه من الأفضل أن لا يعاكس التيار الغالب، وأن التبعية لقريش ستعود عليه بالفوائد، وذلك أنفع من تحدّيها بلا طائل.

فالنعمان بكل بساطة قلب ولاء أبيه لقريش عامة إلى ولاء شديد لبني أمية خاصة، إلى درجة دفعت معاوية لتعيينه في منصب والي الكوفة في فترة معينة[3]، وهو منصب حساس جداً في دولة بني أمية، لأنه يتطلب والياً بمواصفات خاصة جداً للسيطرة على الكثيرين في عاصمة حكمه.

واستمر النعمان في إظهار طاعته العمياء، وإخلاصه الشديد لبني أمية، حتى في عهد ما بعد معاوية. فمثلاً روى خليفة بن خياط أن يزيد بن معاوية، سنة ٦٣ للهجرة، قد بعث النعمان بن بشير مرسالاً له إلى ابن الزبير في مكة يدعوه إلى بيعة يزيد! وأن ابن الزبير قد أجابه بأنه لن يبايع رجلاً «يشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويتبع الصيد»[4]

واستفاد معاوية أيضاً من تيار الاعتزال الفني من أبرز رموزه:

سعد بن أبي وقاص

كان معاوية يحاول أن يُظهر لعامة أهل الشام أن حربه مشروعة ولذلك

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص٤٤٤).
(٢) ورد في تاريخ ابن معين برواية الدوري (ج١ ص٤٠٥): قال يحيى بن معين: أهل المدينة يقولون: لم يسمع النعمان بن بشير من النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما يروي أحاديث النعمان عن النبي صلى الله عليه وسلم الكوفيون والشاميون.
(٣) التاريخ الصغير للبخاري (ج١ ص١٣٤ وص١٤٠).
(٤) تاريخ خليفة بن خياط (ص١٥٣).

كان يبذل أقصى الجهد لحشد أية أسماء لها ماضٍ معين في الإسلام في صفه، لعلها تعطيه بعض الشرعية في موازنة ما يمثله عليّ من ثقل عظيم في الإسلام. وحتى لو لم تكن بعض الشخصيات في صفه ولم يصدر منها أي تأييد مباشر له، فقد كان يحاول أن يظهرها وكأنها ضمناً تقف معه في حربه لعليّ.

وكان معاوية حريصاً على محاولة استمالة كل من يمكن أن يكون ذا قائمة على الصعيد الدعائي في حربه ضد عليّ. ولذلك كتب إلى سعد بن أبي وقاص:

«إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره.

وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر، ونظيراك في الإسلام، وخفّت لذلك أم المؤمنين.

ولا تكرهنّ ما رضوا، ولا تردّنّ ما قبلوا»[1]

وهنا يظهر معاوية منسجماً مع نفسه في منهاجه. فكما استفاد من عبد الله بن عمر، الذي يحمل اسم أبيه، في حملته الدعائية، يحاول الآن الاستفادة من سعد الذي يعتبر من الصحابة الكبار، وأحد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة. وفي مواجهة الفرق الشاسع الذي يفصله عن عليّ في مجال الأهلية الدينية والشرعية الإسلامية، كان معاوية يحاول تجميع أكبر قدر ممكن من الخصوم لعليّ، ويا حبذا لو كان هؤلاء الخصوم ذوي ماضٍ في الإسلام يعوّض قليلاً من مكانة معاوية الناقصة في دين محمد(ص). كان يكفي معاوية أن يكون هؤلاء خصوماً لعليّ، وليس شرطاً أن يكونوا من تابعيه وأشياعه. لأنه في النهاية فإن كل من وقف على الحياد كان يصب في مصلحة معاوية. فالحياد يعني بالضرورة نوعاً من المساواة الأخلاقية بين الطرفين المتنازعين. ولذلك لم يتأثر معاوية كثيراً عندما رفض سعد طلبه وأصر على منهجه القاضي «لاعتزال الفتنة».

---

(1) تاريخ اليعقوبي (ج2 ص [illegible]).

فمعاوية يكتفي من سعد بما كان يرويه ويذيعه بين المسلمين:

«أشهد أن رسول الله (ص) قال: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي.

قال: أفرأيتَ إن دخل عليّ بيتي وبسط يده إليّ ليقتلني، قال: كُنْ كابن آدم»[1]

وسوف يعبّر سعد بن أبي وقاص، بعد فوات الأوان، عن استيائه من مآل الأمر إلى معاوية وتحوّله إلى ملك وراثي للأمويين دون غيرهم من بطون قريش:

«ودخل إليه سعد بن مالك فقال: السلام عليك أيها الملك!

فغضب معاوية فقال: ألا قلتَ السلام عليك يا أمير المؤمنين؟

قال: ذاك إن كنّا أمّرناك، إنما أنت مُنتزٍ»[2]

أبو موسى الأشعري:

كان الدور التخذيلي[3] الذي لعبه أبو موسى تجاه عليّ وحكمه ودعوته في الكوفة ذا فائدة عملية كبيرة لمعاوية وحزبه. ورغم أن أبا موسى لم يكن يدين بالولاء الشخصي لمعاوية، بل ربما كان يزدريه ويعتبره ناقص الأهلية والشرعية الإسلامية، إلا أن إصراره الشديد على نشر فكر اعتزال الفتنة بين المسلمين، وبالتحديد من أهل العراق، كان أيضاً مفيداً جداً لمعاوية، لأن دعوة أبي موسى هذه تعني إعلان المساواة الأخلاقية بين الطرفين المتصارعين، وذلك ما كان يطمح له معاوية ويسعى إليه.

وأخيراً جاء الدور المشبوه الذي اضطلع به أبو موسى في مؤتمر التحكيم، وفشله بالدفاع عن صحة موقف الخليفة عليّ، بل وخيانته له وقيامه بخلعه علناً، ليكمل مسلسل المواقف السلبية، بل العدائية، لأبي موسى تجاه

---

(1) سنن الترمذي (ج3 ص329).
(2) تاريخ اليعقوبي (ج2 ص217).
(3) تفاصيل دور التخذيلي أوردناها في سياق كلامنا عن حرب الجمل، وتفاصيل دوره في قصة التحكيم سيأتي لاحقاً عندما نصل إلى مرحلة ما بعد صفين.

عليّ. وتجدر الإشارة إلى أن معاوية استند إلى مهزلة مؤتمر التحكيم وموقف أبي موسى فيه في إعلان طموحه العلنيّ لمنصب الخلافة. فأهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة فقط بعد مؤتمر التحكيم، وقبل ذلك كانوا يدعونه بـ«الأمير» وأصبح «أمير المؤمنين» بعد أن أعلن معاوية لهم إن مندوب العراق، أبا موسى، قد خلع علياً بينما ثبته مندوبه، وبالتالي فالتحكيم قد انتهى لصالحه!

وبقي معاوية يذكر أبا موسى بالخير، تقديراً للدور الذي لعبه خلال مجرى صراعه مع عليّ، حتى أنه لم يخش أن يوصي ابنه يزيد بأن يحسن لابن أبي موسى، ويدعي أبا بردة، فقال له:

«إن وليت من أمر المسلمين شيئاً فاستوص بهذا، فإن أباه كان أخاً لي أو خليلاً أو نحو هذا من القول، غير أني رأيت في القتال ما لم يره»

وقد ذكر أبو موسى نفسه مرة أن معاوية كان شديد الإكرام له، فقال عنه:

«... فلما وليته فلم يغلق دوني باب، ولم تكن لي حاجة إلا قضيت»[1]

عبد الله بن عمر بن الخطاب:

فابن عمر، الذي قرر «اعتزال الفتنة» وبالتالي نأى بنفسه عن الطرفين، وكان قد أصر على رفض مبايعة علي بن أبي طالب، مساوياً بينه وبين معاوية من ناحية أخلاقية، لم يتردد وهو في أواخر عمره، شيخاً طاعناً في السن، في مبايعة رجل من أمثال عبد الملك بن مروان!

فقد روى البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان: «إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت، وإن بني قد أقروا بذلك»[2]

وكان قبل ذلك قد بايع يزيد بن معاوية! وتشدد في الوفاء ببيعته، كونه إماماً شرعياً! فابن عمر لا يرى في مخالفة طاغية كيزيد إلا غدراً!

فلما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده

---

(1) هذا الاقتباس وما قبله من الطبقات الكبرى لابن سعد (ج4 ص[illegible]).
(2) صحيح البخاري (ج[illegible] ص[illegible]).

فقال: إني سمعت النبي (ص) يقول: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله. وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال. وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه»[1]

ومن البديهي أن يكون شخصٌ بهذه المواصفات مناسباً جداً لاستغلالات معاوية. فلم تكن المشاعر العاطفية في نفس ابن عمر، ومدى اقتناعه بأهلية معاوية لمنصب الخلافة، تهم معاوية على الإطلاق. فقط ما كان يهمه هو أن يرى الناس شخصاً يحمل اسم عمر بن الخطاب يبايعه، وباخلاص، بينما رفض بيعة علي بن أبي طالب!

ولا بد من الإشارة إلى أن نزعة ابن عمر لمهادنة الحكام وطاعتهم، وترويجه لهذه الفلسفة تحت مسمى اجتناب الفتن بين المسلمين، لم يطبقها في حالة علي بن أبي طالب بالذات. فهو أظهر شجاعة وثقة بالنفس - ولعلها ليست ثقة بالنفس بقدر ما هي معرفة بخصال الإمام علي الإسلامية وسماحته، بخلاف الآخرين من جبابرة بني أمية - دفعته إلى إبلاغ علي أنه لن يبايعه. ولكن ابن عمر لم يفعل ذات الشيء مع معاوية ولا مع يزيد ولا مع عبد الملك، فبايعهم.

ولقد امتنع وأبى، فلم يرغمه عليٌ على البيعة.

فلم يكتف بذلك بل أخذ يشيع بين الناس ما يفيد أن علياً إنما هو رجلٌ من عامة الناس، فلا يمتاز بشيء، ولا يسمو إلى مستوى الخلفاء الثلاثة! فهو قد روى:

«كان رسول الله (ص) ولا يعدل به أحد.

ثم نقول: خير الناس أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

ثم لا تفاضل

---

(1) صحيح البخاري كتاب الفتن (ج9 ص72). وهكذا يرى الناس أن الصحابي عبد الله بن عمر قد بايع كلاً من: معاوية ويزيد وعبد الملك، بينما رفض مبايعة علي!

قال: فبلغ ذلك النبي (ص)، فلا ينكره.»[1]

وهذا الكلام، والممارسة، يدل على منهج دعائي، مقصود وثابت، من ابن عمر تجاه عليّ بن أبي طالب بالذات.

*****

وهكذا اكتملت عناصر ماكينة معاوية الرهيبة: جهازٌ إداريّ وعسكريّ خبيرٌ وفعّال، وجهازٌ دعائيّ وإعلاميّ قويّ.

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص166).

الفصل الثاني: الطريق الى صفين

بدء عهد علي: عزل معاوية عن ولاية الشام[1]

كان أول قرار للخليفة علي هو عزل معاوية من منصبه. ولم يستمع لمن اقترحوا عليه التريث في ذلك. روى البلاذري:

«قال عليّ لعبد الله بن عباس: سِر إلى الشام فقد وليتكها.

فقال ابن عباس: ما هذا برأي! معاوية ابن عم عثمان وعامله، والناس بالشام معه وفي طاعته، ولستُ آمن أن يقتلني بعثمان على الظنة. فإن لم يقتلني تحكّم عليّ وحبسني. ولكن اكتب إليه فمنّه وعِده، فإن استقام لك الأمر بعثتني إن أردت.»[2]

ولكن علياً رفض أن يقرّ معاوية ومنعه، وقال: «لا والله! لا كان هذا أبداً»[3]

وفي رواية ابن عساكر عن الكلبي أن علياً قال: «لقد كان المغيرة بن شعبة أشار عليّ وأنا بالمدينة أن أستعمل معاوية على الشام فأبيت ذلك ولم يكن الله ليراني أن أتخذ المضلين عضداً»

---

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص20)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص140)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص124)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج3 ص270)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص197 – 201)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص131).
(2) أنساب الأشراف، من طريق أبي مخنف.
(3) سير أعلام النبلاء للذهبي

وسوف يبقى موقف عليّ المبدأيّ هذا، منهاجاً ثابتاً لا يتغير مهما كانت الظروف، وبغض النظر عن جميع العواقب، أو حسابات الربح والخسارة. وبعد معركة صفّين، وحين كان عليّ يبذل جهداً عظيماً من أجل إعادة تجميع أهل العراق وتحشيدهم للسير إلى الشام مرة أخرى، وكان بحاجة إلى تأييد كل مَن له تأثير على عموم الناس، سيرفض أيضاً التنازل عن مبادئه قيد أنملة:

ثم قام رجالٌ من أصحاب عليّ فقالوا: يا أمير المؤمنين! أعطِ هؤلاء هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش من الموالي، ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه. وإنما قالوا له: هذا الذي كان معاوية يصنعه بمن أتاه. وإنما عامة الناس همهم الدنيا ولها يسعون وفيها يكدحون. فأعطِ هؤلاء الأشراف، فإذا استقام لك ما تريدُ عدتَ إلى أحسن ما كنتَ عليه من القسم.

فقال عليّ: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وُليتُ عليه من الإسلام؟!

فوالله لا أفعلُ ذلك ما لاحَ في السماء نجم!

والله لو كان لهم مالٌ لسوّيتُ بينهم فكيف وإنما هي أموالكم»[1]

إن هذا الرجل البسيط من أنصار عليّ أراد أن يساعد إمامه عن طريق اقتراح فكرة «ذكية» بنظره: أن يُداهنَ عليّ ويجامل في سياسته، إلى أن يستتب له الأمر، ثم يعود إلى العدل بعدها! ولكن غاب عنه أن علياً يعتبر الحق كلاً لا يتجزأ وأنه لا يمكن له أن يظلمَ قليلاً ويعدلَ أكثر، لأن ذلك نقيض مهمته ورسالته.

كان الامام عليّ يعرف أن طريق الحق بالغة التكاليف وأن التمسك بالمبادئ قد يؤدي الى خسائر دنيوية فادحة ولكن رغم ذلك فهو إمامُ حقٍّ ولا يساوم. *قال «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهى الناس: ولكن لكل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة.*

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

ولكلّ غادر لواءٌ يُعرف به يوم القيامة. والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة»[1]

قال ابن أبي الحديد: فأمّا الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْرَ الملك، فإنه لم يكن يفضّل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ولا يستميل أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية.

... إن امرأتين أتتا علياً عليه السلام إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فسألتاه، فدفع إليهما دراهم وطعاماً بالسواء.

فقالت إحداهما: إني امرأة من العرب، وهذه من العجم!

فقال: إني والله لا أجد لبني هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق»[2]

وهكذا قرر عليٌّ تجاهل المواجهة: لن يكون هناك حلّ وسط مع رجال عهد عثمان، وأبرزهم معاوية. وما على هؤلاء سوى الرحيل! وسوف يسير عليٌّ إلى هدفه بطريقٍ مستقيم مهما تكن العواقب.

قميصُ عثمان[3]

روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة:

«وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان، وأخذه المصحف ليتحرّم به، وما صنع محمد بن أبي بكر. وأرسلت بقميص عثمان مضرّجاً بالدم ممزّقاً، وبالخصلة التي نتفها الرجل المصري من لحيته، لعقدت الشعر في زر القميص. ثم دعت النعمان بن بشير الأنصاري فبعثته إلى معاوية»

---

(1) نهج البلاغة، شرح محمد عبده.
(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد نقلاً عن المدائني والهمداني.
(3) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص64 وص155)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص417 وص422)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص139 وج3 ص536)، الأخبار الطوال للدينوري (ص142)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص70)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص244)، تاريخ الطبري (ج4 ص561).

وروى ابن كثير في البداية والنهاية «خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها فقطعت مع بعض الكف. فورد به على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه. فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع أخرى»

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق روايتين[1] حول قميص عثمان: الأولى عن أبي سبرة تقول أن زوجته نائلة بنت الفرافصة هي التي أرسلت لمعاوية بالشام قميص عثمان الملطخ بالدم مع رسالة تصف له فيها ما جرى له وأن معاوية قد طاف بالقميص على أجناد الشام وحرضهم على الطلب بدمه فبايعوه على ذلك. والثانية تقول ان أم حبيبة بنت أبي سفيان قد أخذت قميص عثمان من أهله وأرسلته مع خصلة الشعر التي نتفت من لحيته إلى معاوية مع النعمان بن بشير، فنشر معاوية القميص على المنبر وبايعه الشاميون على الطلب بدمه.

وروى البلاذري في انساب الأشراف أن أم حبيبة أرسلت بالقميص الملطخ بالدماء الى معاوية فأخذه أبو مسلم الخولاني من معاوية فكان يطوف به في الشام في الأجناد ويحرض الناس على قتلة عثمان»

وفي رواية الإمامة والسياسة:

«صعد المنبر معاوية بالشام، وجمع الناس ونشر عليهم القميص. وذكر ما صنع بعثمان، فبكى الناس وشهقوا، حتى كادت نفوسهم أن تزهق.

ثم دعاهم إلى الطلب بدمه. فقام إليه أهل الشام فقالوا: هو ابن عمك وأنت وليه، ونحن الطالبون معك بدمه»[2]

---

(1) وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء نفس الروايتين اللتين رواهما ابن عساكر (الأولى عن الواقدي، والثانية عن الشعبي).
(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

وروى الطبري عرض معاوية القميص على المنبر وكتب بالخبر إلى الأجناد وثاب إليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه؛

وقد وصف أحدهم مدى الشحن النفسي الذي مارسه معاوية في الشام على النحو التالي «إني قد خلفتُ بالشام خمسين ألف شيخ، خاضبي لحاهم بدموع أعينهم، تحت قميص عثمان، رافعيه على أطراف الرماح، قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته، أو تلحق أرواحهم بالله»[1]

وربما تكون هناك مبالغة في هذا الوصف، ولكن لا شك أن رجلاً كمعاوية ما كان له أن لا يستغلّ، إلى أقصى حد، قميص عثمان الملطّخ بالدماء. وعامة الناس في الشام لا بد لهم أن يتأثروا بذلك المنظر وربما يسمعوه من كلام عن قتل الخليفة، الشيخ الكبير، الصائم، المظلوم بغياً على أيدي عصابة من الغوغاء.

ووصف الذهبي في سير أعلام النبلاء، مشهداً مثيراً على لسان مندوب عليّ جرير بن عبد الله عندما وصل إلى الشام حاملاً رسالة علي. قال، فلقد مر (معاوية) يخطب والناس يبكون حول قميص عثمان وهو معلق على رمح؛

ولكن من المرجح أن تكون ذروة الشحن النفسي الذي مارسه معاوية لرجاله بشأن مقتل عثمان قد تأخرت إلى بضعة أشهر من المقتل، حين اتضحت الصورة أكثر لمعاوية، خاصة مع التطورات في البصرة وبدء استعداداته لمعركة صفين.

معاوية يهيئ المجتمع الشامي[2]

كان عامة أهل الشام جزءاً مهماً من المجتمع العربي الواسع المنتشر حديثاً في الأمصار التي تم فتحها. وكان المجتمع الشامي - على خلاف ما تحاول بعض المصادر التاريخية أن تصوره بمظهر القوم الجفاة الذين لا حتى

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص134–135 وص136)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري (ص 40 وص49–50)، الأخبار الطوال للدينوري (ص160)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص503 و504).

دينيا لهم ولا يعرفون سوى طاعة معاوية الصيداء يمتلك الخصائص العامة للمجتمع المسلم. لا شك أنه كان بينهم من يمكن أن يُسموا «القراء»[1] الذين تميّزوا بتدينهم وبتعلقهم برموز الإسلام وحرفية نصوص القرآن. وهؤلاء يناظرون «قراء» الكوفة المشهورين، مع الاختلاف في العدد وفي القدرة على التأثير. وهؤلاء «القراء» كانوا مصدراً مهماً «للشرعية» وخاصة على الصعيد الشعبي بين العامة. وكان معاوية حريصاً على تقديم تبرير «شرعي» لتمرده على عليّ، مهما بدا ذلك التبرير سطحياً أو كاذباً، ولم يكتف فقط بممارسة سياسة القوة.

وبادر معاوية إلى التهيئة الشعبية الواسعة لحربه المقبلة ضد الخليفة الشرعي. فتشاور معاوية مع عمرو بن العاص حينما قدم جرير بن عبد الله من عند عليّ طالباً منه البيعة، فأشار عليه عمرو بأن يبذل جهده لشراء ذمة شرحبيل بن السمط الكندي وأن يتجنب في هذه المرحلة المبكرة الدعوة العلانية لأهل الشام إلى رد بيعة عليّ لأن الوقت لذلك لم يحن بعد:

«ورأس الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجرير المرسل إليك. فأرسل إليه ووطّن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب. وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً»

وكانت نصيحة عمرو في غاية الذكاء. فشرحبيل شيخ القبائل اليمانية في الشام، وهو يعرف أن له تأثيراً كبيراً على عامة الناس ولا بد من كسبه بأي وسيلة.

وبالفعل بدأ معاوية في تنفيذ خطة شراء شرحبيل والهيمنة عليه. فأرسل إليه يستدعيه من حمص «الأمر جلل». وفي نفس الوقت طلب معاوية من مجموعة من أتباعه المقربين، الذين هم من رؤساء القبائل اليمانية وأبناء عمومة شرحبيل، أن يلقوه في الطريق ويخبروه أن علياً قتل عثمان.

---

(1) يروي ابن عساكر أن رجل معاوية، شرحبيل بن السمط الكندي، ألقاه دوره على مدن الشام محرضا الناس للنهوض مع معاوية فأجابه أهل حمص إلا نفر من نساكهم وقرائهم فإنه أبوا ولزموا بيوتهم

فلما وصله كتاب معاوية، استشار شرحبيل أهل حمص في الأمر. وحصل بينهم نقاش وأخذ ورد. فنصحه بعضهم، وخاصة عبد الرحمن بن غنم الأزدي «وكان أفقه أهل الشام»، بأن ينأى بنفسه وبقومه عن حرب عليّ لأنه الخليفة الشرعي «وقد بايعه المهاجرون والأنصار» وطلب منه ألاّ يسير إلى معاوية وأن يجنب قومه الهلاك، بل وطرح عليه فكرة أن يذهب إلى عليّ فيبايعه باسم أهل الشام[*]!

وهذا الموقف يشير إلى أنه كانت في مجتمع أهل الشام شرائح وفئات يمكن لعليّ بن أبي طالب أن يركز عليها ويستهدفها، فيستميلها عن طريق مخاطبتها مباشرة، وتجاوز معاوية. ولكن علياً لم يفعل، ولم يرغب في أساليب ملتوية لاستقطاب أناسٍ بعينهم.

ولكن شرحبيل لم يكن ليتخذ هكذا قرار دون أن يقابل معاوية ويسمع ما عنده. فقرر التوجه إلى دمشق، حيث وجد معاوية بانتظاره وقد جهّز له كل مظاهر التوقير والتعظيم وأظهر له وداعة ورقة ليس لها نظير، حتى صوّر له نفسه وكأنه السيد ومعاوية التابع:

قال نصر بن مزاحم فلما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه،

ودخل على معاوية، فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا شرحبيل! إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة عليّ، وعليّ خيرُ الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان، وقد حبستُ نفسي عليك. وإنما أنا رجلٌ من أهل الشام أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا!

ولا بدّ من ملاحظة مدى الدهاء في خطاب معاوية. فهو في هذه المرحلة لا يطرح نفسه نداً لعليّ، وإنما هو «رجلٌ من أهل الشام»!

وكان معاوية عليماً يعرف أن أي زعيم عشائري يوضع في هكذا موقف، لا بد له أن يرجع إلى قومه ليشاورهم. وكان معاوية قد أعد العدة لذلك من

(*) وقد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق هذا الخبر عن الكلبي، ولكن دون الجزء الأخير الذي فيه اقتراح عبد الرحمن بن غنم بمبايعة علي.

طريق عملائه من أقرباء شرحبيل الذين سيرجع إليهم للتشاور. وفعلاً قام شرحبيل يشاور عشيرته في الأمر(1). والتقى عملاء معاوية من أقربائه حوروهم على أكمل وجه! فهوّلوا الأمر – مقتل عثمان – على شرحبيل وأظهروا له ضرورة حرب عليٍّ وقتلة عثمان، إلى درجة جعلت شرحبيل يعود إلى معاوية مطالباً إياه بحرب أهل العراق! وهكذا نجحت خطة معاوية وعمرو. وانعكست الآية فيها وكأنّ معاوية فقط يستجيب لضغط شرحبيل وأهل الشام! نطالع نص نصر:

«فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطئون له، فكلهم يخبره أن علياً قتل عثمان بن عفان. فخرج مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية: أبى الناس إلاّ أن علياً قتل عثمان، ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك! قال معاوية: ما كنتُ لأخالف عليكم، وما أنا إلاّ رجلٌ من أهل الشام. قال: فردّ هذا الرجلَ إلى صاحبه إذاً. قال: فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وأن الشام كله مع شرحبيل»

ويروي نصر بن مزاحم أن معاوية بعدما ضمن تأييد شرحبيل بن السمط الكندي قال له:

«... سِر في مدائن الشام وناد فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه.

فسار فبدأ بأهل حمص، فقام خطيباً، وكان مأموناً في أهل الشام ناسكاً متألهاً. فقال: يا أيها الناس! إن علياً قتل عثمان بن عفان. وقد غضب له قوم فقتلهم، وهزم الجميع وغلب على الأرض فلم يبق إلاّ الشام. وهو واضعٌ سيفه على عاتقه، ثم خائضٌ به غمار الموت، حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً. ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدّوا وانهضوا».

---

(1) وفي رواية ابن أعثم أن الناس الذين شاورهم شرحبيل كانوا من الرؤوس لأهل الشام من أمثال سليمان بن سعد العائلي وأبي الأعور السلمي ويزيد بن أسد والحصين بن نمير وذي الكلاع الحميري، وأن معاوية كان طلب منهم أن يحضروه في إقناع شرحبيل فوافقوا وشهدوا أن علياً هو القاتل فاقتنع شرحبيل بذلك فشهد عند العسكر أن علياً قتل الخليفة عثمان؟

فأجابه الناس إلا نُسّاك أهل حمص، فإنهم قاموا إليه فقالوا: بيوتنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى.

وجعل شرحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها[1]. لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهم به»[2]

وهكذا فإن معاوية، وبمساعدة فاعلة من شرحبيل بن السمط، نجح في تصوير عليّ لعموم الشاميين بمظهر الغازي القادم إلى الشام فاتحاً، فضلاً عن كونه قاتل الخليفة المظلوم، وبالتالي نجح في تحريضهم على الدفاع عن ترابهم ونسائهم وعرضهم، فنال منهم تعبئة نفسية كبيرة. وكان هذا نجاحاً مضيئاً لمعاوية، وتتويجاً لجهوده العظيمة في حملة دعائية هائلة. فمن المؤكد أن علياً لم يتصرف أبداً كفاتح إزاء مسلمين آخرين «ضالين»، مثلما أثبت ذلك في البصرة، ومثلما سيثبت ذلك لاحقاً في النهروان.

ورواية ابن الحكم هذه تظهر حرص معاوية على إظهار الجانب الدفاعي في موقفه وكيف أنه وأهل الشام يتعرضون الى تهديد ظالم بالعدوان من قبل عليّ وأهل العراق «اللهم فانصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ويخيفون آمننا ويريدون إراقة دمائنا وإخافة سبلنا».

وبالتوازي مع جهود شرحبيل لم يكن معاوية يتوقف عن مخاطبة أهل الشام وعرض حجته وتوضيح سلامة موقفه وتذكيرهم بتاريخه معهم. روى ابن عساكر أن معاوية قال: «أيها الناس قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر وأني خليفة أمير المؤمنين عثمان عليكم وأني لم أقم رجلاً منكم على خزاية قط وأني وليّ عثمان وابن عمه، وقد قال الله في كتابه: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً﴾»

---

(1) الأحداث تشير إلى أن موقف شرحبيل بن السمط، الحماسي في تأييد معاوية وحشد أهل الشام خلفه لم يكن ببساطة ناتجاً عن عملية «خداع» تعرض لها على يد معاوية الذي «ضلله وأقنعه بأن علياً قتل عثمان» بل كان ثمرة صفقة كاملة بينهما. لا بد أن ترتيباً ما تم بين معاوية والزعيم القبلي وحسموا أمورهما ووعدوا بمكافآت ومناصب. فالحماس الذي أظهره شرحبيل، حين سار في مدائن الشام ليحشد أهلها خلف معاوية لا ينسجم مع شخص متردد أو مخدوع بل شريك كامل في القرار والمسؤولية.

(2) ويورد الدينوري في الأخبار الطوال نصاً مشابهاً لهذا إلى حد كبير.

قبل المواجهة: مبعوث عليّ الى معاوية(*)

قرر عليٌّ ان يقوم بالخطوة الأخيرة الواجبة عليه قبل ان يتجه في مسار المواجهة الشاملة مع اهل الشام. فقد كان لا بد من عرض السلام عليهم اولاً، بغض النظر إن كانت هناك فرصة حقيقية للسلام أم لا، انما لا بد من عرض السلام ولا بد أن يأتي الرفض قبل الانطلاق نحو حل المواجهة العسكرية.

أرسل عليٌّ رجلاً علماً من قبيلة بجيلة اليمانية[1] الى معاوية، هو جرير بن عبد الله[2]. وهناك ملابسات كثيرة حول قرار علي هذا ولغطٌ كبير في الروايات التاريخية بشأن هذه الشخصية وتفاصيل ما جرى. لذلك سنتطرق لهذا الموضوع بشيء من التوسع، وبالذات لأن هناك ملاحظة تكررت في سيرة الامام عليّ في الكوفة: أشخاصٌ من جماعته، مندوبيه / ولاته / ممثليه / نوابه، يتركونه بعد خلافات ومشاكل وبعضهم ينضمون الى عدوه! فهل هي مسألة سوء اختيار من طرف عليّ؟ هل يسيء اختيار الاشخاص المناسبين؟ أم انه كان مخدوعاً بهؤلاء، ثم توضحت له الصورة فيما بعد؟ أم ماذا؟

سنتطرق هنا الى حالة جرير بن عبد الله (وفي فصول لاحقة سنأتي للحالة الأشهر: ابي موسى الاشعري).

في تاريخ دمشق لابن عساكر عدة روايات حول إرسال علي لجرير لأخذ بيعة معاوية، ألخصها كما يلي:

(*) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج72 ص127-120 وج49 ص52)، كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص27-49)، أسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص280)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج2 ص)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج3 ص74-75 وص92 وج3 ص116-113)، الأخبار الطوال للدينوري (ص141)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص174)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 121)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص504 و515).

(1) روى ابن الأثير في ترجمته لجرير ما يفيد بأن جريراً كان سيداً في قومه بجيلة وأرسله عليهم عمر بن الخطاب الى العراق بعد هزيمة الجسر. وقال انه مات سنة 51 أو 54.

(2) روى ابن شبة في تاريخ المدينة أن جرير بن عبدالله كان اسلم على رسول الله(ص) على رأس وفد قومه من بجيلة في السنة العاشرة للهجرة وأن الرسول(ص) سُرّ به ووصفه بأنه من خير ذي يمن، وعلمه اصول الإسلام.

كان جرير عاملاً على همدان فنزعه عليّ لما تولّى، فقدم عليه وبايعه.

طلب جرير بنفسه من علي أن يكون هو رسوله إلى معاوية لأن علاقته به ودية (لم يزل لي مستنصحاً ووداً فآتيه فأدعوه على أن يسلم هذا الأمر لك ويجامعك على الحق وأن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك ما عمل بطاعة الله واتبع ما في كتاب الله)[1]، ومعظم أهل الشام من قومه (وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فإن جلهم قومي وقد رجوتُ ألاّ يعصوني).

إذن يبدو ظاهراً أن جريراً كان من دعاة الحل السلمي مع معاوية ويسعى إلى ترتيب تفاهم معه يدخله في طاعة علي ولكن مع الحفاظ على وضع مقبول له. وهذا ما أثار اعتراضات العناصر الراديكالية في معسكر علي من أمثال مالك الأشتر الذي عبّر لعليّ عن شكوكه بجرير (لا تبعثه ولا تصدقه، فوالله إني لأظن هواه هواهم ونيته نيتهم).

وافق عليّ على إعطاء جرير الفرصة ليمارس سفارته، ولكن مع التشديد على رفض إصدار أية وعود لمعاوية (فإن بايع معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلاّ فانبذ إليه على سواء وأعلمه أني لا أرضى به أميراً وأن العامة لا ترضى به خليفة). وفيما يلي نص كتاب علي (من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإن بيعتي لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً كان ذلك رضى. فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون فإن أحبّ الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله

(1) نلاحظ هذا النص، بالحرف تقريباً، ورد في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي، وهو مصدر قديم.

عليك. وقد أكثرت في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله. فأما تلك التي تريدها يا معاوية فهي خدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان فبايع ولا قوة إلا بالله».

الظاهر أن أداء جرير لمهمته كان مقبولاً، بل وجيداً. فبعد أن سلّم معاوية كتاب علي، ألقى خطبة أكّد فيها على صحّة وإلزامية بيعة علي بل انه وصل إلى حد التهديد «أما بعد يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين وأهل الحجاز واليمن ومصر وعمان والبحرين واليمامة، فلم يبقَ إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها لو سال عليها سيل من أوديته غرّقها»، واختتم كلامه بفكرة رائعة وبليغة: تداول السلطة، حين قال لمعاوية «إن الله استخلف عثمان ثم لم يمهله فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين، وكان لكل امرئ ما في يديه. ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول وجعل تلك الأمور موطأة ومحقوقة ينسخ بعضها بعضاً».

قام معاوية باحتجاز جرير لديه لفترة طويلة، إلى حد أن شكوك علي قد ثارت بشأن جرير فكتب إليه يأمره بعدم المكوث في الشام وأن لا يساوم معاوية بل يخيّره بين الدخول في الطاعة التامة أو الحرب «حرب مجلية أو سلم مخزية»[1]. ويبدو ان معاوية احتجز جريراً لأنه أراد التأكد من صلابة تأييد أتباعه في الشام له إذا قرر الذهاب إلى آخر الشوط واختيار المواجهة. وكان بحاجة إلى وقت قبل أن يعطي جوابه النهائي.

وخلال وجوده في الشام تواجه جرير مع خصمه القبائلي: شرحبيل بن السمط الكندي ودار بينهما كلام كثير، ومنه مثلاً «قال له شرحبيل: إنك أتيتنا بأمر ملفف لتلقينا في لهوات الأسد فأردت أن تخلط الشام بالعراق وقد

(1) وفي رواية ابن أعثم أن علياً كتب لجرير «فانظر إن بايعك الرجل، وإلا فأقبل، ولا تكن رعو الجدال».

أطريتَ عليا وهو القاتل عثمان والله سائلك عما قلت يوم القيامة. فقال جرير: أما قولك اني جئتُ بأمر ملفف فكيف يكون ملففا وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وقاتلوا معه طلحة والزبير. وأما قولك اني ألقيت في ليهوات الأسد تفي ليهواته ألقيتَ نفسك. وأما خلط الشام بالعراق فخلطهما على حق خيرٌ من فرقتهما على باطل. وأما قولك ان عليا قتل عثمان فوالله ما في يديك من ذلك إلاّ القذفُ بالغيب من مكان بعيد ولكن ذلك لباطلٍ ولكنكَ مِلتَ الى الدنيا وأهلها وأمر كان في نفسك)[1]. بل ان نصر بن مزاحم يقول أن جريرا كاد أن يقلب أفكار شرحبيل رأساً على عقب، حين أكد له براءة علي من دم عثمان وذكّر بفضله في الإسلام وموضعه من الرسول الى درجة ان شرحبيل عاد متردداً وقال لا والله لا أعجل في هذا الأمر بشيء وفي نفسي منه حاجة.« مما استدعى تدخل معاوية الفوري لتدارك الموقف «فوقّف له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون. ويعظمون عنده قتل عثمان ويرمون به علياً، ويقيمون الشهادات الباطلة والكتب المختلفة، حتى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه».[2]

وأخيراً أطلقه معاوية عائدا الى العراق حاملاً جوابه النهائي الى علي: لن أبايعك وأهل الشام معي[3]!

ويحدثنا ابن أبي الحديد - نقلا عن نصر بن مزاحم - أن جريرا عندما عاد للكوفة واجه اتهاماً قاسيا من الأشتر الذي شكك به وقال انه لو كان هو المندوب «..لحملتُ معاوية على خطة أعجله فيها من الفكر» وأن جريرا دافع عن نفسه وقال ان أهل الشام، وبالأخص عمرو وحوشب وذو الكلاع، يتهمون

---

(1) ولدى مراجعة كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم يظهر تشابه يكاد يصل حد التطابق بين روايات ونصوص ابن عساكر أعلاه وبين ما ذكره نصر المتوفي سنة 212. ولكن توجد تفاصيل أكثر وأشعار لدى نصر.

(2) وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أخبار جرير بن عبد الله وشرحبيل بن السمط نقلا عن كتاب صفين لنصر بن مزاحم، وهي في اجمالها تتشابه مع روايات ابن عساكر أعلاه.

(3) وقال ابن عبد البر في الاستيعاب انه لما جاء جريرٌ معاوية «...حبسه مدة طويلة، ثم ردّه برقّ مطبوع غير مكتوب، وبعث معه من يخبره بمنابذته له».

الأشتر بقتل عثمان ولو وصلهم لقتلوه. وتابع: ان الأشتر قال لجرير أيضا «إنما أتيتهم لتتخذ عندهم يدًا بمسيرك إليهم ثم رجعت إلينا من عندهم لتهددنا بهم وأنت والله منهم ولا أرى سعيك إلا لهم، لئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليحبسنك وأشباهك في حبس لا تخرجون منه حتى تستتم هذه الأمور ويهلك الله الظالمين»

واختتم ابن ابي الحديد الرواية بالقول ان ذلك أدى إلى مفارقة جرير لعلي فلحق بقرقيسياء ولحق به ناسٌ من قسر من قومه، فلم يشهد صفين من قسر غير تسعة عشر رجلا ولكن شهدها من أحمس سبعمائة رجل[1]»

ورواية الدينوري في الاخبار الطوال تتشابه في معالمها الأساسية مع ما ذكره ابن عساكر وابن ابي الحديد ونصر. ولكن فيها تفصيل أدق بشأن مفارقة جرير للامام علي عند عودته من سفارته، حيث يظهر السياق ان هروب جرير نتج بالتحديد من موقف الاشتر الذي اتهمه وهدده «فغضب جرير مما استقبله به الاشتر، فخرج من الكوفة ليلا في اناس من اهل بيته، فلحق بقرقيسيا، وهي كورة من كور الجزيرة فأقام بها.»

وموضوع مفارقة جرير لعليّ ولجوئه الى الجزيرة يكاد يتفق عليه المؤرخون[2]. ولقد روى ابن أبي الحديد ايضا بشأن جرير نقلا عن كتاب المعارف لابن قتيبة «واعتزل عليا عليه السلام ومعاوية، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشراة سنة 54 في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة»

---

(1) قسر وأحمس بطنان من قبيلة بجيلة.
(2) وابن الأثير في أسد الغابة لم يذكر أي شيء عن سفارة جرير لدى معاوية وتجاهل الموضوع كليا في ترجمته لجرير. ولكنه قال «ولما قُتل عثمان اعتزل علياً ومعاوية، وسكن الجزيرة ونواحيها... وقيل: نزل الكوفة وسكنها، ثم سار جرير متجها إلى قرقيسيا فمات بها وقيل مات بالسراة». وعلم ان ابن عبد البر لم يذكر شيئا من خلاف بين علي وجرير الا أنه روى «نزل جرير الكوفة وسكنها، وكان له بها دار ثم تحول الى قرقيسياء ومات بها سنة 54» وروى الذهبي في سير اعلام النبلاء عن ابن سعد نقلا عن الواقدي «اعتزل جرير معتزلا لعلي ومعاوية بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشراة في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة»

وتقول الروايات(1) ان هروب جرير أثار غضب عليّ الشديد. روى الدينوري في الأخبار الطوال «وغضب علي لخروجه عنه، فركب الى داره فأمر بمجلس له فأحرق. فخرج ابو زرعة بن عمرو ابن عم جرير فقال: إن كان إنسان قد أجرم فإن في هذه الدار أناسا كثيرا لم يجرموا إليك جرما، وقد روعتهم! فقال علي: أستغفر الله». وقال ابن أبي الحديد «ويذكر أهل السير أن عليا عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممن خرج معه، حيث فارق عليا عليه السلام منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القسري، كان ختنه على ابنته» كما نقل عن اسماعيل بن جرير قوله «هدم علي دارنا مرتين»!

وهناك روايات تفيد بأن جريرا كان «مُبغضا» للامام علي! أي أن مشكلته معه اكبر من مجرد الخلاف بشأن سفارته لمعاوية. فمثلاً ذكر ابن أبي الحديد اسم جرير بن عبد الله البجلي ضمن قائمة المفارقين لعلي والمبغضين له. وروى عن الأعمش حادثة فيها أن جريرا والأشعث بن قيس كانا مجتمعين يذمان عليا فمرّ بهما ضبٌّ يعدو (فناديا): يا أبا حسل! هلم يدك نبايعك بالخلافة. فبلغ عليا عليه السلام قولهما فقال: أما انهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضب». وذكر أيضا أن حنظلة الكاتب قد خرج هو وجرير بن عبد الله من الكوفة إلى قرقيسيا وقالا «لا نقيم ببلدة يعاب فيها عثمان». كما أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق رواية يترحّمُ فيها جرير على المغيرة بن شعبة لدى وفاته حيث قام جرير خطيبا وقال «أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تسمعوا وتطيعوا حتى يأتيكم أمير. استغفروا للمغيرة بن شعبة غفر الله له لأنه كان يحب العافية»

مع ان سيرة المغيرة في لعن الامام علي على منبر الكوفة معروفة، ولا تخفى على جرير.

وقال الذهبي في سير اعلام النبلاء «بعث علي الى ابن عباس والاشعث وأنا (الراوي: ابنُ جرير بن عبد الله) بقرقيسياء فقالا : امير المؤمنين يقرئك

---

(1) والروايات هذه تتحدث عن هدم عليّ لبيت جرير أو إحراقه، بل وبعضها يقول ان غضب علي هذا ليشمل بالهدم دورا لأقربائه! وهذا أمر لا ينسجم مع أخلاق الامام علي المعروفة، ولذلك لا يمكن تصديقها.

السلام ويقول: نعم ما رأيت من مفارقتك معاوية، وإني أنزلك بمنزلة رسول الله (ص) التي أنزلكها.

فقال جرير: «ان رسول الله (ص) بعثني الى اليمن أقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا حرمت دماؤهم وأموالهم. فلا أقاتل من يقول لا إله إلا الله»

وهذه الرواية تظهر ان جريرا حين قام بالسفارة الى معاوية لم يكن يفعل ذلك من منطلق ولائه لعلي؛ بل انه كان من أنصار الحل الوسط منذ البداية، ولما لم تسر الامور باتجاه التفاهم السلمي بين علي ومعاوية اعتزلهما معا. فالرواية هذه تظهره قريبا من أفكار ابي موسى الاشعري.

ولقد استفضنا في الحديث عن جرير بن عبد الله وسفارته الى معاوية ليس لأهميتها بحد ذاتها (اذ كان من كان شخص مندوب عليّ: لن يغير معاوية موقفه) بل كمثال على الفوضى التي كانت موجودة في معسكر عليّ وتمدد الرؤوس مما كان يؤدي الى قرارات غير مفهومة وباعثة على الحيرة من جانب عليّ.

مبعوث معاوية الى عليّ في العراق: معاوية يقيم الحجة[1]!

ذكر نصر بن مزاحم «ان أبا مسلم الخولاني قدم إلى معاوية[2] في أناس من قراء أهل الشام.

فقالوا له: يا معاوية! علام تقاتل علياً وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟

قال لهم: ما أقاتل عليا وأنا ادعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا

---

(1) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري (ص 58 وص 59)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج19 ص421)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص285)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج4 ص9)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص68–70).
(2) وفي رواية لابن عساكر عن الكلبي أن معاوية هو الذي استدعى أبا مسلم وطلب ان يذهب معه برسالة لعلي

هجرته ولا قرابته ولا سابقته[1]. ولكن خبروني عنكم: ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً؟

قالوا بلى.

قال: فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه.

قالوا: فاكتب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا.

فكتب إلى عليّ هذا الكتاب مع أبي مسلم الخولاني. فقدم به على عليّ.

فقام أبو مسلم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد .. فإنك قد قمت بأمر وتوليته، والله ما أحب أنه لغيرك إن أعطيت الحق من نفسك. إن عثمان قتل مسلماً محرماً مظلوماً، فادفع إلينا قتلته وأنت أميرنا! فإن خالفك أحدٌ من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، وألسنتنا لك شاهدة وكنت ذا عذر وحجة!

وفي تتمة رواية نصر أن علياً طلب من أبي مسلم أن يأتيه في الغد ليأخذ الجواب على كتاب معاوية[2]. وأضاف نصر أنه بعد ذلك فإن الناس من جماعة عليّ لما علموا بطلب الخولاني تجمعوا وأخذوا يصيحون: كلنا قتلة عثمان!

يتابع نصر ويقول أن علياً دفع بكتابه الجوابي لمعاوية في اليوم التالي وفيه:

«والله ما أردتُ أن أدفعهم إليك طرفة عين. لقد ضربتُ هذا الأمر أنفه وعينيه، ما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك.

وأما قولك: ادفع إلينا قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟! إنما أنت رجلٌ من بني أمية، وبنو عثمان أولى بذلك منك! فإن زعمتَ أنك أقوى على دم

(1) رواية الذهبي في سير أعلام النبلاء (من كتاب صفين ليحيى الجعفي) أقتضب عند ولكن فيها إضافة على لسان معاوية: «إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، فليدفع إليّ قتلة عثمان وأسلم له». وهنا أستبعد صحة هذه الإضافة.
(2) لم تذكر روايات ابن عساكر في تاريخ دمشق تفاصيل الحوار بين علي وأبي مسلم ولا عن كلام جمهور العراقيين «كلنا قتلة عثمان» ولا عن عودة أبي مسلم مؤيداً لحرب علي.

أيديهم منهم، فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على المحجة»

ويذكر نصر أن الخولاني بعدها خرج بالكتاب وهو يقول: الآن طاب الضراب»

ويقول ابن حبان في كتاب الثقات ان أبا مسلم الخولاني بعد رجوعه إلى الشام قال لمعاوية والله لتقاتلن علياً أو لنقاتلنه فإنه قد أقر بقتل أمير المؤمنين عثمان! فقام معاوية فرحاً فصعد المنبر واجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقام أبو مسلم خطيباً وحرّض الناس على قتال علي»

وهناك نصٌ طويل لرسالتين متبادلتين بين معاوية وعليّ أورده البلاذري نقلا عن أبي مخنف، أنقلهما هنا بنصيهما نظراً لأهميتهما في توضيح وجهة نظر كل فريق. ولستُ أرى ما يمنع من قبول مضمونهما:

كتب معاوية هذه الرسالة وحملها لأبي مسلم الخولاني «من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، أما بعد

فإن الله اصطفى محمداً بعلمه، وجعله الأمين على وحيه، والرسول إلى خلقه، ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً أيده بهم فكانوا في المنازل عنده على قدر فضائلهم في الإسلام. وكان أنصحهم لله ورسوله خليفته، ثم خليفة خليفته ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان. فكلهم حسدتَ وعلى كلهم بغيتَ، عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وإبطائك عن الخلفاء، في كل ذلك تقادُ كما يُقادُ الجمل المخشوش. ولم تكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمك، وكان أحقهم أن لا تفعل به ذلك لقرابته وصهره. فقطعت رحمه وقبّحت حسنه وأظهرت له العداوة وبطنتَ له بالغش وألّبتَ الناس عليه حتى ضربت آباط الإبل إليه من كل وجه، وقيدت الخيلُ من كل أفق، وشُهر عليه السلاح في حرم رسول الله (ص) فقتل معك في المحلة وأنت تسمع الهائعة لا تدرأ عنه بقول ولا فعل. ولعمري يا ابن أبي طالب لو قمتَ في حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه وتقبح لهم ما انتهكوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً، ولمحى ذلك عنهم ما كانوا يعرفونك به من

المجانبة له والبغي عليه. وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين: ايواؤك قتلته، فهم عضدك ويدك وأنصارك. وقد بلغني أنك تنتصل من دم عثمان وتتبرأ منه، فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتلته نقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس إليك وإلا فليس بيننا وبينك إلا السيف. والذي لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله. والسلام»

وكانت رسالة علي الجوابية كما يلي:

«من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد

فإن أخا خولان قدم عليّ بكتاب منك تذكر فيه محمدا وما أكرمه الله به من الهدى والوحي. فالحمد لله الذي صدق له الوعد ومكّن له في البلاد وأظهره على الدين كله وقمع به أهل العداوة والشنآن من قومه الذين كذبوه وشنفوا له وظاهروا عليه وعلى اخراج أصحابه وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون. فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه، إلا قليلا ممن عصم الله.

وذكرت أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعوانا أيده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم خليفته وخليفة خليفته من بعده. ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم وإن المصاب بهما لرزء جليل. وذكرت أن ابن عفان كان في الفضل ثالثا، فإن يكن عثمان محسنا فسيلقى ربا شكورا يضاعف الحسنات ويجزي بها. وإن يكن مسيئا فسيلقى ربا غفورا رحيما لا يتعاظمه ذنب أن يغفره. وإني لأرجو إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين.

إن الله بعث محمدا (ص) فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له، فكنا أهل البيت أول من آمن وأناب، فمكثنا وما يعبد الله في ربع ساكن من أرباع العرب أحد غيرنا، فبغانا قومنا الغوائل وهموا بنا الهموم وألحقوا بنا الوشائج، واضطرونا إلى شعب ضيق، ووضعوا علينا فيه المراصد، ومنعونا من الطعام والماء العذب وكتبوا بينهم كتابا أن لا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يبايعونا ولا

يتحكمونا ولا يكترثوا لو نبغي اليهم نبينا ليقتلوه أو يمثلوا به. وعزم الله لنا على منعه والذب عنه وسالم من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه، منهم من حليف ممنوع وذي عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا، فهم من القتل بمكان نجوة وأمن. فمكثنا بذلك ما شاء الله. ثم أذن الله لرسوله في الهجرة وأمره بقتال المشركين. فكان اذا حضر البأس ودعيت نزال قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه. فقتل عبيدة يوم بدر وحمزة يوم أحد وجعفر يوم مؤته، وتعرض من لو شئت أن أسميه سميته لمثل ما تعرضوا له من الشهادة، لكن آجالهم حضرت ومنيته أخرت.

وذكرتَ ابطائي عن الخلفاء وحسدي إياهم. فأما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته. وأما الابطاء فما أعتذر الى الناس منه. ولقد أتاني أبوك حين قبض رسول الله (ص) وبايع الناس أبا بكر فقال: أنت أحق الناس بهذا الأمر فابسط يدك أبايعك. قد علمت ذلك من قول أبيك، فكنتُ الذي أبيتُ ذلك مخافة الفرقة، لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية. فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تُصِبْ رشدك وإلّا تفعل فسيغني الله عنك.

وذكرت عثمان وتأليبي الناس عليه. فإن عثمان صنع ما رأيت فركب الناس منه ما قد علمت وأنا من ذلك بمعزل إلّا أن تتجنّى فتجنّ ما بدا لك.

وذكرتَ قتلته -بزعمك- وسألتني دفعهم اليك. وما أعرف له قاتلاً بعينه. وقد ضربتُ الأمرَ أنفه وعينيه فلم أره يسعني دفع من قبلي ممن اتهمته وأظننته اليك.

ولئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لتعرفن الذين تزعم أنهم قتلوه طالبين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل. والسلام.

لماذا رفض عليّ تسليم قتلة عثمان؟

يبدو أنه كان هناك إجماعٌ في المعسكر العراقي على رفض سياسة الترك تلك التي يريد معاوية أن يطبقها عليهم بحيث يجبرهم على أن يفرزوا من بينهم مجموعة يسمونها (قتلة عثمان) ليقوم هو بقتلها بينما يخرج الباقون عليهم؟

كان الناس في المعسكر العراقي بصرختهم «كلنا قتلة عثمان» يعربون عن رفضهم لإعطاء الحق لمعاوية، من حيث المبدأ، في تطبيق الحد الشرعي على من نفّذوا عملية القتل.

فبالإضافة إلى أن معاوية لا يمتلك أية صفة تجيز له أن يكون مسؤولاً عن تطبيق حد شرعي مع وجود خليفة عادل، كان هناك إدراك جمعي بأن ما يطلبه معاوية هو المستحيل بعينه. فـ«قتلة عثمان» مصطلح فضفاض وغير محدد! فمن الذي يعرف على وجه الدقة مَن هما الشخصان، أو الثلاثة، أو الستة الذين قتلوا الخليفة في داره في ظل تلك الفوضى؟

وعلى فرض أن القاتل عُرف، فهل يكتفي معاوية بالشخصين أو الأربعة الذين قاموا بعملية القتل، أم أنه سيوسّع الدائرة لتشمل كل من تمرّدوا على عثمان (وهم حوالي الألف) وكانوا في المدينة حين ذاك؟

ومَن يضمن أنه لن يوسّع الدائرة أكثر لتشمل كل مَن كانوا من منتقدي عثمان والنَّقِمين عليه؟

وماذا عن مَن لم يكن على انسجام مع عثمان في سياساته كلها؟

إذن كان هناك إدراكٌ بأن الموافقة على «مبدأ» تسليم القتلة إلى معاوية كان في معناه العملي نقضاً لبيعة عليّ وإنكاراً لشرعية خلافته!

فمعاوية يصبح عندئذ في موقع يتيح له أن يضع ما يشاء من شروط على عليّ، وأن يطلب منه المستحيلات، وكل ذلك دون أن يكون معاوية قد ألزم نفسه بأي تعهد تجاه عليّ وخلافته، حتى وإن لبّى له كل رغباته!

كان شرط معاوية ذاك في صميمه نوعاً من الاستسلام المطلوب من عليّ، لأن معناه أن يتخلّى عليّ عن أنصاره وعصبة حكمه، مقابل ماذا؟ أن يصبح رهينة لمعاوية وجماعته!

ولذلك لم يكن جواب عليّ للخولاني إلّا تعبيراً عن وحدة موقف، بين الإمام ورعيته، تجاه هذا الأمر الجلل.

لقد كان معاوية حريصاً على أن يبعث بكتابه إلى عليّ مع قرّاء الشام

لأنه يريدهم هم بالذات أن يكونوا في صفه ويشهدوا له. كان بإمكان معاوية أن يتوقع جواب عليّ وأنصاره. وكان يدرك أن القراء بسذاجتهم لن يفهموا موقف الخليفة عليّ وإصراره على رفض المطلب «البسيط» الذي عرض عليه، وأنهم سوف يخرجون بنتيجة أكيدة وهي أن علياً كان ظالماً في قتل عثمان! وذلك ما حصل من قبل أبي مسلم الخولاني وذلك ما أراده معاوية.

لم يكن جواب علي لأبي مسلم وقراء الشام تهوراً ولا عدم خبرة في السياسة، بل كان على العكس تماماً: إدراكاً لخبث المطلب، ووعياً لآثاره المدمرة على خلافته في حال تلبيته.

*****

والنتيجة النهائية لكل جهود معاوية الإعلامية كانت أنه نجح في ترسيخ وتعميم فكرة «المطالبة بدم عثمان»، التي كانت حاشية أول من أطلقها، كأساس رسمي مُعلن لتمرّده وانشقاقه على الخليفة علي. وبَرَعَ معاوية في استعمال هذا الشعار حتى جعله سيفاً مُصلتاً مُشهَراً بوجه علي في كل حين. وبذلك وفر معاوية لكل أشياعه وأتباعه، ولكل مَن كره علياً وسياسته، عذراً شرعياً يستعملونه لتبرير سلوكهم وعدائهم لعلي بن أبي طالب.

وقد بلغ هذا الشعار حداً من الشيوع والانتشار في أوساط مُبغضي علي إلى درجة الابتذال والسفاهة. فرجلٌ مثل طليحة بن خويلد الأسدي، بكل ما له من سجلٍ رديء، وتاريخ سيئ معروف ومشهور في الإسلام، لم يتردد في القول إنه «يطلب بدم عثمان» في معرض رفضه لحكم وسلطان علي في الكوفة![1]

تساؤل بشأن الحس الامبراطوري لدى معاوية

وما كان لرجل له مثل دهاء معاوية وحسه السياسي أن يغفل عن الخطر الخارجي الذي قد يتهدد حوله في الشام من قبل الروم. ولذلك كان لا بد

---

(1) كتاب «الثقات» لابن حبان (ج2 ص274). وطليحة هذا كان من بين «الأنبياء» الكذابين الذين ظهروا بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة، وبعد أن هُزم وأتباعه في حروب «الردة» أعلن توبته.

له وهو يتجهز لخوض حرب طاحنة ضد أبناء جلدته من العرب العراقيين أن يأمن خطر الروم بأي وسيلة. فلجأ معاوية إلى الموادعة، وقبل أن يدفع لهم نوعاً من الجزية، مقابل تعهد بعدم شنّ هجوم على الشام في تلك الظروف القلقة والصعبة على معاوية "وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه"[1]

وهنا لا بأس من طرح تساؤل جدي حول الحس الامبراطوري لدى معاوية. فمن المسلّم به أن معاوية بن أبي سفيان كان رجل دولة وسياسياً من طراز رفيع، ولكن قراره بالمضي قدماً في حرب شاملة ضد الخليفة عليّ الذي يقود جيوش العراق، يلقي ظلالاً من الشك حول سلامة أولويات معاوية الاستراتيجية. فهو بقراره ذاك كان يعرّض الامبراطورية العربية كلها لخطر الانهيار. فمعاوية يعرف أكثر من غيره مدى ضخامة وفعالية القوة الحربية الموجودة بأمرته في الشام، وكذلك التي تناظرها، إن لم تزد عليها، في العراق. وبغض النظر عن حجم الخلاف بشأن قتل عثمان، أو حول خلافة عليّ، أو عزل الولاة وغير ذلك من أمور إشكالية فإنه كان على معاوية أن يدرك أن تلك كلها شؤونٌ حربية داخلية، وهو بالفعل كان يدرك ذلك، وأنه لا يجوز السماح بالمخاطرة بتدمير تلك القوة ذاتياً وبالتالي تقض الانجازات التي تحققت على يد الرسول والخلفاء.

لقد اتخذ معاوية القرار ومضى إلى نهاية الشوط.

وإنّ فشل قيادة الدولة البيزنطية في استغلال الحرب الأهلية الهائلة داخل صفوف أمة العرب، لأمرٌ مذهل حقاً. لقد أضاعت تلك القيادة فرصة تاريخية نادرة لاستعادة ما خسرته على مدى ربع قرن من حروبها مع العرب. ولم تذكر المصادر التاريخية أي مبادرات هجومية، ولا حتى مناوشات، من جانب الروم أثناء الأشهر الطويلة التي استغرقتها معركة صفين وما تلاها. وإن الأموال والهدايا التي أرسلها معاوية للقيادة الرومانية ليست بأي مقياس ثمناً مناسباً يمكن لتلك القيادة أن تتقاضاه مقابل موقفها الساكن أثناء تلك الظروف العصيبة التي مرت بها أمة العرب.

---

(1) وقعة صفين لابن مزاحم المنقري (ص 44). وكذلك جاء في الأخبار الطوال للدينوري (ص 158) أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرسل إلى قيصر الروم ليوادعه ويصالحه ويرد إليه كل أسرى الرومان لديه.

الفصل الثالث: معركة صفين

عليّ يصر على الحسم[1]

لم يُظهر عليّ أدنى تردد في سعيه لتحقيق هدفه. كانت إعادة توحيد أمة محمد(ص) تحت قيادة تمتلك شرعية إسلامية، مسألة لا تحتمل المماطلة ولا أنصاف الحلول بنظره. وكان عليّ يعرف أكثر من غيره أنّ معاوية ومَن معه لا يمكن ان يدخلوا في طاعته لأن ذلك يبساطة يعني نهاية وجودهم. وفي الواقع لم يكن عليّ بعرض أي صفقة يمكن لرجل مثل معاوية أن يقبلها.

لم يكن هناك أي لبس أو تردد في ذهن عليّ. فهو يعرف أنه يسير إلى حربٍ طاحنة، ولكنه كان يراها واجباً دينياً، قبل أي شيء. هو قال عن معاوية وحزبه:

«وقد قلّبتُ هذا الأمر بطنه وظهره، فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد(ص)!

فكانت معالجة القتال أهونَ عليّ من معالجة العقاب، وموتاتُ الدنيا أهونَ عليّ من موتات الآخرة»[2]

إذن هو يرى أن ترك معاوية وحزبه يعادل الكفر بكل ما جاء به النبي(ص). ولم يكن يسعه عمل ذلك.

---

(1) مصادر هذا البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص42 وص55 و ج3 ص611)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص174)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص140)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص133).

(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.

وهو قد وصف أعداءه مرة فقال لأتباعه:

«فإنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء ممن أسلم كرهاً وكان لرسول الله (ص) حرباً. أعداء السنة والقرآن، وأهل الأحزاب والبدع والأحداث، ومن كانت بوائقه تتقى، وكان عن الدين منحرفاً، وأكلة الرشا وعبيد الدنيا... وإن منهم لمن شرب فيكم الحرام وجلد حداً في الإسلام، فهؤلاء قادة القوم ومن تركتُ ذكر مساويه منهم شرٌّ وأضر. وهؤلاء الذين لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم الغضب والفخر، والتسلط بالجبروت، والتطاول بالغصب، والفساد في الأرض. ولاتبعوا الهوى وحكموا بالرشا...»[1]

كان معاوية رجلاً عملياً، يقوم بحسابات الربح والخسارة بدقة، وكان من المؤكد أن علياً، لو أراد لكان بإمكانه أن يعقد معه صفقة تتضمن اعترافاً من معاوية بشرعية عليّ وخلافته وسلطته على كل بلاد المسلمين، مقابل المحافظة على وضع قيادي لمعاوية في الدولة. كان معاوية سيكتفي من عليّ بإقراره على ولاية الشام[2]، الغنية والقوية، وإطلاق يده فيها. فما دام معاوية سيستمر مسيطراً على مصادر قوته في الشام، المال والرجال، فلا بأس بعدها من الاعتراف بخليفة في المدينة يمتلك «مؤهلات» إسلامية لا تتوفر عند معاوية. لا شك أن هكذا ترتيب كان مناسباً، في حينه على الأقل، لمعاوية الذي كان يدرك أن الظروف لم تتهيأ بعد لإعلان طموحه إلى المنصب الأعلى في دولة المسلمين. وعلى الرغم من البغض الشخصي الذي كان معاوية يكنّه لعليّ، بسبب معارك الإسلام التي خاضها عليٌ مع رسول الله(ص) وكان له فيها الدور الأبرز في مواجهة أبي سفيان وكل الأمويين وما نتج عنها من ثارات لهم تمكنت من نفوسهم، إلا أن معاوية كان حتماً قادراً على تجاوز البعد الشخصي في الموضوع إذا عُرضت عليه تسوية مقبولة[3].

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

(2) روى الذهبي في سير أعلام النبلاء أن معاوية قال لسفير علي، جرير بن عبد الله في ختام محاورتهما اكتب إلى علي أن يجعل لي الشام وأنا أبايع له ما عاش.

(3) ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق روايتين (عن الكلبي): الأولى تقول إن معاوية كتب لعلي من خلال سفيره جرير بن عبد الله أنه يمكن أن يبايعه ما دام حياً على أن لا يبايع لأحد من بعده بشرط أن يجعل له الشام، والثانية بشرط أن يجعل له الشام ومصر. وأن كتابه هذا في المرتين وأن الوليد بن عقبة كتب له شعراً يلومه فيه على ذلك ويحثه على حرب علي بلا هوادة.

طبعاً كان معاوية يتمنى وجود شخص آخر غير عليّ في منصب زعامة الدولة، من بطون قريش غير الهاشمية، والذي سيكون لا شك أقل «مؤهلات» وشرعية من عليّ بكثير وبالتالي أقل قوة منه، إلاّ أن معاوية بحكم طبيعته العملية كان يدرك أن قريبه عثمان قد قتل ولن يعود، وليس هناك أمويّ آخر يمتلك حداً أدنى من الشرعية لكي يترشح للخلافة. ولذلك كان مضطراً إلى قبول خليفة من غير بني أمية.

كان معاوية يعرف أن عليه الانتظار لفترة أخرى، قد تطول، قبل أن يصرّح بذلك الطموح. فكلما مرت الأعوام ازداد المسلمون بُعداً عن العهد النبوي، وقلّ أيضاً عدد الأشخاص الذين يمتلكون شرعية تنبع من ماضٍ مشرف واتصال مباشر مع رسول الله(ص).

فما كان معاوية يحتاجه هو الزمن. ولكن الشرط الأساسي لأي ترتيب مع معاوية كان المحافظة على الوضع القائم. لا بد لمعاوية أن يكون متأكداً أن الخليفة في المدينة، أياً كان هذا الخليفة من شخصيات الصحابة الذين لا زالوا على قيد الحياة، لن يتدخل في عمله وولايته.

والمعضلة الرئيسية هنا هي أن علياً لم يكن يعرض أي شيء على الإطلاق على معاوية. فما كان يصل معاوية من أخبار عليّ كان ينذر بالشؤم والشر بالنسبة له. لم يُظهر عليّ أي احترام لعهد عثمان بن عفان وحكمه وإدارته وترتيباته وسياسته، بل على العكس، عبّر عليّ عن رفضه التام لتوجهات الخليفة المقتول وأعلن عليّ عزمه على نقض سياسة عثمان بن عفان وقراراته! ولا بد أن معاوية قد بلغته أولى إعلانات عليّ الذي كان يعتبر ما فعله عثمان من توزيع القطائع من أموال وأملاك المسلمين على أقربائه وبطانته، ظلماً صارخا وخروجاً على نهج الاسلام وتعاليم الرسول(ص). وكان معاوية يعلم أن علياً مصمم على ردّ كل قطائع عثمان إلى المسلمين، بقوله «والله لو وجدته قد تزوّج به النساء وملك به الإماء لرددته. فان في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[1]

---

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.

ولا يمكن لشخص مثل معاوية، يسيطر على إقليم الشام منذ حوالي العشرين عاماً، أن يقبل ببساطة أن يتحول إلى ضحية لا حول لها ولا قوة لسياسة الخليفة الجديد؛ كان معاوية يعلم أن علياً لن يقبل منه أي حل وسط، فلا شيء غير التسليم المطلق وبلا شروط، بسلطة عليّ يمكن أن يُجنّب معاوية حرباً ضروساً وهذا ما كان يحتويه كتاب عليّ لجرير بن عبد الله البجلي لمّا أرسله إلى معاوية:

«أما بعد: فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثم خيّره بين حرب مجلّية، أو سلم مخزية. فإن اختار الحرب فانبذ إليه، وإن اختار السلم فخذ بيعته، والسلام»[1]

بدء التعبئة والحشد[2]

كان على عليّ أن يسير بجحافل أهل العراق لقتال الشاميين. ولم تكن تلك الخطوة سهلة أبداً، ولم يكن أي قائد يقادر على اتخاذ مثل ذلك القرار والشروع بتنفيذه بكل تصميم، سوى شخص من طراز عليّ، لا يعرف في الحق مهادنة.

وأعلمَ عليٌّ خاصته بقراره الصعب ذلك. وشجعه مقربوه، وخاصة عمار بن ياسر وهاشم بن عتبة ومالك الأشتر وزعماء الأنصار مثل قيس بن سعد وخزيمة بن ثابت وسهل بن حنيف، على المضيّ قُدُماً بلا تردد في حرب أهل الشام.

ولكنّ علياً سمع أيضاً من بعض أتباعه قلة من الأصوات المخالفة، والمترددة والداعية إلى المفاوضات مع أهل الشام، بعضها كان متأثراً بما جرى يوم الجمل، وبعضها كان متوجساً لمواجهة مفتوحة مع الشاميين.

---

(1) نهج البلاغة شرح محمد عبده. والفصل هو الحكم القطعي. وانبذ إليه أي أعلمه بالحرب.

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 92/ 94/ 95/ 102/ 116)، الدينوري في الأخبار الطوال (ص144)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 420)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص4)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص 77-79)، والإمامة والسياسة لابن قتيبة، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص566).

ذكر نصر بن مزاحم: «فقام رجلٌ من بني فزارة فقال له أربد فقال: أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم؟! كلا والله لا نفعل»[1]

وقال رجلٌ من بني تميم: «يا أمير المؤمنين: إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا، ورأينا لك رأياً فلا ترده علينا. فإنا نظرنا لك ولمن معك: أقم وكاتب هذا الرجل، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام. فإني والله ما أدري ولا تدري لمن تكون إذا التقيتم الغلبة، وعلى من تكون الدبرة»[2]

ولكن مثل هذه الأصوات كانت أقلية وسط مزيج من التأييد الحاسم الذي حصل عليه عليٌ من عامة أهل العراق، وخاصة الزعماء القبليين منهم، من أمثال عدي بن حاتم الطائي ويزيد بن قيس الأرحبي وحجر بن عدي الكندي وعبد الله بن بديل الخزاعي:

«ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين! إن القوم لو كانوا الله يريدون، أو لله يعملون، ما خالفونا. ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة، وحُباً بالأثرة، وضناً بسلطانهم، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم.

وعلى إحن في أنفسهم، وعداوة يجدونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم.

ثم التفت إلى الناس فقال: كيف يبايع معاوية علياً وقد قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة، في موقف واحد؟!

والله ما أظن أن يفعلوا، ولن يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المران وتقطع على هامهم السيوف، وتنثر حواجبهم بعمد الحديد، وتكون أمور جمّة بين الفريقين»[3]

---

(1) نفس هذا النص ذكره الدينوري في الأخبار الطوال وأنه أن الأشتر تصدى للرجل فهرب، فلحقه الناس وضربوه حتى مات. فأتى علي ديته لأهله من بيت المال لأنه لم يعرف قاتله. والرواية أخرجها أيضاً البلاذري في أنساب الأشراف بلفظ «فقالوا».
(2) وقعة صفين لنصر بن مزاحم
(3) وقعة صفين لنصر بن مزاحم. والأسوة هي التسوية بين المسلمين في قسمة المال. والقصد: الكسر. والمران: الرماح الصلبة.

كما بذل عدي بن حاتم الطائي(1) جهداً في توحيد صفوف أهل العراق حول موقف عليّ وألقى فيهم خطاباً مؤثراً تكلم فيه عن خصال أمير المؤمنين:

«أيها الناس: إنه والله لو غير علي دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان وفي يديه من الله سبب. وإنه وقف عن عثمان بشبهة، وقاتل أهل الجمل على النكث وأهل الشام على البغي. فانظروا في أموركم وأمره، فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله، فسلموا له وإلا فنازعوا عليه.

والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة، إنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبي الله، والرأس في الإسلام. ولئن كان إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً وأنهكهم عبادة. ولئن كان إلى العقول والنحائز إنه لأشد الناس عقلاً وأكرمهم نحيزة. ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة. ولئن كان إلى الرضا لقد رضي به المهاجرون والأنصار في شورى عمر رضي الله عنهم وبايعوه بعد عثمان ونصروه على أهل الجمل وأهل الشام...»(2)

وقال يزيد بن قيس الأرحبي لعلي: حث الناس على جهاز رحيله وأهبة رحلته، وأكثرهم أهل الكوفة، وليست لهم علة، غير مناديك فلينادِ في الناس أن يخرجوا إلى معسكرهم في النخيلة»(3)

ولعب عمار بن ياسر دوراً بناءً في حشد التأييد للمسير إلى الشام، فكان يرتجز:

---

(1) هناك روايات تقول إن عدي بن حاتم الطائي بقي على ولائه العظيم لعلي بن أبي طالب إلى آخر يوم في حياته. فعلاً يرد في تاريخ ابن عساكر أن عدي بن حاتم قال لمعاوية بن أبي سفيان لما سمعه ينتقص علياً: «والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن أدنيت إلينا من الغدر شبراً لندنين إليك من الشر باعاً. وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي». ولكن المستبعد أن يجرؤ عدي على مخاطبة معاوية، وهو خليفة مقتدر، بهذه اللغة.

(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

(3) أنساب الأشراف للبلاذري.

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي   سيروا فخيرُ الناس أتباعُ علي

وكان عمار يؤكد لعامة الناس على مشروعية قتال معاوية وابن العاص ويقول لهم:

«... والله ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً»[1]

وأعلن قيس بن سعد بن عبادة دعم الأنصار اللامحدود لعليّ فقال له[2]: «يا أمير المؤمنين: انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرد. فوالله لجهادهم أحب إليّ من جهاد الترك والروم؛ لإدهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد (ص) من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان: إذا غضبوا على رجل منهم حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيّروه! وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين. قال يعني: رقيق»[3]

وحسم عليٌّ الأمر، واتخذ القرار التاريخي الصعب، فقام وأعلن لعموم أهل العراق:

«سيروا إلى أعداء الله. سيروا إلى أعداء السنن والقرآن. سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار»[4]

واستجاب العراقيون في إجمالهم لدعوة عليّ، رغم وجود القلة من المشككين. روى الدينوري في الأخبار الطوال: فأجاب جل الناس إلى المسير

---

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم.
(2) وموقف قيس هذا حصل على الرغم من قيام علي قبل ذلك بعزل قيس عن ولاية مصر، وهو يدل على مدى أصالة معدن قيس وإخلاصه لعليّ، فهو لم ينظر إلى الجانب الشخصي من قضية عزله عن ولاية مصر، واستمر في تمسكه بالنهج الأنصاري العام المعادي لطلقاء قريش والموالي لرسول الله (ص) وآله.
(3) هذا الاقتباس وما بعده من وقعة صفين لنصر بن مزاحم. والانكماش هو الإسراع والجد، والتعريد هو الفرار والإحجام، والإدهان هو الغش والمصانعة، والقطين: الخدم والأتباع.
(4) وقريب من هذا النص ذكره الدينوري في الأخبار الطوال حيث قال: «سيروا إلى أعداء السنن والقرآن. سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار. سيروا إلى الجفاة الطغام الذين كان إسلامهم خوفاً وكرهاً. سيروا إلى المؤلفة قلوبهم ليكفوا عن المسلمين بأسهم»

إلا أصحاب عبد الله بن مسعود وعبيدة السلماني والربيع بن خثيم في نحو من أربعمائة رجل من القراء فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا قد شككنا في هذا القتال، مع معرفتنا فضلك. ولا غنى بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين، فولنا بعض هذه الثغور لنقاتل عن أهله.

فولاهم ثغر قزوين والري وولى عليهم الربيع بن خثيم وعقد له لواء. وكان أول لواء عقد بالكوفة»[1]

وبدأ التحرك نحو الشام بعد أن وصلت قوات البصرة أيضاً، يقودها عبد الله بن عباس[2] وقد حضر معه رؤساء قبائل البصرة الذين ذكرهم البلاذري على النحو التالي: خالد بن المعمر على بني بكر بن وائل، وعمرو بن مرحوم على عبد القيس، وصبرة بن شيمان على الأزد[3]، وشريك بن الأعور على أهل العالية، والأحنف بن قيس على بني تميم وضبة والرباب.

وطبعاً لم يكن معاوية مفاجأً بتحرك علي، بل كان يستعد لذلك من فترة طويلة وكان بالفعل قد مهّد الأرضية في الشام للمواجهة الكبرى وقام بكل ما يلزم من تعبئة نفسية واستنفار لمجتمع الشام، ولذلك فإنه لم يواجه صعوبة تذكر حين ذكّر الشاميين بالتهديد القادم إليهم. فخطب الناس وقال لهم إن علياً جاءكم هو ومعه أناس أهل العراق من ذي شرف يحامي عن شرفه وذي دين يحامي عن دينه وذي كلب يأمل فيكم الغلبة! أتاكم والله في درقة الأنصار وسيفه همدان ورمحه عبد القيس وسنانه أخلاط العرب. فإن كنتم تريدون الصبر فهذا وقت الصبر»[4].

وسرعان ما جاءه الرد المتوقع على لسان حوشب ذي الظليم الذي عبّر عن التحدي الشامي للغزو العراقي بقوله «يا معاوية! والله ما أتيناك

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري وفي رواية الكامل لابن الأثير «وتخلف عنه نفر من أهل الكوفة ومنهم مرة الهمداني ومسروق، أخذا أعطياتهما وقصدا قزوين»

(2) قال ابن الأثير في الكامل «وقدم عليه عبد الله بن عباس، فيمن معه من أهل البصرة».

(3) وعلق البلاذري قائلاً: «ويقال إنه لم يحضر من أزد البصرة إلا عبد الرحمن بن عبيد، وثلاثون من عشيرة نفراً، وربما يكون ذلك صحيحاً نظراً لتأثير موقعة الجمل المدمّر على قبيلة الأزد في البصرة

(4) النص من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي.

نصر ولا لك نطلب ولا عليك نحامي، إلا على الشام! فكف الخيل بالخيل والرجال بالرجال، ولا يهولنك عليّ ومن معه، فإن ما له ولأصحابه عندي إلا حملة واحدة فأفرق جمعهم وأبدد شملهم.

الجيشان يتواجهان[1]

واتخذ علي من النخيلة، قرب الكوفة، معسكراً لقواته، التي تجمعت فيها للانطلاق إلى الشام وسار الجيش العراقي بقيادة عليّ من النخيلة إلى الصراة، ثم المدائن، فالأنبار فالرقة[2] إلى أن وصل صفين في شهر ذي الحجة سنة 36هـ. وكان معاوية قد سار بقواته من الشام، بعد أن بلغه خبر مسير عليّ، إلى أن وصل صفين قبل وصول جيش العراق إليها.

وتجمع الجيشان أخيراً متقابلين متحفزين في صفين، وهي من خرائب الرومان القديمة على ضفاف الفرات. وفي تلك المساحة الصغيرة بالذات كانت توجد بالفعل كل قوة العرب على الإطلاق. لقد استنفر الفريقان الشامي والعراقي كل قوتهما وإمكاناتهما واصطفا متواجهين يستعدان لمواجهة مرعبة لم يسبق لها مثيل. كان أبناء القبائل العربية من كافة أنحاء جزيرة العرب وأطرافها، القيسية واليمانية، يتواجدون موزعين على الفريقين! كانت القبيلة الواحدة يقاتل جزء من أبنائها في صفوف الجيش العراقي والجزء الآخر في صفوف جيش الشام! وحتى تقسيم الفرق والكتائب في صفوف الفريقين كان على أساس قبلي: فكان لقضاعة الكوفة قائدهم الذي يوازيه من الجانب الآخر قائد لقضاعة دمشق. وهكذا أمر معظم القبائل.

---

(1) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (الصفحات 205، 206، 207، 208 و224)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص 411)، تاريخ الطبري (ج4 ص 34 وص 5)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص 61).

(2) يقول البلاذري إن الرقة كان بها الجمع للعثمانية الذين امتنعوا مع معاوية. فلما وصلها عليّ طلب من أهلها أن يصنعوا له جسراً لكي يعبر بجيشه الفرات ولكنهم أبوا، لولا أن مالك الأشتر هددهم لصنعوا جسراً، وعبر عليّ بقواته إلى الضفة الأخرى وواصل مسيره.

وكانت تعبئة الجيش العراقي (الوضعية القتالية) على النحو التالي[1]:

الميمنة: تكونت من اليمنيين، كندة، وبالأخص مذحج وهمدان، وكان عليها الأشعث بن قيس، ثم تولى قيادتها عبد الله بن بديل. وكان على رجالة الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي.

الميسرة: تكونت من قبائل ربيعة، وكان عليها عبد الله بن عباس، ومحمد بن الحنفية. وكان على رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبدي.

القلب: تكون أساساً من قبائل مضر الكوفة والبصرة ومن أهل المدينة الأنصار، وكان عليه عليّ، ومعه من خزاعة وكنانة عدد مهم.

خيل أهل الكوفة: كان عليهم مالك الأشتر وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف.

رجالة أهل الكوفة عليهم عمار بن ياسر، ورجالة أهل البصرة عليهم قيس بن سعد ومعه هاشم بن عتبة.

وكان القراء موزعين على الوحدات القتالية، وكانوا يتبعون قريبة قادة وهم: عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل ومسعر بن فدكي (قراء البصرة).

الراية كانت مع عمرو بن الحرث بن عبد يغوث.

وأما جيش الشام فكانت تعبئته على النحو التالي[2]:

الميمنة: تكونت من قبائل اليمن وقضاعة، وخاصة حمير. وكان عليها ذو الكلاع الحميري. وضمت الميمنة كلاً من أهل حمص وأهل قنسرين، الذين كان عليهم زفر بن الحارث.

---

(1) هذه المعلومات من وقعة صفين لنصر بن مزاحم. وورواية أبي مخنف في تاريخ الطبري فيها مثل هذه المعلومات ولكن باختصار.
(2) وهناك روايات تقول أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان على ميمنة معاوية وأن عبيد الله بن عمر بن الخطاب كان على خيله. وروايات تقول أنه كان على مقدمة قواته أبو الأعور السلمي، وعلى ساقته بسر بن أرطأة وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص.

الميسرة: تكونت من قبائل يمنية مثل عك، والأزد وبجيلة، وكان عليها حبيب بن مسلمة (القرشي). وضمت الميسرة كلا من أهل الأردن واهل فلسطين اللتين كان عليهم مسلمة بن مخلد.

القلب: جند دمشق، والقبائل القيسية، وغطفان وهوازن وسليم، وكان عليها معاوية.

خيل أهل الشام: كان عليها جميعا عمرو بن العاص، وكان على خيل أهل دمشق: أبو الأعور السلمي

وعلى رجالة أهل دمشق مسلم بن عقبة المري. وعلى رجالة الناس كلها الضحاك بن قيس(القرشي).

اللواء كان مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد(القرشي).[1]

وبالإضافة إلى هذا التشكيل العسكري الأساسي، قام كل من عليّ ومعاوية بتوزيع الألوية والرايات على كل القبائل المشاركة في جيشيهما.

فمثلاً كان لواء عبد القيس – الكوفة مع صعصعة بن صوحان، بينما كان لواء عبد القيس – البصرة مع عمرو بن حنظلة. وكان لواء تميم – الكوفة مع عمير بن عطارد بينما لواء تميم – البصرة مع الأحنف بن قيس، وهكذا في الجانب العراقي.[2]

وفي الجانب الشامي أيضا كانت الألوية قد وزعت على القبائل. فمثلا كان على قضاعة – دمشق حسان بن بحدل الكلبي، بينما كان على قضاعة – الأردن حبيش بن دلجة القيني.

---

(1) وأما رواية ابن الأثير في الكامل فتذكر التوزيع التالي لقوات معاوية:
على الميمنة: ابن ذي الكلاع الحميري. على الميسرة: حبيب بن مسلمة الفهري. على المقدمة: أبو الأعور السلمي. على خيل دمشق: عمرو بن العاص. على رجالة دمشق: مسلم بن عقبة المري. وعلى الناس كلهم: الضحاك بن قيس.

(2) يتحدث أبو مخنف لدى الطبري عن تنافس داخلي على راية قبيلة ربيعة الكبيرة ضمن قوات أهل العراق، ويقول ان علياً -بعد أخذ ورد- حسم الامر واعطى راية كل ربيعة لخالد بن المعمر.

التردد الطويل قبل الاشتباك[1]

كانت فكرة الحرب الشاملة بين الجيشين العربيين مخيفة ومرعبة لكليهما. وعلى الرغم من أن النخبة الأيديولوجية من كلا الطرفين قد بلغت أوجها، وعلى الرغم من الحماسة الظاهرة للقتال التي كانت تبديها العناصر الأكثر تحمسا من الجانبين، إلاّ أنه ولا شك، كان هناك خوف حقيقي من المواجهة المفتوحة بين الجيشين بكامل طاقتهما. كان أفراد المعسكرين ينظرون إلى بعضهما البعض فيرون بوضوح التكافؤ العسكري الذي كان قائما بكل جلاء. وربما تؤدي مواجهة كهذه إلى الفناء المتبادل. فأكثر الروايات تشير إلى أن عدد أفراد الجيش العراقي كان يتراوح حوالي الـ 90 ألفاً ومثلهم كان عدد مقاتلي جيش الشام[2].

والجدول التالي به مقارنة بين الأرقام الواردة في عدة مصادر بشأن عدد الجيشين المتقاتلين:

المصدر	عدد الجيش العراقي	عدد الجيش الشامي
التنبيه والإشراف للمسعودي	٩٠ ألف	١٤٠ ألف
تاريخ الإسلام للذهبي	٥٠ ألف وقيل ٩٠ ألف، وقيل ١٠٠ ألف	٧٠ ألف
أنساب الأشراف للبلاذري	قالوا ٥٠ ألف ويقال ١٠٠ ألف	٧٠ ألف ويقال ١٠٠ ألف
الإمامة والسياسة لابن قتيبة	١٩٠ ألف	٨٣ ألف

(1) مصادر هذا البحث: الأخبار الطوال للدينوري (ص 162 وص 170)، تاريخ الطبري (ج3 ص579 وص562 وج4 ص2 وص4)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص280 وص290)، ابن قتيبة في الإمامة والسياسة (ج1 ص120 – 129 وص124)، كتاب سليم بن قيس الهلالي (ص290–301)، التنبيه والإشراف للمسعودي (ص250)، تاريخ الإسلام للذهبي (ج3 ص434)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص97)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج1 ص204).
(2) يقدر هشام جعيط في «الفتنة» ص199، بعد تحليله لكل الروايات الواردة حول عدد المقاتلين من الجانبين ولظروف ذلك الزمان أن جيشي الشام والعراق كانا متعادلين بـ 75 ألفا لكل منهما.

المصدر	جيش علي	جيش معاوية
البداية والنهاية لابن كثير:		
- عن جابر الجعفي	١٥٠ ألفاً من أهل العراق	مقابل معاوية في نحو منهم
- عن ابن حنبل	١٠٠ ألف «أو يزيدون»	١٣٠ ألف
- عن البيهقي	١٢٠ ألف	٦٠ ألف
الأخبار الطوال للدينوري	٨٠ ألف رجل «سوى الأتباع والخدم»	لم يذكر
تاريخ الطبري[1]	٧٠ ألف	لم يذكر

وهذا الخوف من الالتحام العسكري التام بين جيشين بهذا الحجم، وهما في النهاية جيشان شقيقان، شاء القادة ذلك أم أبوا، هو ما يفسر الفترة الطويلة جداً التي قضاها الجيشان معسكرين قبالة بعضهما، والتي زادت عن ثلاثة أشهر، قبل بدء المعركة الحقيقية. فالأمر كان خطيراً جداً ويحمل في طياته تهديداً لمستقبل الوجود العربي كله في الشام والعراق. فهذان الجيشان المتقابلان قاما بالفعل بإلحاق الهزيمة بجيوش فارس والروم خلال ربع قرن من الزمان. كانت المواجهة الشاملة بينهما تعني المجازفة بكل ما انجزته أمة العرب من فتوح عظيمة وتوسع كبير، لذا فالتردد والحذر كان أمراً طبيعياً، والتمهّل يشير إلى إدراك القيادتين لذلك.

وخلال تلك الفترة الطويلة كانت المراسلات تدور بين قيادة عليّ ومعاوية. ولكنها لم تحمل أي شيء جديد. فكلٌ منهما يكتفي بتكرار مواقفه ومطالبه التي يصر على أنها عادلة. كانت القيادتان حريصتين على أن تظهر كل منهما أمام جنودها ومقاتليها على الأقل بمظهر الراغبة في تجنب حرب إبادة لأمة العرب. ولذلك كان الاهتمام من قبل كل من عليّ ومعاوية بتفنيد حجج

(1) يُلاحظ أن الطبري في تاريخه المفصل لم يذكر صراحة عدد جيش عليّ، وإنما ذكره عرضاً في سياق بيت من الشعر قاله الإمام عليّ أثناء خروجه لصفين في رواية لعبد الله المروزي «لأصبحنّ العاصيَ ابن العاصي ■■■■ سبعين ألفاً عاقدي النواصي». أي حوالي 70 ألفاً. كما أنه لم يذكر عدد جيش الشام.

الطرف الآخر وبيان بطلانها، كبيرا. وكان هناك حرص أيضا على «إشهاد الشهود» على ما يعلنه كل منهما.

وفيما يلي استعراض للمراسلات التي حصلت:

هناك روايات أن معاوية لجأ إلى إرسال صحابة لمطالبة علي بتسليم قتلة عثمان: أبو هريرة وأبو الدرداء.

ففي تلك الفترة كان معاوية حريصاً جداً على أن يطرح نفسه كصاحب مطلب بسيط وشرعيّ وهو القصاص من قتلة عثمان، ولم يكن حينها معاوية قادراً بعد على إعلان نفسه كخليفة منافس لعليّ. وكان معاوية في مرحلة حشد أهل الشام خلفه ودفعهم للقتال معه ولذا كان يريد أن يثبت لهم أن علياً قتل عثمان، والدليل أنه يرفض تسليم قاتليه. وكان معاوية بحاجة إلى شهود له على ذلك، وبالتالي فأن أبا هريرة كان مناسباً للقيام بهذا الدور لأن معاوية سيقول لعموم جماعته: هذا أحد أصحاب رسول الله يشهد على عليّ وليست أنا وعمرو ابن العاص فقط مَن يقول بذلك.

روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة:

قال معاوية لأبي هريرة وأبي الدرداء لما قدما عليه من حمص، وهو بصفين:

لستُ أزعم أني أولى بهذا الأمر من عليّ، ولكني أقاتله حتى يدفع إليّ قتلة عثمان.

فقالا: إذا دفعهم إليك ماذا يكون؟

قال: أكون رجلاً من المسلمين. فأتيا علياً فإن دفع إليكما قتلة عثمان جعلتها شورى؟

وطبعاً كان معاوية يعرف جوابَ عليّ الأكيد على هذا المطلب.

وهكذا إذن ذهب أبو هريرة إلى عليّ يطالبه ليس فقط بتسليم «قتلة عثمان» ولكن أيضا بالتنحّي من الحكم وجعلها شورى (وكلمة شورى هنا

لا تعني عموم المسلمين، بل العودة لنظام عمر بن الخطاب: شورى كبار الصحابة من قريش، علما بأنه لم يبق منهم حياً إلّا القليل، ومعاوية يعلم تماما أنه عملياً لم تعد شورى عمر ممكنة ولا واردة لأن الزمن تغير)!!

ولمّا رفض عليّ طلبه، عاد أبو هريرة إلى اهل الشام بالأخبار التي يمكن لمعاوية أن يستغلها على أحسن وجه في دعايته .

وقد أثار هذا الدور الذي لعبه أبو هريرة استياء الكثيرين من أصحاب الضمير الاسلامي المرهف والمائلين الى عليّ بالضرورة، حتى من أهل الشام أنفسهم! فيروي صاحب الإمامة والسياسة:

فإن أبا هريرة وأبا الدرداء انصرفا إلى منزلهما بحمص. فلما قدما حمص لقيهما عبد الرحمن بن عثمان (الأشعري) فسألهما عن مسيرهما فقصّا عليه القصة .

فقال: العجب منكما أنكما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما والله لئن كففتما أيديكما فما كففتما ألسنتكما . أتأتيان عليّاً وتطلبان إليه قتلة عثمان وقد علمتما أن المهاجرين والأنصار لو حرّموا دم عثمان نصروه، وبايعوا عليّاً على قتله، فهل فعلوا ؟ وأعجب من ذلك رغبتكما عمّا صنعوه وقولكما لعليّ: اجعلها شورى واخلعها من عنقك! وإنكما لتعلمان أن من رضي بعليّ خيرٌ ممن كرهه، وأنّ من بايعه خيرٌ ممن لم يبايعه. ثم صرتما رسولي رجل من الطلقاء لا تحلّ له الخلافة»

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن ديزيل من طريق عمرو بن سعد أن الصحابيين اللذين ارسلهما معاوية كانا ابا الدرداء وابا امامة. فقال انه لما كان الجيشان متواجهين في صفين؛ خرج ابو الدرداء وابو امامة فدخلا على معاوية فقالا له: يا معاوية، على ما تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله انه أقدم منك ومن ابيك اسلاماً، وأقرب منك الى رسول الله (ص) وأحق بهذا الامر منك . فقال: أقاتله على دم عثمان وانه آوى قتلته، فاذهبا اليه فقولا له فليقدنا من قتلة عثمان ثم انا أول من بايعه من اهل الشام.

فذهبا الى علي فقالا له ذلك فقال: هؤلاء الذين تريان. فخرج خلق كثير فقالوا: كلنا قتلة عثمان! فمن شاء فليرمنا .

قال: فرجع أبو الدرداء وأبو أمامة فلم يشهدا لهم حرباً»

وخلافاً للصحابة الذين أرسلهم معاوية لأغراض دعائية محضة، فإنه أرسل وفداً «جدياً» يمثله هو ونظام حكمه.

وقد ذكر ابن كثير، عن الطبري من طريق أبي مخنف، أن معاوية كان قبل ذلك قد أرسل وفداً رفيع المستوى من قياداته، أثناء اصطفاف الجيشين في صفين:

«وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس إلى علي، فدخلوا عليه. فبدأ حبيب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلته إن زعمت أنك لم تقتله، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليهم رأيهم.

فقال له علي: وما أنت لا أم لك وهذا الأمر وهذا العزل؟! فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك.

فقال له حبيب: أما والله لتريني حيث تكره.

فقال له علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك؟! لا أبقى الله عليك إن أبقيت. اذهب فصعد وصوب ما بدا لك»

وجدير بالذكر أن العلامة ابن كثير توقف عن الرواية عند هذه المرحلة وقال «ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر. فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه وأنهم إنما دخلوا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه وغير ذلك. وأنه قال في ضمن ذلك: لا أقول إن عثمان قتل مظلوماً ولا ظالماً. فقالوا: نحن نبرأ ممن لم يقل إن عثمان قتل مظلوماً، وخرجوا من عنده. فقال علي: إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهادي العمي

من ضلالتهم ان تسمع إلاّ ان يؤمن بآياتنا فهم مسلمون - النمل 81). ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم منكم بالجد في حقكم وطاعة نبيكم.

وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه.

وفي هذا الموقف من ابن كثير تظهر نزعته الاموية بوضوح.

وفيما يلي الكلام الذي قاله علي لشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد والذي لم يُرق لابن كثير فلم يروه وأعلن عدم تصحيحه له، لا لشيء إلاّ لأنه ينتقص فيه من معاوية وأبيه. فقد روى الطبري في تاريخه من رواية ابي مخنف ان عليا قال للرجلين(1):

«اما بعد، فإن الله جل ثناؤه بعث محمدا (ص) بالحق فأنقذ به من الضلالة وانتاش به من الهلكة وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله اليه وقد أدّى ما عليه (ص). ثم استخلف الناس ابا بكر رضي الله عنه واستخلف ابو بكر عمر رضي الله عنه فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة، وقد وجدنا عليهما ان توليا علينا ونحن آل رسول الله (ص)، فغفرنا ذلك لهما.

وولي عثمان رضي الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا اليه فقتلوه. ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي: بايع، فإن الامة لا ترضى إلاّ بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس. فبايعتهم.

فلم يرعني إلاّ شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام: طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل لله عز وجل ولرسوله (ص) وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين.

فلا غرو إلاّ خلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم (ص) الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً.

---

(1) ويلاحظ ان كلامه معهما اختلف عن كلامه الحاد مع حبيب بن مسلمة، ربما لأنهما غير مرائيين فأمل بأن يستميلهما بخلاف حبيب الفاقد منه الرجاء.

ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (ص) وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة.

فقالا: أتشهد أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً ؟

فقال لهما: لا أقول إنه قتل مظلوماً ولا أقول إنه قتل ظالماً

قالا: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء. ثم قاما فانصرفا.

فقال علي: إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ولا أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون.

ثم أقبل علي على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالهم منكم بالجد في حقكم وطاعة ربكم.

وبالعودة إلى وفد معاوية، يلاحظ اختلاف الطلبات التي وجهها حبيب بن مسلمة إلى علي عن تلك التي وجهها الصحابة (أبو هريرة / أبو الدرداء/ أبو أمامة) له. فهو الآن يتعلق بلسان معاوية وقيادته فيطلب من علي التنحي من منصب الخلافة بدون مواربة، بخلاف الآخرين الذين كان معاوية يستغلهم بالحديث عن مظلومية عثمان وضرورة الاقتصاص من قتلته.

وأما بالنسبة للرسل الذين بعثهم عليٌ إلى معاوية: لم يكن ثمة شيء ليعرضه على معاوية سوى الدخول في طاعة علي بدون شروط. وهي بالتالي كانت مهمة فاشلة حتماً. وأخبار حوارهم وسجالاتهم مع معاوية فيها الكثير من الخطب والمواعظ والتهديدات، وأحياناً لا تخلو من طرافة.

وأهم وفد أرسله عليٌ إلى معاوية، حينما وصل جيشه إلى صفين وعسكر الجيشان على ضفاف الفرات، كان مكوناً من ثلاثة رجال، وهم من قبائل مختلفة: بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي. وقد اقترح شبث بن ربعي على عليٍّ حين وجههم

لم يقدم بعض الوفود لمعاوية ليحفزه على الدخول في طاعته فلا تطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة يكون له بها أثرة عنده إن هو بايعك؟» ولكن علياً لم يجبه إلى شيء وطلب منه الاقتصار على دعوة معاوية إلى الطاعة بدون أي عرض محدد. فقد روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف أن الوفد ذهب إلى معاوية في أول ذي الحجة فأتوه ودخلوا عليه، فحمد الله وأثنى عليه أبو عمرة بشير بن عمرو وقال: يا معاوية أن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك. وإني أنشدك الله عز وجل أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها

فقطع عليه الكلام وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟

فقال أبو عمرة: إن صاحبي ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول (ص)

قال: فيقول ماذا؟

قال: يأمرك بتقوى الله عز وجل وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك

قال معاوية: ويطل دم عثمان رضي الله عنه؟! لا والله لا أفعل ذلك.

فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعي فتكلم .

فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معاوية إني قد فهمت ما رددت على ابن محصن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب. إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه. فاستجاب له سفهاء طغام. وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب. ورب متمني أمر وطالبه الله عز وجل يحول دونه بقدرته. وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته ووالله مالك في واحدة منهما خير: لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلي النار. فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن أول ما عرفتُ به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه. ثم عتبت بعدُ فيما لا علم لك به، فقد كذبتَ ولؤمتَ أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرتَ ووصفتَ.

انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف. وغضب.

وخرج القوم وشبث يقول: أتخوفنا تهول بالسيف؟! أقسم بالله ليعجلن بها عليك!

كما روى الطبري عن أبي مخنف أيضاً أن علياً أرسل وفداً آخر بعد ذلك، حين حل شهر محرم وتوادع الفريقان فيه، يضم عدي بن حاتم[1] الطائي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وشبث بن ربعي وزياد بن خصفة، وقد حصلت خلاله مشادات حادة. فمثلاً قال عدي في معرض كلامه «فاتق الله يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل» فأجابه «كأنك إنما جئت متهدداً، لم تأت مصلحاً. هيهات يا عدي كلا والله! إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنآن...» ولما طالبهم معاوية بتسليم قتلة عثمان ليقتلهم أجابه شبث «أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟» فرد عليه معاوية بجواب صاعق «وما يمنعني من ذلك؟ والله لو أمكنتُ من ابن سمية ما قتلته بعثمان رضي الله عنه ولكن كنتُ لأقتله بنائل مولى عثمان!» فانفعل شبث وقال «وإله الأرض وإله السماء أما عدلت معتدلاً. لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء برحبها!». وتضيف الرواية أن معاوية حاول رشوة زياد بن خصفة على انفراد لكي ينضم إليه ويترك علياً، فرفض.

ومن المصادر الشيعية، ورد في كتاب سليم بن قيس الهلالي أن معاوية أرسل أبا هريرة وأبا الدرداء (وهم بصفين) برسالة إلى علي يطلب منه فيها أن

---

(1) رغم أن أغلب الروايات في المصادر تفيدنا بأن عدي بن حاتم كان من رجالات علي وقياداته المخلصين إلا أن هناك رواية لدى الخطيب البغدادي (من طريق علي بن المديني) تلقي ظلالاً من الشك بشأن ولائه لعلي:
«خرج عدي بن حاتم وجرير بن عبد الله البجلي وحنظلة الكاتب من الكوفة فنزلوا قرقيسيا وقالوا: لا نقيم ببلد يُشتم فيه عثمان»

يمكنه من قتلة عثمان ليقتلهم ويسلم له الأمر ويبايع هو وأهل الشام. فرفض علي واشترط الدخول في طاعته أولاً ومن ثم التخاصم بين يديه والشكوى ضد من قتلوا عثمان. «فهؤلاء بنو عثمان رجال قد أدركوا، ليسوا بأطفال ولا مولى عليهم. فليأتوا أجمع بينهم وبين قتلة أبيهم. فإن عجزوا عن حجتهم فليشهدوا لمعاوية بأنه وليهم ووكيلهم وخصمهم في خصومتهم. وليقعدوا هم وخصماؤهم بين يدي مقعد الخصوم إلى الإمام والوالي الذي يقرون بحكمه وينفذون قضاءه. وأنظر في حجتهم وحجة خصمائهم. فإن كان أبوهم قتل ظالماً وكان حلال الدم أبطلتُ دمه، وإن كان مظلوماً حرام الدم أقدتهم من قاتل أبيهم: فإن شاؤوا قتلوه وإن شاؤوا عفوا وإن شاؤوا قبلوا الدية[1].

وهؤلاء قتلة عثمان في عسكري يقرون بقتله ويرضون بحكمي عليهم ولهم. فليأتني ولد عثمان أو معاوية -إن كان وليهم ووكيلهم- فليخاصموا قتلته وليحاكموهم حتى أحكم بينهم وبينهم بكتاب الله وسنة نبيه(ص)»

..... ثم خرج أبو هريرة وأبو الدرداء، فإذا نحو من عشرين ألف رجل مقنعين بالحديد فقالوا: نحن قتلة عثمان ونحن مقرون وراضون بحكم علي عليه السلام علينا ولنا فليأتنا أولياء عثمان فليحاكمونا إلى أمير المؤمنين عليه السلام في دم أبيهم. فإن وجب علينا القود أو الدية اصطبرنا لحكمه وسلمنا »

هذه كانت استعراضاً لما دار من مراسلات ومناقشات ومطالبات بين الطرفين من خلال الوفود المتبادلة، والتي كانت كلها بلا أي نتيجة.

وطبعاً كانت فترة الأشهر الثلاثة مناسبة أيضاً لكي يُظهر كل طرف تصميمه ويُحسن استعداده. وكانت تحصل بشكل يومي مواجهات محدودة تقوم بها فرق معينة من الجانبين. وكانت هناك الكثير من الدعوات الفردية للقتال والبراز يقوم بها فرسان من هنا وهناك لإظهار الشجاعة وإرهاب الخصم. وكانت تحصل مناورات عسكرية يقوم بها الخيالة تستهدف هدفاً

---

(1) ويعتبر كلام عليّ في هذه الرواية منطقياً وأقرب ما يكون إلى رأيه وموقفه المنطقي من موضوع قتل عثمان. ورأيي أن هذه الرواية في جوهرها قريبة جداً من الصحة إن لم تكن صحيحة تماماً.

معينا من الجيش المقابل، شخص مشهور، أو قبيلة معينة أو ما شابه. وكان الرماة يتبادلون التراشق بالنبال في بعض الأحيان.

وفي غالب الأحيان كانت تلك المناوشات تنتهي بالتحاجز فيما بينهما، دون خسائر كبيرة. وقد عبّر الدينوري عن ذلك بقوله:

«يزحف بعضهم إلى بعض، فيحجز بينهم القراء والصالحون، فيفترقون من غير حرب، حتى تزاحفوا في هذه الثلاثة الأشهر خمساً وثمانين تزحفة. كل ذلك يحجز بينهم القراء»[1]

بدء القتال[2]

بعد انتهاء الأشهر الحرم تزايدت حدة المواجهات بين الفريقين. وأرسل عليٌ منادياً يصيح في معسكر معاوية:

«إنا أمسكنا لتنصرم الأشهر الحرم وقد تصرمت. وإنا نبذنا إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين»[3]

وبدأ القتال الفعلي بين الجيشين، ولكنه حتى تلك اللحظة كان لا زال محدوداً في حجمه. ولم ينخرط فيه كل الجيشين بعد. فكانت الكتائب يقودها قادة بارزون تواجه مثيلتها من الطرف الآخر ويدور بينها قتال طاحن يسفر عن مقتل الكثيرين. ثم تتوقف المعارك فتعاود الحدوث على أيدي كتائب أخرى تخوض معارك شرسة فيها كرّ وفرّ ضد نظيرتها. وفي بعض الأيام كانت الكفة تميل إلى الجانب العراقي، وفي أيام أخرى إلى الجانب الشامي. ولم يحصل تفوق ساحق لأيهما.

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص210)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 171)، تاريخ الطبري (ج4 ص4 وج5 ص26)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص 277)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (ج3 ص253)، والمستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص344)، المحبر لابن حبيب البغدادي (ص294)، مسند أحمد بن حنبل (ج4 ص319)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج3 ص151)، أسد الغابة لابن الأثير (ج4 ص214).

(3) الأخبار الطوال للدينوري، و(نبذنا إليكم على سواء) تعني: نعلن عليكم الحرب

ونرى من المناسب هنا استعراض هذا النص الذي يظهر أخلاقيات الحرب عند عليّ:

روى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف عن جندب الأزدي أن علياً كان يأمرنا في كل موطن لقينا فيه معه عدوا فيقول:

لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم فإنكم بحمد الله عز وجل على حجة، وتركُكم إياهم حتى يبدأوكم حُجة أخرى لكم.

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم:

فلا تقتلوا مُدبراً

ولا تجهزوا على جريح

ولا تكشفوا عورة

ولا تمثلوا بقتيل

فإذا وصلتم إلى رحال القوم:

فلا تهتكوا ستراً

ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذن

ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلاّ ما وجدتم في عسكرهم

ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس؟

وليس هذا الكلام مستغرباً من عليّ، وهو يشبه كلامه ووصاياه لقواته يوم الجمل في البصرة. ولا ننسى طبعا ان القتال يدور بين المسلمين ولذلك التشديد على عدم هتك الأستار وكشف العورات.

وفي أرض الميدان، تحدثنا الروايات عن الدور المركزي والكبير الذي لعبه الصحابي العظيم عمار بن ياسر في شحذ الهمم والمعنويات لدى مقاتلي الجيش العراقي عن طريق التأكيد المتواصل على صوابية موقف الإمام علي في الصراع وأيضا ايضاح مدى خبث وسوء نية معاوية وجماعته.

وفي النص التالي يشن عمار هجوماً تحريضياً شديداً ضد شخص معاوية:

«يا أهل الإسلام، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله، أتى النبيّ فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسوله(ص) وإنا لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم؟

ألا وإنه معاوية. فالعنوه لعنه الله. وقاتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله ويظاهر أعداء الله»[1]

وفي رواية أبي مخنف[2] لدى الطبري المزيد من الدور التحريضي لعمار بن ياسر:

«إن عمار بن ياسر خرج إلى الناس فقال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته. اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته»

وهنا خطبة أخرى[3] لعمار بن ياسر أيضاً يحمّس فيها مقاتلي الجيش العراقي أثناء المعركة:

«إن عماراً قال يومئذ: من يبتغي رضوان ربه ولا يلوي إلى مال ولا ولد؟ فأتته عصابة من الناس.

فقال: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً. والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره. ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحلوها واستمروا الآخرة فقلوها. وعلموا أن الحق إذا

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم.
(2) ونص هذه الرواية وردت في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي.
(3) البداية والنهاية لابن كثير. وقريبٌ من ذلك رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى. وأجزاء من هذه الرواية وردت في المستدرك على الصحيحين للحاكم.

لزمهم حالة بينهم وبين ما يسرفون فيه من دنياهم وشهواتهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم. ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله. فخدعوا أتباعهم بقولهم إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً. وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان، ولكانوا أذل وأخس وأقل. ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين. فسيروا إلى الله سيراً جميلاً واذكروه ذكراً كثيراً»

ولا شك عندي أن عمار بن ياسر وهو يظهر ذلك الحماس والإخلاص في تأييده علياً كان يتذكر أيامه مع رسول الله(ص) ويستحضر جهاده معه والحروب التي خاضوها معاً ضد كبار قبيلة قريش في بدر وأحد والخندق، وعلى رأسهم طبعاً أبو سفيان، والد معاوية. وكان لا بد أن تأتي النهاية: قتل عمار، وسقط في أرض المعركة شهيداً في سبيل علي، والحق الذي يمثله علي. تابع الرواية:

«..... رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً، آدم طوالاً، أخذ الحربة بيده ويده ترعد.

فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة. والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفت أننا على الحق وأنهم على الضلالة!

.... ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب رسول الله.

ورأيته جاء إلى هاشم بن عتبة، وهو صاحب راية علي، فقال: يا هاشم تقدم! الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنة. وقد فتحت أبواب الجنة وتزينت الحور العين:

اليوم ألقى الأحبة   محمداً وحزبه

ثم حملا هو وهاشم فقتلا، رحمهما الله تعالى!

ومواقف عمار هذه وكلامه في صفين ذكرها حتى اهل الحديث وليس فقط أهل التاريخ والاخبار. فهذا الامام احمد في مسنده يُخرج عن عبد الله بن سلمة انه قال: «رأيتُ عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً، آدم طوالاً، أخذ الحربة بيده ويده ترعد،

فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة. والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعرفتُ أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة»

وكان قتل عمار بن ياسر من الأمنيات التي تحققت لبني أمية. لقد جعلوا قتل عمار من أولويات أهدافهم. وكان ابتهاجهم بقتله عظيماً، وكان عملاؤهم وأتباعهم الباحثون عن الغنائم يذكرون ذلك. فتنازع عدة أشخاص «شرف» قتل عمار[1]

ولم يكن عمار وحده من يتذكر أيامه وجهاده مع الرسول (ص)، بل قيس بن سعد بن عبادة أيضا كان يذكر جهاد قومه الأنصار، فقام بين الناس قائلا:

«هذا اللواء الذي كنا نحفّ به، مع النبيّ وجبريلٌ لنا مَدَدْ»[2]

وقفة مع حديث: تقتله الفئة الباغية (عمار بن ياسر)[3]

روى الامام البخاري في صحيحه عن ابي سعيد حتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي (ص)، فينفض التراب

---

(1) وتوارث الأمويون الفرحة بقتل عمار جيلا بعد آخر؛ فقد روى ابن حبيب البغدادي في المحبر أنهم كانوا يسمون قتل عمار «فتح الفتوح» وأن أحد الذين قتلوا عماراً من الذين طال عمرهم كثيراً، يدعى «أبو الغادية» قد أقبل على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك فاستأذن للدخول عليه، وقال للحاجب بكل فخر: قل له هذا أبو الغادية قاتل عمار!

(2) أسد الغابة لابن الاثير.

(3) مصادر هذا البحث: صحيح البخاري (ج1 ص122)، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج1 ص462)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج43 ص427)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص274)، مسند احمد بن حنبل (ج4 ص319)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص95).

عنه ويقول: ويح عمار! تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار.

قال يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن!

وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ان هذا الحديث الصحيح قد روي في الكثير من كتب الحديث المعتبرة وعن طريق عدد كبير من الصحابة، بالاضافة الى ابي سعيد الخدري:

وروى حديث تقتل عمارا الفئة الباغية جماعة من الصحابة، منهم قتادة بن النعمان -كما تقدم- وأم سلمة عند مسلم، وأبو هريرة عند الترمذي، وعبد الله بن عمرو بن العاص عند النسائي، وعثمان بن عفان وحذيفة وأبو أيوب وأبو رافع وخزيمة بن ثابت ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو اليسر وعمار نفسه وكلها عند الطبراني وغيره وغالب طرقها صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة آخرين يطول عدهم!

ولكن ابن حجر رغم اعترافه بأن هذا الحديث ينطبق بالتحديد على أهل الشام في حرب صفين (وقد تحدث عن محاولات البعض لإلصاق هذا الحديث بالخوارج والادعاء بأنهم هم الفئة الباغية، فقام برد تلك المحاولات وبيّن بطلانها) إلاّ أنه قدم اعتذاراً عنهم وتأويلاً لنعت «الفئة الباغية» التي تلزمهم بنص الحديث.

فقال عن عمار الذي قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي، والذين قتلوه مع معاوية وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟

فالجواب أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة. وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم.

فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها وهو طاعة الإمام.

وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي، وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يدعون إلى خلاف ذلك، لكنهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم!

وابن حجر يقول هذا الكلام عن المجتهد المخطئ والصحابة المعذورون بالتأويل، نظراً لكونه فقيهاً ملتزماً على مذهب أهل السنة والجماعة. وهذا الرأي من صلب المذهب: تنزيه الصحابة، كل الصحابة، عن كل المثالب والعيوب.

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه قد روى حديث «ويح ابن سمية! تقتله الفئة الباغية» 24 صحابياً وهم: عمار نفسه، وعثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، وأبي رافع، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبي هريرة، وزيد بن أبي أوفى، وجابر بن سمرة، وأبي قتادة، وعمرو بن حزم، وخزيمة بن ثابت، وأبي اليسر كعب بن عمرو، وزياد بن الفرد، وكعب بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وأبي أمامة، وعائشة وأم سلمة.

ولقد أخرج أحاديثهم بأسانيدها، وألفاظها المختلفة والمتقاربة. ويلاحظ أن هناك روايتين حول المناسبة التي قال بها النبي(ص) هذا الكلام لعمار: الأولى هي أثناء بناء المسجد والثانية أثناء حفر الخندق، وفي الحالتين بسبب انهماك عمار وحماسته الشديدة أثناء العمل بما يفوق غيره. وبعض الروايات فيها إضافة «وقاتله في النار» وفي بعضها الآخر «وآخر زادك من الدنيا ضياح من لبن»[1].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية «وهذا مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: قتله أهل الشام وبان وظهر بذلك سر ما أخبره به الرسول (ص) من أنه تقتله الفئة الباغية. وبان بذلك أن علياً محق وأن معاوية باغ»[2]

---

(1) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي البختري أن عماراً وهو في المعركة في صفين طلب شربة من لبن لأن النبي(ص) كان قال له إن ذلك سيكون آخر ما يشربه في هذه الدنيا، ثم تقدم حتى قتل.

(2) ورغم أن هذا الكلام في ظاهره منصف للإمام علي الذي يصفه ابن كثير بأنه محق، إلا أن نظرة أعمق تكشف موقفاً في غاية السلبية والخطورة: فابن كثير يعتبر الحديث النبوي الدلالة الوحيدة على صحة موقف الإمام علي ولولاه لما عرف أي الفريقين على حق!؟

وتقول المصادر انه بعد مقتل عمار صار هناك تشكك لدى بعض الناس في جبهة معاوية بسبب حديث الفئة الباغية، مما اضطر معاوية الى ابتكار جواب خلاّق لهذه الاشكالية ! فمثلاً يقول لنا البلاذري في رواية من طريق الاعمش أن معاوية رد على تساؤل عبد الله بن عمرو بن العاص بعد مقتل عمار بقول *"أنحن قتلناه؟! انما قتله الذين جاؤوا به، يعني علياً وأهل العراق"*!

مما ورد اعلاه يتضح لنا ان هناك اتفاقاً وإجماعاً بين الفقهاء وأهل الحديث على صحة حديث «تقتله الفئة الباغية»، ومن الصعب تجاهل ذلك خاصة وانه مرويّ على لسان عدد كبير من الصحابة.

ولكني مصرّ على موقفي: الشك في جميع الاحاديث النبوية التي فيها نبوءات وكلام عن اشخاص محددين في سياق الفتنة الكبرى، سواء لصالح الامام علي او ضده. وأرى تلك «الاحاديث» ذات مآرب وأغراض سياسية وطائفية.

وانا أرى ان كون معاوية وجماعته هم الفئة الباغية واضح كالشمس لكل ذي عينين وقلب منصف، وليس بحاجة الى حديث منسوب للنبي(ص) لاثبات ذلك، بل ان سياق الاحداث والتطورات، وما حصل بالفعل، يثبت ذلك.

****

وقفة مع قرشيّ من رجال عليّ: هاشم بن عتبة[1]

ويكثر ذكر هاشم بن عتبة المرقال ضمن الرجال المخلصين في ولائهم لعلي بن ابي طالب، وخاصة عند الحديث عن معركة صفين. ويمكن اعتبار هذا الرجل حالة فريدة بالفعل: فهو قرشيٌ حسيب وهو ابنٌ لواحدٍ من أشرس أعداء رسول الله (ص) في مكة. فأبوه عتبة بن ابي وقاص كان من ضمن أربعة

---

(1) مصادر هذا البحث: ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج5 ص32)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج63 ص115)، ابن الأثير في اسد الغابة (ج5 ص49)، ابن عبد البر في الاستيعاب (ص 740)، وكتاب المنمق لابن حبيب البغدادي (ص 417)

رجال من قريش تعاهدوا على قتل محمد (ص) قبيل بدء معركة أحد، كما روى الواقدي في المغازي، وكانوا ينحصرون في مسعاهم ولكن الله سلم رسوله رغم إصابته بجروح. وإن عهدنا بهؤلاء الرجال الذين عرفوا بحنقة عداوتهم لرسول الله(ص)، كالعاص بن وائل وعتبة بن ابي معيط وابي سفيان والحكم بن أبي العاص وصفوان بن أمية وغيرهم أن يكونوا هم وأبناؤهم صفاً مرصوصاً في عداوتهم لعلي بن ابي طالب، وخاصة أيام خلافته. ولكن هاشماً كان على النقيض من ذلك: شديد الولاء لعلي.

ومما يزيد في غرابة موقف هاشم أن عمه سعد بن أبي وقاص كان على قيد الحياة أثناء نشاط هاشم في دعم علي. وسعد كان من اهل شورى عمر وبالتالي مرشحاً مقبولاً للخلافة بنظر النظام القرشي. أي أنه كان منافساً لعلي. ولذلك كان طبيعياً أن يكون هوى هاشم مع عمه سعد، صاحب الموقف السلبي المشهور من علي وبحثه وحكمه.

وليس عندي أسبابٌ واضحة تفسر اندفاع هاشم في تأييد علي بن ابي طالب بتلك الهمة والحماسة. ولكن يظهر أنه كان من فئة الرجال شديدي التديّن وصادقي النية[1]. وربما كان تاريخ أبيه القاتم تجاه النبي(ص) حافزاً له لكي يعوّض عما سلف عن طريق الولاء الخالص للرسول (ص) ولعليّ من بعده.

وربما كان ما يراه من انحراف وفساد في عهد ولاة عثمان بن عفان دافعاً آخر له لكي يوالي علياً، من اجل الاصلاح والتغيير. وقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى حادثة تظهر اصطداماً وقع بين هاشم وبين والي عثمان على الكوفة: سعيد بن العاص.

« لما انصرف سعيد بن العاص الى الكوفة، فأضرّ بأهلها إضراراً شديداً. وعمل عليها خمس سنين إلاّ شهراً.

وقال مرة بالكوفة: من رأى الهلال منكم؟ وذلك في فطر رمضان.

---

(1) ولكن يشكل على سيرة هاشم ما رواه ابن حبيب البغدادي في كتاب المنمق حول عثمان أيضاً هاشم بن عتبة بن ابي وقاص في الخمر بشهادة قوم من أهل الكوفة!!

فقال القوم: ما رأيناه.

فقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص: أنا رأيته.

فقال له سعيد بن العاص: بعينك هذه العوراء رأيته من بين القوم؟!

فقال هاشم: تعيرني بعيني؟ وإنما فقئت في سبيل الله. وكانت عينه أصيبت يوم اليرموك.

ثم أصبح هاشم في داره مفطراً. وغدى الناس عنده.

فبلغ ذلك سعيد بن العاص فأرسل إليه فضربه وحرق داره.

فخرجت أم الحكم بنت عتبة بن أبي وقاص، وكانت من المهاجرات، ونافع بن أبي وقاص، من الكوفة حتى قدما المدينة. فذكرا لسعد بن أبي وقاص ما صنع سعيد بهاشم.

فأتى سعد عثمانَ فذكر ذلك له. فقال عثمان: سعيد لكم بهاشم اضربوه بضربه ودار سعيد لكم بدار هاشم فاحرقوها كما حرق داره.

فخرج عمر بن سعد بن أبي وقاص، وهو يومئذ غلام يسعى، حتى أشعل النار في دار سعيد بالمدينة. فبلغ الخبر عائشة فأرسلت إلى سعد بن أبي وقاص تطلب إليه وتسأله أن يكف ففعل»[1]

وقال ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب[2] «أسلم هاشم بن عتبة يوم الفتح، يعرف بالمرقال. وكان من الفضلاء الخيار، وكان من الأبطال البهم، فقئت عينه يوم اليرموك، ثم أرسله عمر من اليرموك مع خيل العراق إلى سعد، كتب إليه بذلك. فشهد القادسية وأبلى فيها بلاء حسناً. وقام منه في ذلك ما لم يقم من أحد. وكان سبب الفتح على المسلمين، وكان بهمة من البهم، فاضلاً خيراً.

وهو الذي افتتح جلولاء: عقد له سعد لواء ووجهه، وفتح الله عليه جلولاء ولم يشهدها سعد. وقد قيل: إن سعداً شهدها. وكانت جلولاء تسمى

(1) وهذا النص حرفيا رواه أيضا ابن عساكر في تاريخ دمشق نقلا عن ابن سعد.
(2) ونص هذا الكلام بالحرف تقريبا رواه ابن الأثير في أسد الغابة.

فتح الفتوح، وبلغت غنائمها ثمانية عشر ألف ألف. وكانت جلولاء سنة 17 .
وقال قتادة: سنة 19 .

وهاشم بن عتبة هو الذي اختصم مع سعيد بن العاص زمن عثمان، إذ شهد في رؤية الهلال، وأفطر وحده، فأقصه عثمان من سعيد على يد سعد بن أبي وقاص في خبر فيه طول.

ثم شهد هاشم مع علي رضي الله عنه الجمل، وشهد صفين، وأبلى فيها بلاء حسناً مذكوراً. وبيده كانت راية علي على الرجالة يوم صفين. ويومئذ قتل رضي الله عنه. وهو القائل يومئذ:

أعور يبغي أهله محلا   قد عالج الحياة حتى ملا

لا بد أن يفل أو يفلا

وقطعت رجله يومئذ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك ويقول:

الفحل يحمي شوله معقولا

وقاتل حتى قتل. وفيه يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة:

يا هاشم الخير جزيتَ الجنة   قاتلتَ في الله عدو السنة

أفلح بما فزت به من منة

****

إذن تلقى الجانب العراقي ضربة موجعة في تلك المعارك حين قتل عمار بن ياسر وهاشم بن عتبة، ومن بعدهما عبد الله بن بديل الخزاعي.

وكان عبد الله بن بديل، وهو يقود ميمنة عليّ، قد استبسل في القتال بنفسه وكان يحمس جنوده ويضرب لهم المثل في البطولة، ويلقي فيهم الخطب المؤثرة:

فإن عبد الله بن بديل قام في أصحابه فقال:

إن معاوية ادعى ما ليس له. ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله. وجادل

بالباطل ليدحضوا به الحق. وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزين لهم الضلالة وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر وزادهم رجساً إلى رجسهم.

وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين.

قاتلوا الطغاة الجفاة ولا تخشوهم، وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبرور (أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين)

وقد قاتلتهم مع النبي (ص). والله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر.

قوموا إلى عدو الله وعدوكم؟[1]

وتقول الرواية انه شنّ حملة شديدة على ميسرة أهل الشام، وكان مصمماً على قتل معاوية ذاته. وفعلاً اقترب منه بقواته، فوجد معاوية نفسه في وضع صعب إلى أن أنقذه حبيب بن مسلمة ورجاله، الذين شنوا حملة معاكسة أرجعت قوات العراق إلى مواضعها. ولكن ابن بديل رفض التراجع وثبّت في موقعه المتقدم والقريب من معاوية ومعه مائة من قراء العراق. فحوصر معهم من قبل جيش ابن مسلمة، فلم يستسلموا بل استبسلوا، ولم يستطع جيش معاوية القضاء عليهم بالقتال والمواجهة، بل قذفوهم بالحجارة عن بُعد إلى أن قتلوا.[2]

******

وفي الجانب الشامي كان معاوية وقياداته حريصين على إظهار الجانب العقائدي في موقف أهل الشام أمام عامة المقاتلين. وحسب النص التالي قام أحد قيادات معاويه يزيد بن أسد البجلي يخطب في الناس يوم صفين:

---

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 234).
(2) وهذا الاستبسال الذي أظهره ابن بديل ليس غريباً، فأخوه الأكبر نافع بن بديل الخزاعي كان من ضمن العشرة من أصحاب النبي (ص) الذين بعثهم إلى أهل نجد فغدروا بهم وقاتلوهم حتى استشهدوا من بكرة أبيهم في بئر معونة قبل حوالي 33 سنة. ذكر ذلك ابن اسحق في سيرة ابن هشام (ج3 ص 186).

«... ثم قد كان مما قضى الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض، والله يعلم أني كنتُ لذلك كارهاً، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا، وننظر لمعادنا حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حريمنا وبيضتنا.

وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطغاماً، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا، وقد كنا نحب ألاّ نقاتل أهلَ ديننا، فأحرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم كراهية، فإنا لله وإنا إليه راجعون...»[1]

و تعرض معاوية لخسارة ثانية حين قتل قائده العسكري الفذّ والبارز، والفارس المشهور: ذو الكلاع الحميري.

وكان ذو الكلاع قد ألقى خطبة مهمة قبل مقتله، بطلب من معاوية، ترتبط بجملة الفلسفة الدعائية التي استند إليها معاوية، ولم يمل من تكرارها أمام جنوده بشكل متواصل، من أجل استمرار ثباتهم، وفيها أربع نقاط:

«... لم أر يسعني أن يُهدر دم عثمان، صهر رسول الله (ص) نبينا.... فإن كان أذنب ذنباً فقد أذنب من هو خيرٌ منه وقد قال الله عز وجل لنبيه: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر..

.... إنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله. فإن لم يكن مالأ على قتل عثمان فقد خذله...

... ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا في شامكم وبلادكم...

.. فإني سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إنما يُبعث المقتتلون على النيات»[2]

وقتل حوشب ذو ظليم، قائد رجّالة حمص.

وأيضاً كانت خسارة معاوية كبيرة بمقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب[3]، أحد عناصر النخبة والدعاية المهمة له.

---

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 242).
(2) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 240).
(3) يروي البلاذري في أنساب الأشراف (ج؟ ص 152) تفاصيل كثيرة حول مقتله، وكيف أنه طلب من معاوية أن يوليه قيادة الفصائل وهي ما يجب وصف قوات النخبة في الجند من أجل التصدي للخطط العسكري التي كانت تحركها قبيلة ربيعة من الجانب العراقي، وأن ذلك أدى إلى مقتله على أيديهم واحتماز جثته عندهم مما دفع زوجته بحرية، وهي من قبيلة ربيعة، إلى الذهاب لقومها العراقيين للحصول عليها ودفنه.

وعلى الرغم من كل ذلك القتال الشديد:

«كان أهل العراق وأهل الشام أيام صفين إذا انصرفوا من الحرب، يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض أحدٌ لصاحبه. وكانوا يطلبون قتلاهم فيخرجونهم من المعركة ويدفنونهم»[1]

مبارزات وهمية[2]

في كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم يظهر النفس الملحمي، حيث المقامات الأبطال والمبارزات، والأشعار والمفاخرات. وليس غريباً حدوث مبارزات ومواجهات فردية بين فرسان من الجانبين، ولكن يلاحظ مبالغات في ذلك، خاصة حين يتعلق الأمر بالقيادات العليا للفريقين، أو بكبار السن ممن يستحيل التصديق بقدرتهم على خوض منازلات تعتمد على القوة الجسدية أساساً. ويلاحظ في روايات نصر تركيز على إظهار بطولات الامام علي، وعمار، ومالك الاشتر بالذات، مقابل تخاذل معاوية وعمرو.

فيما يتعلق بعمرو بن العاص، فقد كان في الثمانينات من عمره، فكيف يعقل ان يبادر الى التصدي بنفسه ليبارز الفرسان؟ ومتى كان عمرو يتصدى ويباشر القتال بنفسه؟ لقد أشار الامام علي مرارا الى حرصه على حياته وعدم مباشرته القتال فقال «فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو، ما لم تأخذ السيوف مآخذها». وهو كان قصير القامة ولم يعرف عنه القوة الجسمانية أو البطولة الفردية، حتى وهو أصغر سنا بكثير.

فهل يعقل انه يتصدى ليبارز مالك الاشتر؟! قال نصر: ان معاوية[3] طلب

(1) الأخبار الطوال للدينوري (ص 179).

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 440 وص 407 وص 460 وص 458 وص 272)، ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج1 ص 127)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص 181)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 61)، ابن كثير في البداية والنهاية (ج7 ص 292)، ابن أبي الفتح الاربلي في كشف الغمة (ج1 ص 295)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص 26)، الاخبار الطوال للدينوري (ص 174).

(3) وجدير بالذكر ان معاوية لم يكن يمارس القتال بنفسه أبداً، ودوره كان دائماً التخطيط والتوجيه والإشراف فقط. بل ان هناك روايات تفيد بأن معاوية كان قد ابتدع نظام الشبيه الذي هو موجود الآن بعض الرؤساء في أيامنا هذه حين يقوم شخص يشبه الرئيس او الزعيم بالمشاركة في مناسبات عامة بدلاً منه، فيراه الناس من بعد ولا يعرفون انه يؤدي الدور المطلوب منه. روى الدينوري في الاخبار الطوال ونصر بن

من مروان بن الحكم ان يخرج في الخيل ليقاتل الاشتر، فرفض مروان لأن معاوية يفضل عمراً عليه، فطلب معاوية من ابن العاص ان يتصدى للأشتر، فوافق وخرج في الخيل فلقيه الاشتر أمام الخيل وهو يرتجز شعراً فعرف عمرو أنه الاشتر، وفشل حيله وجبن، واستحيا أن يرجع، ثم تقدم عمرو نحو الاشتر وهو يرتجز بقوره شعرا اقتطعه فغشيه الاشتر بالرمح فزاغ عنه عمرو، فطعنه الاشتر في وجهه فلم يصنع (الرمح) شيئاً، وثقل عمرو فأمسك (عنان فرسه وجعل يده) على وجهه ورجع راكضا الى العسكر؟

وفي موضع آخر يذكر نصر ان عمرو بن العاص كان يتقدم فوارس للشاميين ويرتجز شعرا، فاعترضه علي وهو يرتجز شعرا يعارضه به ثم طعنه، فصرعه، واتقاه عمرو برجله، فبدت عورته، فصرف علي وجهه عنه! وارتث. فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا. قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه.

ورجع عمرو الى معاوية فقال له: ما صنعت يا عمرو؟ قال: لقيني علي فصرعني. قال: احمد الله وعورتك...!

ويبدو التصنع ظاهرا في هذه الرواية، خاصة حين يسترسل نصر في الحديث عن كلام معاوية لعمرو، وتندره عليه، وقوله شعرا يعيبه به ويمتدح عليا وشجاعته!

بل ان ابن قتيبة في الامامة والسياسة يروي ان مبارزة ابن العاص لعلي كانت عن تصميم وإرادة، وليست عارضة كما في رواية نصر «وذكروا ان عمراً قال لمعاوية: أتجبن عن علي وتتهمني في نصيحتي اليك؟ والله لأبارزن علياً ولو متُّ ألف موتة في أول لقائه.

فبارزه عمرو، فطعنه علي فصرعه، فاتقاه بعورته فانصرف عنه علي، وولى بوجهه دونه».

مزاحم في ولما عجلين اقتتلوا: وكان الفرس معاوية الذي يدعى به حريث مولاه، وكان يلبس بزة معاوية، ويتقلد سلاحه، ويركب فرسه ويحمل فيضها بمعاوية فإذا حمل قال الناس: هذا معاوية.

وكان علي رضي الله عنه لم ينظر قط الى عورة أحد حياء وتكرماً وتنزهاً عما لا يحل ولا يجمل بمثله، رضي الله عنه»

ولا بد من ملاحظة التناقض الصارخ في هذه الرواية بين حماسة عمرو وتصلّبه، وبين احتمائه بعورته!

ومن ذلك ما رواه نصر بن مزاحم من مبارزة بسر بن أرطأة لعلي نفسه. فقد روي أن معاوية اقترح على بسر أن يخرج ليبارز علياً فوافق بعد كلام كثير

«فاستقبله بسر قريباً من التل، وهو مقنع في الحديد لا يعرف. فناداه: ابرز اليّ أبا حسن. فانحدر اليه علي تؤدة غير مكترث. حتى اذا قاربه طعنه وهو دارع. فألقاه على الأرض. ومنع الدرع السنان أن يصل اليه، فاتقاه بسر (بعورته) وقصد أن يكشفها، يستدفع بأسه. فانصرف عنه علي عليه السلام مستدبراً له. فعرفه الأشتر حين سقط، فقال: يا أمير المؤمنين هذا بسر بن أرطأة عدو الله وعدوك. فقال: دعه عليه لعنة الله، أبعد أن فعلها؟»

وبالاضافة الى مبارزته عمرو بن العاص وبسر بن أرطأة وفرارهما منه بعد كشف عورتيهما، يروي نصر بن مزاحم ان علياً بارز بنفسه، وقتل، عدداً آخر من فرسان أهل الشام، منهم حريث مولى معاوية، وكريب بن الصباح الحميري، وابو داود عروة بن داود الدمشقي، وابن عم ابي داود.

ورغم انه لا شك مطلقاً بقدرات أمير المؤمنين علي في ميدان الحرب، وبطولته وقوته وقدرته على الانتصار في البراز، إلاّ أنه من اليسير الشك في هذه المبارزات المنسوبة له يوم صفين، فهو كان وقتها القائد الأعلى لجيوش العراق ولذلك فمن غير المنطقي أن يترك شؤون القيادة والتوجيه وينخرط شخصياً في مبارزات مع أشخاص من جيش الشام.

ومما يؤيد هذا التحليل موقفٌ سابقٌ لأمير المؤمنين علي عندما استشاره الخليفة عمر بن الخطاب بشأن الخروج الى غزو الروم بنفسه:

«إنك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم بشخصك فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون اليه. فابعث

إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة فإن أظهر الله فذلك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين»[1]

فهو هنا يقول لعمر ان منصب القائد الأعلى للجيوش أهم وأسمى من مباشرة الحرب والقتال بنفسه. فالقائد ينبغي أن يكون موجهاً لجنوده ومرجعاً لهم، مما يحمله مسؤولية تحول بينه وبين الانخراط في العمل الميداني بنفسه.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب:

«وكان بسر بن أرطاة من الأبطال الطغاة، وكان مع معاوية بصفين، فأمره أن يلقى علياً في القتال. وقال له: سمعتك تتمنى لقاءه فلو أظفرك الله به وصرعته، حصلت على دنيا وآخرة. ولم يزل به يشجعه ويمنيه حتى رآه، فقصده في الحرب فالتقيا، فصرعه علي رضوان الله عليه، وعرض له معه مثل ما عرض فيما ذكروا لعلي رضي الله عنه لعمرو.

ذكر الكلبي في كتابه في أخبار صفين أن بسر بن أرطاة بارز علياً رضي الله عنه يوم صفين، فطعنه علي رضي الله عنه فصرعه فانكشف له، فكف عنه، كما عرض له فيما ذكروا مع عمرو بن العاص، ولهم فيها أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب، منها فيما ذكر ابن الكلبي والمدائني قول الحارث بن النضر السهمي.

قال ابن الكلبي: وكان عدواً لعمرو وبسر:

أفي كل يوم فارس ليس ينتهي ... وعورته وسط العجاجة بادية

يكف لها عنه عليٌ سنانه ... ويضحك منه في الخلاء معاويه

بدت أمس من عمرو فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيه

فقولا لعمرو ثم بسر: ألا انظرا ... سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيه

ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقيه

ولولاهما لم تنجوا من سنانه ... وتلك بما فيها عن العَود ناهيه

---

(١) نهج البلاغة بشرح محمد عبده

متى تلقيا الخيلَ المشيحة صُبحة   وفيها عليٌّ فاتركا الخيلَ ناحيه

وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القنا   نحوركما إن التجارب كافيه

قال أبو عمر: إنما كان انصراف علي رضي الله عنه عنهما وعن أمثالهما من مصروع ومنهزم، لأنه كان يرى في قتال الباغين عليه من المسلمين ألاّ يُتبع مدبرٌ ولا يُجهز على جريح ولا يُقتل أسير. وتلك كانت سيرته في حروبه في الاسلام رضي الله عنه»

وقال العلامة ابن كثير في البداية والنهاية «وقد ذكر علماء التاريخ وغيرهم ان عليا رضي الله عنه بارز في ايام صفين وقاتل وقتل خلقا، حتى ذكر بعضهم انه قتل خمسمائة. فمن ذلك ان كريب بن الصباح قتل اربعة من اهل العراق ثم وضعهم تحت قدميه ثم نادى: هل من مبارز؟ فبرز اليه علي فتجاولا ساعة ثم ضربه علي فقتله ثم قال علي: هل من مبارز؟ فبرز اليه الحارث بن وداعة الحميري فقتله. ثم برز اليه المطاع بن المطلب القيسي فقتله. ثم تلا علي قوله تعالى ﴿والحرمات قصاص﴾.

ثم نادى ويحك يا معاوية ! ابرز الي ولا تفن العرب بيني وبينك!

فقال له عمرو بن العاص: اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الاربعة.

فقال له معاوية: والله لقد علمت ان عليا لم يقهر قط. وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي. اذهب اليك فليس مثلي يخدع

وذكروا ان عليا حمل على عمرو بن العاص يوما لضربه بالرمح فألقاه الى الارض فبدت سوأته فرجع عنه. فقال له اصحابه: مالك يا امير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال: أتدرون ما هو؟ قالوا: لا! قال: هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوأته فذكرني بالرحم فرجعت عنه. فلما رجع عمرو الى معاوية قال له: احمد الله واستك»[1]

وفي المصادر الشيعية يظهر دور الامام علي في مباشرة القتال بنفسه أكبر

---

(1) وهذه الرواية، بكل ما فيها، لا يمكن تصديقها. بل هي تندرج في اطار الروايات العدائية المحبكة والهادفة الى الحط من قدر معاوية وعمرو بن العاص وإظهارهما بمظهر الجبن والتخاذل.

من ذلك بكثير. وهذا مثال من مبالغات الروايات القبيحة: يروي ابن ابي الفتح الاربلي في كشف الغمة ان الامام عليه السلام قد باشرها بنفسه، فكم قتل من رجالها وأردى من فرسانها، وكم أنحى على كتيبة فما عاد إلاّ بعد تمزيق جمعها وهدّ أركانها..... وأسهر المؤمنين فارس ذلك الجمع وأسده وإمامه ومولاه ووليه، وهادي من اتبعه ومرشده يعثر كالفحل ويزأر كالأسد..... فما لقي شجاعاً إلاّ وأراق دمه، ولا بطلاً إلاّ وزلزل قدمه، ولا مريداً إلاّ وأعدمه ولا قاسطاً إلاّ قصر عمره..... وكان كلما قتل فارساً أعلن بالتكبير، فأحصيت تكبيراته ليلة الهرير فكانت خمسمائة وثلاثاً وعشرين تكبيرة بخمسمائة وثلاث وعشرين قتيلاً من أصحاب السعير. وقيل: إنه في تلك الليلة فتق نيفق درعه لثقل ما كان يسيل من الدم على ذراعه، وقيل إن قتلاه عرفوا في النهار فإن ضرباته كانت على وتيرة واحدة، إن ضرب طولاً قدّ أو عرضاً قطّ، وكانت كأنها مكواة بالنار.

ومن تلك الاخبار التي لا بد من ردها ما ذكره ابن سعد في طبقاته عن ابي وزين مولى عمار بن ياسر وعبيد الله بن عمر. فقال عبيد الله: أنا الطيب بن الطيب، فقال له عمار: أنت الخبيث بن الطيب. فقتله عمار.

فعمار بن ياسر كان يقترب من التسعين من عمره، فهل يعقل انه قادر على مباشرة القتال بنفسه؟ وهل يعقل انه يتغلب على رجل شرس يصغره بما يزيد على اربعين عاماً؟

وقد أشار ابن سعد نفسه الى الشك في صحة هذا الخبر، فقال ان هناك من يقول ان عبيد الله قتله رجل من الحضارمة، أو رجل من همدان، أو من ربيعة أو من بني حنيفة.

قتالُ ليلة الهرير[1]

وتصاعدت حدة القتال إلى أن وصلت إلى المواجهة الشاملة والالتحام الكلي بين الجيشين:

---

(1) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص242 - 263)، ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج1 ص 144)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 179 وص183 - 184)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص 302)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص290)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج1 ص205 وص 244 وص290)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج3 ص184).

وإن علياً رضي الله عنه أشاع أنه يخرج إلى أهل الشام بجميع الناس، فيقاتلهم حتى يحكم الله بينه وبينهم.

ففرح الناس لذلك فرحاً شديداً، وقالوا: إنما كنا إلى اليوم نخرج الكتيبة إلى حيالها، فيقتتلون بين الصفين، فإن التقينا بجميع الفريقين فهو إذاً فناء العرب.

وقام عليّ في الناس خطيباً فقال: ألا إنكم ملاقو القوم غداً بجميع الناس. فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا قراءة القرآن، وسلوا الله الصبر والنصر، والقوهم بالجد[1]

وبدوره خطب معاوية بجنوده «... يا أهل الشام: فإنما تلقون غداً العدو فكونوا على إحدى ثلاث خلال:

إما قوماً تطلبون ما عند الله بقتالكم قوماً بغوا عليكم

وإما قوماً تطلبون بدم الخليفة عثمان، فإنه خليفتكم وصهر نبيكم

وإما قوماً تدافعون عن نسائكم وذراريكم...»[2]

وكانت الذروة في ما يعرف بليلة الهرير:

فكانت ليلة الجمعة: تقصفت الرماح ونفدت النبال، وصار الناس إلى السيوف.

وعليّ رضي الله عنه يحرض القبائل، ويتقدم عليهم يأمر بالصبر والثبات وهو أمام الناس في قلب الجيش، وعلى الميمنة الأشتر تولاها بعد قتل عبد الله بن بديل عشية الخميس ليلة الجمعة – وعلى الميسرة ابن عباس، والناس يقتتلون من كل جانب.

فذكر غير واحد من علمائنا علماء السير- أنهم اقتتلوا بالرماح حتى تقصفت، وبالنبال حتى فنيت وبالسيوف حتى تحطمت. ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب في الوجوه، وتعاضوا بالأسنان

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري

(2) كتاب الثقات لابن حبان. ورأيي أن كلام معاوية هنا في منتهى الذكاء والتوفيق. هو يخاطب جنوده وأهل الشام بمنطق سليم مقنع!

يقتتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما يهمر على الآخر ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا ....

ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك. وصلى الناس الصبح إيماءً وهم في القتال حتى تضاحى النهار...»[1].

وقد وصف ابن قتيبة قتال ليلة الهرير «ثم اقتتلوا حتى تكسرت الرماح، وتقطعت السيوف وأظلمت الأرض من القتام وأصابهم البهر[2]، وبقي بعضهم ينظر إلى بعض بهيراً........»[3]

وقد وصف الدينوري في الأخبار الطوال دور علي شخصياً في قتال ليلة الهرير فقال: «وكان علي رضي الله عنه ليلتمس في الفرج ليضرب بسيفه حتى ينثني ثم يخرج متخضباً بالدم حتى يسوى له سيفه، ثم يرجع فيلتمس بهم؟ وأصابه ثلاث في اليوم التالي وحمل عليّ بنفسه على أهل الشام حتى غاب فيهم فانصرف متخضباً بالدماء، فلم يزالوا كذلك يومهم كله والليل حتى مضى ثلثه. وجرح عليّ خمس جراحات: ثلاث في رأسه واثنتان في وجهه»[4]

وهذا وصفٌ آخر معبّر لقتال ليلة الهرير وشراسته «وكانت الفرسان في الركب فاصطفقوا بالسيوف وارتفع الرهج وثار القتام وتضعضعت الرايات وعطّلت الألوية وغابت الشمس وذهبت مواقيت الصلاة حتى ما كان في الفريقين أحدٌ يصلي ذلك اليوم ولا سجد سجدة لله ولا كانت الصلاة إلا بالتكبير والإيماء نحو القبلة. وهجم عليهم الليل واشتدت الحرب، وعلى ليلة الهرير، فجعل بعضهم يغير على بعض ويقتل بعضهم بعضاً.. وجعل علي رضي الله عنه يقف ساعة بعد ساعة ويرفع رأسه إلى السماء وهو يقول: اللهم

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير
(2) القتام هو الغبار والبهر هو انقطاع النفس أو تتابعه من الإعياء
(3) الإمامة والسياسة لابن قتيبة
(4) ورغم أنني لا أشك في بطولة عليّ في ساحات الوغى وشجاعته وبسالته، إلا أنني لا أستطيع قبول هذه الرواية التي يظهر فيها عليّ وقد انخرط بشخصه ليباشر القتال في المعركة. لقد كان القائد الأعلى للجيش، الخليفة، وكان يملك من الحكمة ما يجعله يعرف أن دوره في هذه المرحلة هو الإشراف والتوجيه واتخاذ القرارات، لا الانغماس في القتال لما في ذلك من خطر على المصلحة العليا.

إليك نقلت الأقدام وإليك أفضت القلوب ورفعت الأيدي ومُدّت الأعناق وطلبت الحوائج وشخصت الأبصار. اللهم افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. ثم إنه حمل في سواد الليل وحملت الناس معه»[1]

قال هشام جعيط بشأن قتال ليلة الهرير:

«كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية. وإنهم لحديثو عهد بها، فاندمجوا في الإسلام وفيهم بقايا تلك الحمية (الغضب في القتال لأجل العرض والدم)، وعند بعضهم بصيرة الدين والإسلام.

لقد صبروا واستحيوا من الفرار حتى كانت العرب تبيّنهم إذ تدفعهم الحمية والأحساب والدين. كانت المعركات المستبطنة في كل رجل، لمعركة حضارية عنيفة، لا يمكنها أن تؤدي إلى غالب أو مغلوب. إنها معركة أبطال، حيث لم يكن أحدٌ يظهر استعداده للتراجع ولو لبرهة، وحيث كان كل واحد يضع حياته في الميزان، وحيث كانت تتضافر خصال المروءة والإسلام الفاضلة الكبرى.

إن الحماس الشديد والمتناوبة في المعارك، باسم الدين، كانا فقط وقفاً على القلة. وإن السواد الأعظم من المقاتلين انتظر في نهاية المطاف أن ينهل من قيم الشرف والعرض في الجاهلية، التي غطتها الإسلام إذ يمضي العصر في رقعة صفين تظهر الرجوع إلى الأجداد بالأحساب وهو مفهوم يخالط فيه النسب واللقب والشرف بطريقة غامضة. يتعلق الأمر بتراجع ونكوص بالنسبة إلى الروح الإسلامية. لكنهم وصلوا إلى تلك الحدة»[2]

والنص التالي يوضح كيف اضطر أبناء القبيلة الواحدة الموزعين على الجانبين، إلى الاقتتال فيما بينهم:

«إن عبد الله بن حنش الخثعمي، رأس خثعم الشام، أرسل إلى أبي كعب الخثعمي، رأس خثعم العراق: إن شئت تواقفنا فلم نقتتل. فإن ظهر صاحبكم كنا معكم وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا. ولا نقتل بعضنا بعضاً.

---

(1) كتاب الفتوح لابن أعثم
(2) الفتنة لهشام جعيط (ص 205)

فأبى أبو كعب ذلك.

فلما التقت خثعم وخثعم وزحف الناس بعضهم إلى بعض، قال عبد الله بن حنش لقومه: يا معشر خثعم ! إنا قد عرضنا على قومنا من أهل العراق المراجعة، صلة لأرحامها، وحفظاً لحقها، فأبوا إلا قتالنا. وقد بدأونا بالقطيعة، فكفوا أيديكم عنهم حفظاً لحقهم أبداً ما كفوا عنكم. فإن قاتلوكم فقاتلوهم.

فخرج رجل من أصحابه فقال: إنهم قد ردوا عليك رأيك، وأقبلوا إليك يقاتلونك.

ثم برز. فنادى رجل: يا أهل العراق!

فغضب عبد الله بن حنش فقال: اللهم قيض له وهب بن مسعود – يعني رجلاً من خثعم الكوفة، كان شجاعاً يعرفونه في الجاهلية، لم يبارزه رجل قط إلا قتله– فخرج إليه وهب بن مسعود، فقتله.

ثم اضطربوا ساعة، واقتتلوا أشد القتال.

فجعل أبو كعب يقول لأصحابه: يا معشر خثعم ! خدموا (أي اضربوا موضع الخدمة، وهي الخلخال، يعني اضربوهم في سوقهم).

فناداه عبد الله بن حنش: يا أبا كعب! الكل قومك فأنصف.

قال: إي والله وأعظم.

واشتد قتالهم.

فحمل شمر بن عبد الله الخثعمي من خثعم الشام على أبي كعب فطعنه فقتله. ثم انصرف يبكي ويقول: يرحمك الله أبا كعب! لقد قتلتك في طاعة قوم لأنت أمس بي رحماً منهم، وأحب إلي منهم نفساً.

ولا أرى قريشاً إلا ولقد لعبت بنا.

ووثب كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه، فأخذها. ففقئت عينه وصرع.

ثم أخذها شريح بن مالك الخثعمي، فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلاً، وأصيب من خثعم الشام مثلهم"[1]

وأورد نصر بن مزاحم نماذجاً كثيرة من أشخاص من الجانبين اضطروا إلى مبارزة أو مواجهة إخوان لهم أو أبناء عم أو أقرباء غير بعيدين، وروى كيف كان البعض منهم يتراجعون في اللحظة الأخيرة، بينما مضى آخرون إلى النهاية وقتلوا بعضهم البعض. وفيما يلي نص يوضح مشاعر قبيلة الأزد العراقية لما وجدت نفسها في مواجهة قبيلة الأزد الشامية، كما عبر عنها مخنف بن سليم:

"إن من الخطب الجليل والبلاء العظيم أنا صُرفنا إلى قومنا وصُرفوا إلينا. والله ما هي إلا أيدينا نقطعها بأيدينا، وما هي إلا أجنحتنا نحذفها بأسيافنا. فإن نحن لم نفعل، لم نناصح صاحبنا، ولم نواس جماعتنا. وإن نحن فعلنا فعزّنا أبحنا ونارنا أخمدنا"[2]

ويمكن بكل يسر فهم أسباب تلك الحيرة المأساوية في كلام مخنف، فإن هم مضوا في المواجهة قتلوا إخوانهم وأقرباءهم، وإن هم نكصوا يكونوا قد خانوا إمامهم وقادتهم!

والنتيجة كانت أنهم اضطروا للقتال، وذكر نصر أسماء عدد من ضحايا تلك المواجهة بين جناحي قبيلة الأزد.

وهكذا كان القتال في ذلك اليوم شرساً، وقاسياً، ومأساوياً. والصورة التي أوردها ابن أبي الحديد حول الرجل الخثعمي الذي يقتل قريبه من أهل العراق ثم ينصرف وهو يبكي حزناً عليه، حقيقية بلا شك، وربما تكررت كثيراً في ذلك اليوم.

ورغم ذلك كله فإن تصميم عليّ على مواصلة القتال لم يتزعزع، وإرادته لم تضعف:

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وقد أورد العلامة ابن أبي الحديد في الجزء الخامس من كتابه الكبير المزيد عن نعرات القبائل العربية لبعضها أثناء المعركة، يمكن لمن شاء الرجوع إليها.

(2) وقعة صفين لنصر بن مزاحم

ثم إن علياً قام من صبيحة ليلة الهرير في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! إنه قد بلغ بكم وبعدوكم الأمر إلى ما ترون. ولم يبق من القوم إلا آخر نفس. فتأهبوا رحمكم الله لمناجزة عدوكم غداً، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. وهو خير الحاكمين"[1]

روايات فرار معاوية[2]

قال نصر بن مزاحم في (وقعة صفين) في رواية عن ابن اسحق: وأصبح عليّ فرحل الناس وهو يريد أن ينزل على أهل الشام في معسكرهم. فقال معاوية: فأخذتُ معرفة فرسي، ووضعتُ رجلي في الركاب، حتى ذكرتُ أبيات عمرو بن الاطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

فعدتُ الى مقعدي فأصبتُ خير الدنيا»

وأكد هذه الرواية الامام الذهبي الذي روى في سير اعلام النبلاء عن أبي حاتم السجستاني: قال معاوية: لقد وضعتُ رجلي في الركاب وهممتُ يوم صفين بالهزيمة فما منعني إلا قول ابن الاطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وإكراهي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي»

وروى اليعقوبي في تاريخه: وزحف أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فقال له

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4: ص4 وص 9 وص31-37)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص105)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص393)، ابن قتيبة في الإمامة والسياسة (ج1 ص101)، الأخبار الطوال للدينوري (ص187-183-184)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص291)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص142)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج3 ص95)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص188).

عمرو بن العاص: الى اين؟ قال: قد نزل ما ترى، فما عندك؟ قال: لم يبق إلا حيلة واحدة: أن ترفع المصاحف، فتدعوهم الى ما فيها، فستكفهم وتكسر من حدهم، وتفت في أعضادهم. قال معاوية: فشأنك. فرفعوا المصاحف...»

وبالرجوع الى ما رواه الدينوري في الاخبار الطوال يمكن ملاحظة ثلاث مرات ورد فيها كلام عن ظروف كاسح حققه جيش العراق بقيادة علي الى درجة دفعت معاوية الى التفكير بالهرب: مرتان منها تذكر ان معاوية (دعا بفرسه ليركبها) ومرة تقول انه (أخلى سرادقه)!! وانه كان يغير رأيه في آخر لحظة.

وروى البلاذري عن الزهري «فلما خاف أهل الشام ظهور القوم عليهم قال عمرو لمعاوية – وهو على القتال: هل انت مطيع في أمر تسير به؟ مُرْ رجلا فلينشر المصحف ثم يقول: يا اهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله..»

وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد «لما كان يوم الهرير، وهو أعظم يوم بصفين، زحف أهل العراق على أهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم، حتى انتهوا الى سرادق معاوية، فدعا بالفرس وهمّ بالهزيمة، ثم التفت الى عمرو بن العاص وقال له: ما عندك؟ قال: تأمر بالمصاحف فترفع في أطراف الرماح، ويقال: هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم»

كانت تلك بعض الروايات التي تصوّر معاوية وهو على وشك الفرار من الميدان بسبب الهزيمة الساحقة لفرقه، وهناك المزيد منها. ولكن التعمق في الموضوع اكثر وتتبع الكثير من الروايات المشهورة التي تتناول سير القتال في صفين، يجعلنا نخرج برأي مغاير ونشير الى أن الجيش العراقي هو الذي عانى من ضغط عسكري أشد. فمثلا يروي الطبري في تاريخه عن ابي مخنف أن ميمنة الجيش العراقي، وهي مكونة أساسا من قبائل همدان وغيرها من اليمانية، قد انهزمت أمام ضغط الجيش الشامي، وأن الامام علي – ومعه بنوه – اضطر الى اللجوء الى ميسرته – المكونة من قبائل ربيعة – بعد ان اصبح وضعه صعبا. وتذكر الرواية ان عليا طلب من مالك الاشتر – كونه يمانيا – ان يلحق بالفارين ليردّهم فيقول لهم «اين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه، الى الحياة التي لن تبقى لكم». فلما وصل علي الى قبائل ربيعة

ارتفعت معنوياتها واستثيرت حميتها وأخذ رجالها يقولون لئن أصيب علي فيكم ولد لجأ إلى رايتكم لتفضحتم... "لا عذر لكم في العرب إن وصل إلى عليٍّ وفيكم رجلٌ حيٌّ، وإن منعتموه لمجد الحياة اكتسبتموه" فقاتلت ربيعة قتالاً شديداً واستبسلت حتى أزالت الخطر، وإن ذلك سرّ عليًّا حتى إنه وصف رايات ربيعة بأنها "رايات الله". وتقول الرواية إنه لما عاد المنهزمون اليمانيون إلى ميمنة علي واستأنفوا القتال بقوة، لامهم وقال لهم: "قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم وعمار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكركم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولي يوم الزحف دبره وكنتم من الهالكين.."

وروى ابن كثير في البداية والنهاية قريباً من هذه الرواية: قال ابن لهيعة إنه بعد حملة أهل الشام بقيادة حبيب بن مسلمة "..ولم يبق مع علي من تلك القبائل إلا أهل مكة وعليهم سهل بن حنيف. وثبتت ربيعة مع علي رضي الله عنه، واقترب أهل الشام منه حتى جعلت نبالهم تصل إليه.." ثم يذكر قيام علي بالطلب من الأشتر أن يلحق بالمنهزمين ليرجعهم، ففعل، حتى أعاد تجميعهم.

وكذلك روى الطبري عن أبي مخنف أن حامل راية علي، هاشم بن عتبة المرقال، قال عن قوات الشام في خطبة له وهو يحمّس جنوده "لا يهولنّكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون فيهم إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها، وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق..."

وظاهرٌ من الكلام مدى المعاناة التي واجهها العراقيون من قوة وثبات جيش الشام.

وروى الطبري من طريق أبي مخنف أيضاً "فلما كان اليوم الخامس خرج عبد الله بن عباس والوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن عباس من الوليد بن عقبة فأخذ الوليد يسب بني عبد المطلب وأخذ يقول: يا ابن عباس، قطعتم أرحامكم وقتلتم إمامكم، فكيف رأيتم الله صنع بكم؟ لم تعطوا ما طلبتم ولم تدركوا ما أملتم والله إن شاء مهلككم وناصرٌ عليكم"

وجدير بالملاحظة قول الوليد بن عقبة بن ابي معيط (فكيف وأيم الله صنع بكم). فهنا لا يصدر عمن هو مهزوم في الميدان.

ويمكن الاشارة ايضا الى ما ورد على لسان النعمان بن بشير الانصاري في معرض لومه من الانصار بسبب تأييدهم المتواصل لعلي. فقد روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة ان النعمان قال لقيس بن سعد وهما بين الصفوف في صفين «... لقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم، غير أنكاس عن حربكم، ثم لم ينزل بعلي أمر قط إلاّ هونتم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر، وقد والله أخلفتموه، وهان عليكم بأسكم وما كنتم لتخلوا به أنفسكم من شدتكم في الحرب، وجرأتكم على عدوكم، وقد أصبحتم أذلاء على أهل الشام، لا يرون حربكم شيئاً وأنتم أكثر منهم عدداً وعُدداً، وقد والله كاثروكم بالقلة، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة؟ والله لا تزالون أذلاء في الحرب بعدها أبداً، إلاّ أن يكون معكم أهل الشام، وقد أخلت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم، ونحن أحسن بقية وأقرب إلى الظفر، فاتقوا الله في البقية...»

والخلاصة ان الروايات التي تتحدث عن أن معاوية كان على وشك الفرار وركوب فرسه، ليست صحيحة.

عدد القتلى في معركة صفين[1]

ذكرت اغلبية المصادر أن قتلى معركة صفين كانوا سبعين ألفا، منهم 45 ألفا من أهل الشام و25 ألفا من أهل العراق

والجدول التالي به مقارنة بين الارقام الواردة في عدة مصادر بشأن عدد قتلى الطرفين:

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ خليفة بن خياط (ص194). التنبيه والإشراف للمسعودي (ص256). نصر بن مزاحم في وقعة صفين (ص558)، ابن حبان في كتاب الثقات (ج2 ص297)، ابن كثير في البداية والنهاية (ج7 ص304)، تاريخ الطبري (ج4 ص45)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص178)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص98).

المصدر	قتلى الجيش العراقي	قتلى جيش الشام
تاريخ خليفة بن خياط	٢٥ ألف	٤٥ ألف
البداية والنهاية لابن كثير:		
- عن البيهقي	٤٠ ألف	٢٠ ألف
- عن ابن معين ويوسف	٢٥ ألف	٤٥ ألف
التنبيه والاشراف للمسعودي	٢٥ ألف	٤٥ ألف
وقعة صفين لنصر بن مزاحم	٢٥ ألف	٤٥ ألف
انساب الاشراف للبلاذري (قالوا)	٢٥ ألف	٤٥ ألف
كتاب الثقات لابن حبان (قيل)	٢٥ ألف	٤٥ ألف

وتبدو هذه الأرقام التي أوردتها اغلبية المصادر غير دقيقة، ومأخوذة من راوٍ واحد يميل إلى تضخيم خسائر الجانب الشامي. والأرجح أن يكون العدد الإجمالي للقتلى هو بحدود السبعين ألفا من الجانبين، وموزعين بالتساوي تقريبا بينهما. وأستبعد تماما أن تكون خسائر الجانب الشامي أكبر بكثير من خسائر العراقيين، كما توحي بذلك نسبة 45:25

ولم أعثر على روايات تتحدث عن الآثار الاجتماعية لذلك العدد الكبير من القتلى في الجانب الشامي. فسقوط 45 ألف قتيل من شأنه ولا شك أن يؤدي الى الكثير من العواقب البالغة التأثير على المجتمع الشامي بأسره: العائلات، القبائل، الأيتام الأرامل .... الخ ناهيك عن الجرحى والمعوقين وغير ذلك من المآسي. ومهما كان معاوية مقنعا في محببه أمام عامة أفراد جيشه ورعيته، ومهما بذل من جهد لتأليف زعماء العشائر ووجهاء الناس، فلا بد أن يولد ذلك العدد الكبير نوعا من المعارضة للسياسة التي أدت الى تلك الخسارة، ولا بد ان تظهر تلك المعارضة بوجه معاوية مهما كان حاذقا.

وفي المقابل، توجد عدة روايات تتحدث عن حالات الحقد والحزن والبكاء على القتلى في الجانب العراقي. فمثلا يروي الطبري في تاريخه عن أبي

مخنف أن عليا لما رجع من صفين مرّ عليّ بالثوريين فسمع البكاء فقال: ما هذه الاصوات؟ فقيل له: هذا البكاء على قتلى صفين. فقال: أما اني أشهد لمن قتل منهم صابرا محتسبا بالشهادة. ثم مرّ بالفائشيين فسمع الاصوات فقال مثل ذلك ثم مضى حتى مرّ بالشباميين فسمع رجة شديدة فوقف فخرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي. فقال علي: أيغلبكم نساؤكم؟ ألا تنهونهن عن هذا الرنين؟ فقال: يا أمير المؤمنين: لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثا قدرنا على ذلك، ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل، فليس دار إلاّ وفيها بكاء ...».

وذكر ابن خلدون في تاريخه ان عليا لما رجع من صفين ادخل الكوفة، فسمع رجة البكاء في الدور. فقال: يبكين على القتلى. فترحم لهم!

ويمكن اعتبار ما ذكره ابن كثير حول زيادة نسبة خسائر الجانب العراقي عن الشامي رواية شاذة بالنظر الى كثرة الروايات المعاكسة، لكنها تبدو لي اقرب للصواب.

اذن وصلت حمى القتل إلى ذروتها، وبلغ جنون الموت حدّه الأقصى. فأرقام الخسائر هنا هائلة ومذهلة بكل المقاييس. وحتى لو لم يصل العدد الحقيقي للقتلى إلى مائة ألف، أو سبعين ألف، وحتى لو كان العدد أربعين الفاً أو ثلاثين، فذلك لا يغير من حقيقة أن الأمر تحوّل إلى مقتلة رهيبة يمارسها أبناء قبائل العرب بحق بعضهم بعضاً.

وللمقارنة فقط، لا بدّ من تذكر أن رسول الله(ص) في حروبه وغزواته على مدى إحدى عشر عاماً، وحّد خلالها أمة العرب كلها، لم يفقد من أتباعه وأنصاره سوى بضع مئات! ولو أضيف إليهم عدد القتلى من اعدائه أيضاً فربما يصل العدد الإجمالي للقتلى في حروب الرسول(ص) إلى بضعة آلاف في أعلى تقدير.

وها هي أمة العرب تفقد خلال أيام معدودة عشرات الآلاف من ابنائها في قتالٍ داخليّ رهيب.

بل إنه ربما لم تفقد أمة العرب خلال حروبها التي هزمت فيها امبراطوريتي فارس والرومان على مدى سنوات طويلة مثل هذا العدد من القتلى.

كان الأمر رهيباً، والمأساة فظيعة. فكان لا بد أن يحدث شيء ليوقف هذا النزف.

وحصل ذلك بالفعل، ولكن على حساب عليّ بالذات!

الجيش الشامي يدعو إلى السلم: «يا أبا الحسن! مَن لثغورنا من الروم إن فنينا»[1]

هناك إجماع بين المؤرخين على أنه لما احتدم القتال وتساقط القتلى بعشرات الألوف، أمر معاوية وعمرو بن العاص جنودهما برفع المصاحف على رؤوس الرماح والصراخ على أهل العراق مطالبين بوقف القتال وبتحكيم كتاب الله بين الطرفين.

وهذه رواية اليعقوبي:

«وزحف أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، حتى دعا معاوية بفرسه لينجو به.

فقال له عمرو بن العاص: إلى أين؟

قال: قد نزل ما ترى. فما عندك؟

قال: لم يبق إلاّ حيلة واحدة: أن ترفع المصاحف فتدعوهم إلى ما فيها، فتستكفهم وتكسر من حدتهم وتفتّ في أعضادهم.

قال معاوية: فشأنك.

فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم فيها بعد. وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله!»

وهذه رواية ابن كثير:

«وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص34)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص110)، ابن قتيبة في الإمامة والسياسة (ج1 ص144)، الأخبار الطوال للدينوري (ص192)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص272).

وذلك أن الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة، فحمل بمن فيها على أهل الشام وتبعه عليّ، فتقضقضت غالب صفوفهم وكادوا ينهزمون، وعند ذلك رفع أهلُ الشام المصاحفَ فوق الرماح وقالوا: هذا بيننا وبينكم، قد فني الناس فمن للثغور؟ ....

إن الذي أشار بهذا هو عمرو بن العاص، وذلك لما رأى أن أهل العراق قد استظهروا في ذلك الموقف... فقال إلى معاوية: إني قد رأيتُ أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلاّ اجتماعاً ولا يزيدهم إلاّ فرقة!

أرى أن نرفع المصاحف وندعوهم إليها، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك برد القتال، وإن اختلفوا فيما بينهم فمن قائل نجيبهم وقائل لا نجيبهم فشلوا وذهب ريحهم...»

وروى الدينوري في الأخبار الطوال:

«... وبلغ ذلك معاوية، فقال لعمرو: ما ترى؟ فإنما هو يومنا هذا وليلتنا هذه. فقال عمرو: إني قد أعددتُ بحيلتي أمراً أخرته إلى هذا اليوم، فإن قبلوه اختلفوا وإن ردوه تفرقوا، قال معاوية: فما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك.

قالوا: وإن الأشعث بن قيس قال لقومه وقد اجتمعوا إليه: قد رأيتم ما كان في اليوم الماضي من الحرب المبيرة. وإنا والله إن التقينا غداً إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات.

قالوا: فانطلقت العيون إلى معاوية بكلام الأشعث، فقال: صدق الأشعث، لئن التقينا غداً ليميلنّ الروم على ذراري أهل الشام، وليميلن دهاقين فارس على ذراري أهل العراق، وما يُبصر هذا الأمرَ إلاّ ذوو الأحلام. اربطوا المصاحف على أطراف القنا....

فنادوا: يا معشر العرب! الله الله في نسائكم وبناتكم من فارس والروم غداً. فقد فنيتم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم!

وفي رواية الإمامة والسياسة أن معاوية أمر أهل الشام أن ينادوهم، فنادوا

في سواد الليل نادى معه صراخ واستغاثة، يقولون: يا أبا الحسن! من للذرارينا من الروم إن تفانينا؟ الله الله! البقيا! كتاب الله بيننا وبينكم!

وفي رواية الطبري أن عمرو بن العاص قال لمعاوية "ترفع المصاحف ثم تقول ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن نقبل. فتكون فرقة. وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل"

وليس هناك من فكرة يمكن أن تكون أكثر ذكاء ودهاء من هذه. فبهذه الدعوة العلنية إلى السلام يضرب معاوية عدة عصافير بحجر واحد:

فهو أولاً يسعى إلى المحافظة على جيشه وقواته، ودرء خطر الإبادة عنها.

وهو يسعى إلى الظهور أمام عامة المسلمين، من الجانبين الشامي والعراقي، بمظهر الداعي إلى السلام والحريص على تجنب الفناء المتبادل بين أبناء أمة العرب.

وهو يهدف إلى زرع بذور الشقاق داخل صفوف الجانب العراقي، عن طريق خلق خلاف بين من تعبوا من هول المعركة وكثرة القتل، وبين من يعطون الأولوية لإنجاز المهمة التي خرجوا أساساً من أجلها وهي إلحاق الهزيمة بمعاوية وجيشه.

وهو أخيراً يسعى إلى حشر علي في زاوية ضيقة إن هو أصر على مواصلة الضغط العسكري والاستمرار في الحرب. فكيف سيفسر شخصٌ مثل عليّ لقواته وجنوده رفضه قبول عرض لتحكيم "كتاب الله"؟! ألن يظهر عليّ حينذاك بمظهر اللامبالي بمصلحة عامة المسلمين، الرافض لحكم القرآن، المصمم على مواصلة طريق الموت والفناء؟!

اذن لا خلاف على ان المبادرة الى رفع المصاحف جاءت من الجانب الشامي. ولكن هل كان ذلك مؤشر ضعف وهزيمة؟؟ تحاول المصادر ان تقول ذلك، ولكن الصحيح هو: كلا. لم يكن ذلك تفادياً من الهزيمة. بل اني مقتنع، بعد دراسة وتحليل كل الروايات والاخبار، ان الوضعية العسكرية للجيش الشامي لم تكن أسوأ من الجيش العراقي، بل ربما كانت افضل قليلا.

وقفة: الأشعث بن قيس الكندي[1]

يتردد اسمه كثيرا جدا في ثنايا سيرة الإمام عليّ في العراق. وقد لعب دورا في منتهى السلبية تجاه عليّ قبيل وأثناء وبعد معركة صفين. والمدقق في تفاصيل علاقته بالإمام عليّ سيرى فيها شبهاً كبيرا بسيرة عبد الله بن أبي بن سلول تجاه النبي (ص) في المدينة.

فمن المفيد إلقاء الضوء على شخصية الأشعث بن قيس، زعيم قبيلة كندة ورأس القبائل اليمانية في العراق.

ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمته أنه كان في الجاهلية رئيساً مطاعاً في كندة، وكان في الإسلام وجيها في قومه. إلاّ أنه كان ممن ارتد عن الإسلام بعد النبي (ص)، ثم راجع الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق، وأُتي به أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسيراً.

قال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كأني أنظر إلى الأشعث بن قيس، وهو في الحديد يكلم أبا بكر، وهو يقول: فعلتُ وفعلتُ، حتى كان آخر ذلك سمعتُ الأشعث يقول: استبقني لحربك، وزوجني أختك؛ ففعل أبو بكر رضي الله عنه.

قال أبو عمر: أخت أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي زوجها من الأشعث بن قيس هي أم فروة بنت أبي قحافة، وهي أم محمد بن الأشعث.

فلما استخلف عمر، خرج الأشعث مع سعد إلى العراق، فشهد القادسية والمدائن، وجلولاء ونهاوند، واختط بالكوفة داراً في كندة ونزلها، وشهد تحكيم الحكمين، وكان أحد شهود الكتاب[2].

---

(1) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص72)، أسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص98)، شرح النهج للبلاذري (ج1 ص121)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص21)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج9 ص130 وص134)، كتاب الثقات لابن حبان (ج3 ص288)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص 200)، الأخبار الطوال للدينوري (ص156)، المعجم الكبير للطبراني (ج1 ص239)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص40-41).

(2) ولم يذكر ابن عبد البر شيئاً عن تفاصيل علاقة الأشعث بالإمام علي أيام خلافته

وقال ابن الاثير في ترجمته من اسد الغابة انه كان قدم الى النبي(ص) في السنة العاشرة للهجرة في وفد قبيلة كندة[1] اليمانية فأسلموا. ولكن الأشعث ممن ارتد بعد النبي(ص). فسير ابو بكر الجنود الى اليمن فأخذوا الاشعث أسيراً، فأحضر بين يديه، فقال له: استبقني لحربك وزوجني بأختك، فأطلقه ابو بكر وزوجه أخته، وهي أم محمد بن الأشعث».

لذن هنالك اتفاق بين المؤرخين على المعالم الرئيسية لشخصية الاشعث الى الفترة ما قبل بدء علاقته بعليّ:

فهو كان من كبار زعماء قبيلة كندة الكبيرة في اليمن. وحسب تعبير بعض الروايات «ملوك كندة»

في اواخر عهد النبي (ص) ترأس الاشعث وفدا من قبيلته وجاؤوا لاعلان اسلامهم وطاعتهم.

ولكنه بعد وفاة النبي(ص) كان من المرتدين، بل من كبار المرتدين في اليمن[2].

تعرض للهزيمة على يد قوات ابي بكر، وألقي القبض عليه وأرسل الى المدينة مأسوراً.

عفا عنه الخليفة ابو بكر، ومن ثم زوجه اخته ام فروة.[3]

وفي عهد عمر انخرط الاشعث في حركة الفتوحات وشهد جميع معاركها في العراق[4]. ومن ثم استقر في الكوفة.

---

(1) وقال ابن عبد البر ان الاشعث كان قد وفد على رسول الله (ص) في ثلاثين راكباً من كندة فقالوا: يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار، وانت ابن آكل المرار! فتبسم رسول الله (ص) وقال: نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو امنا، ولا ننتفي من أبينا»

(2) ذكر البلاذري في فتوح البلدان انه بعد ان ارتد الاشعث قاتله زياد بن لبيد الذي كان والي اليمن حينها، فلجأ وجماعته الى حصن النجير في اليمن الى أن استحصروا بعد حصارهم.

(3) في تقديري أن ابا بكر عامله من باب «المؤلفة قلوبهم» وكرر استمالته نظرا لمكانته القبلية الرفيعة.

(4) وقال ابن الاثير انه شهد ايضا معركة اليرموك بالشام وفقئت فيها عينه!

وفي عهد عثمان، عيّنه الخليفة والياً على اذربيجان، بعد أن تصاهرا[1]

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق المزيد من التفاصيل حول ارتداد الاشعث، وحول تصرفاته ونفسيته المتكبرة. فقال ان الاشعث كان هو الذي حث قومه وشجعهم على الردة بعيد وفاة النبي(ص). وروى ان بعض قومه من كندة قد ناشدوه أن يراعي العهد وألاّ ينكث وذكّروه بوفادته على رسول الله(ص). فلما أبى وأصرّ على رأيه عزّزوه من والي رسول الله(ص) على اليمن، وهو زياد بن لبيد الأنصاري. فما كان من الأشعث إلاّ أن أظهر الاستهزاء والاستخفاف به وقال: لزياد بن لبيد؟! فتضاحك الاشعث وقال: أما يرضى زياد أن أجيره! ثم يروي تفاصيل المعركة التي خاضها زياد ضد المرتدين وحصارهم بقيادة الاشعث في حصن النجير، والمدد الذي أتاه من الخليفة ابي بكر، الى أن استسلموا. وذكر أن السبب الذي دفع زياد بن لبيد الى عدم قتل الاشعث هو كتاب الخليفة ابي بكر الذي ينهاه فيه عن قتل الملوك من كندة، وان الاشعث كان احد هؤلاء، فاكتفى زياد بإرسال الأشعث مكبلاً الى ابي بكر ليرى فيه رأيه. فلما وصل المدينة اعتذر من ابي بكر فعفا عنه ووافق على تزويجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة.

وعندما وصل عليّ الى الكوفة، قرر أن يعامل الاشعث كواحد من ولاة عثمان (الفاسدين). فكان أن عزل الاشعث من منصبه كوالٍ على اذربيجان بعد ان اتهمه بالفساد.

روى نصر بن مزاحم أن الإمام عليّ كتب له حين قدم الكوفة:

« أما بعد، فلولا هَنَاتٌ كنّ فيك كنتَ المقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعل أمرَك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله ...... وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه أمانة. وفي يديك مال من مال الله وأنت من خزّان الله عليه حتى

(1) روى نصر بن مزاحم أنه لما بويع عليّ بالخلافة كان الأشعث عاملاً لعثمان بن عفان على اذربيجان، وأنه كانت بينه وبين عثمان علاقة مصاهرة حيث كان عمرو بن عثمان قد تزوج ابنة الأشعث قبل ذلك.
وذكر الدينوري في الأخبار الطوال ان كانت ولايته (على اذربيجان) مما عتب الناس به على عثمان، لأنه ولاّه عند مصاهرته اياه بتزويج ابنة الأشعث من ابنه.

تسلمه إليّ. ولعلي ألاّ أكون شر ولاتك لك إن استقمت. ولا قوة إلاّ بالله»

وقريبٌ من هذه الرواية وردت في كتاب «الثقات» لابن حبان وفيه أن عليا كتب للأشعث وهو والٍ على أذربيجان: «إذا أتاك كتابي هذا فاقدم واحمل ما قبلك من المال»

ويذكر اليعقوبي في تاريخه كتاب عليّ للأشعث وفيه عبارات أكثر قسوة واتهاما «فإنما غرّك من نفسك وجرّأك على آخرتك، إملاء الله لك، إذ ما زلت قديماً تأكل رزقه، وتلحد في آياته وتستمتع بخلاقك، وتذهب بحسناتك إلى يومك هذا. فإذا أتاك رسولي بكتابي هذا فأقبل، واحمل ما قبلك من مال المسلمين»

وكما هو متوقع أثار قرار عزله والتشكيك بذمته المالية غضب الأشعث بن قيس الشديد، يقول نصر بن مزاحم أن غضب الأشعث إلى حد دفعه إلى التفكير في خيانة عليّ والانضمام إلى معاوية!

«فلما أتى منزله دعا أصحابه فقال: إن كتاب عليّ قد أوحشني. وهو آخذي بمال أذربيجان. وأنا لاحقٌ بمعاوية. فقال القوم: الموت خيرٌ لك من ذلك. أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟!

فاستحيا فسار حتى قدم على عليّ.»

وقال ابن حبان «ثم قال الأشعث: والله لأدعنه بمال مضيعة، ولأقعدن عليه بالكوفة». وتقول الرواية أن الأشعث ارتحل بالفعل نحو معاوية لولا أن حجر بن الأدبر لحقه وناشده «إنك إن أتيت معاوية أتبك جميعا إلى الشام وأنشدك الله إلا نظرت إلى أيتام قومك وأياماهم فإني لا آمن أن يفتضحوا غدا. قال: فما تريد يا حجر؟ قال: تنصرف معي إلى الكوفة فإنك شيخ العرب وسيدها والمطاع في قومك، وسيصير الأمر إليك...» إلى أن وافق على التوجه للكوفة.

ويبدو أن الامام علي قرر أن يعيد النظر في تعامله مع الأشعث بعد حضوره إليه من أذربيجان. فالظاهر أنه في بداية تعامله مع الأشعث في الكوفة، بدأ

يسير معه كمثل سيرة رسول الله(ص) مع الطلقاء والاعداء من الأشراف والزعماء من طريق تألفهم. فيروي ابن عساكر ان عليا وافق على طلب من الأشعث نفسه أن يتزوج ابنه الحسن من ابنته جعدة[1]. لا شك ان علياً أدرك مدى النفوذ الذي يتمتع به الاشعث على القبائل اليمانية الكبيرة في الكوفة[2]، فأراد أن يستميله الى جانبه.

وهكذا حافظ الاشعث على وضعه ومكانته[3] في الكوفة، وبقي مؤثرا جدا على قبيلته، كندة ومعها قطاع عريض من القبائل اليمانية الاخرى.

ورغم نجاحه في الحفاظ على مكانته الرفيعة في الكوفة واعتراف عليّ بذلك إلّا ان الاشعث بن قيس لم يكن يوماً مخلصاً لعلي، ابدا. بقي الاشعث مصدر بلبلة وشقاق في صفوف عليّ. وكان يخالف توجهات الخليفة في كثير من القضايا، وخصوصاً تلك المتعلقة بالنظرة الى معاوية واهل الشام والطريقة المثلى لمعالجة الخلاف معهم.

أخرج الذهبي في سير اعلام النبلاء رواية تشير الى التوجهات السلبية للأشعث بن قيس حتى قبل بدء حرب صفين. فخلافاً لروايات غيرها تقول ان جيش معاوية قد حال بين جيش العراق وماء الفرات بالقوة وبعد قتال (وكان قد وصلها قبل علي) فإن رواية الذهبي هذه تقول ان ذلك تم سلمياً وبعد تدخل الأشعث *حدثني أبو الصلت الحضرمي قال: حلنا بين أهل العراق وبين الماء. فأتانا فارس، ثم حسر، فإذا هو الأشعث بن قيس فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد(ص)! هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث*

---

(1) ويبدو ان الاشعث غار من سعيد بن قيس الهمداني لما علم ان الحسن كان ينوي الزواج من ابنته فرأى نفسه أكثر أهلية لشرف هذا الصهر من حفيد النبي وابن أمير المؤمنين

(2) خاصة وأنه كان كبير السن ايضا. فسيرته تقول انه سنة 11 للهجرة قاد قبيلته في حركة الردة والتمرد على الاسلام ايام ابي بكر، وابن عبد البر يقول انه توفي بعد اغتيال عليّ بأربعين يوما (سنة 40)، وفي رواية أخرى سنة 42 للهجرة. أي ان احداث صفين حصلت بعد 26 سنة من قيادته لقبيلته في الردة. أي انه لا شك كان كبيرا جدا في العمر، ومكانته بين قومه لذلك أكبر وأكبر.

(3) صار بإمكان الاشعث الآن أن يفتخر بأنه تربطه علاقات نسب ومصاهرة مع الخلفاء الثلاثة ابي بكر(اخته ام فروة) وعثمان(ابنه عمرو) وعلي (من طريق ابنه الحسن)!

والذراري؟ أم صبرنا أنا لقتالكم فمن للحرمات والذراري؟ إن الله يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)، قال معاوية: فما تريد؟ قال: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لأبي الأعور: خل بين إخواننا وبين الماء»

وهذه الرواية تشير إلى أن الأشعث لم يرد الحرب أصلاً، وأنه كان يتصور التحكيم والسلام الحل المناسب من الأساس. وبالتالي فموقفه حين رفع الشاميون المصاحف متوقع تماماً.

ومع مرور الوقت تفاقمت الخلافات بين عليّ والأشعث ووصلت إلى حد الكراهية الشخصية [1] وتبادل التهديدات! وقد أخرج الذهبي في سير أعلام النبلاء رواية توضح مدى السوء الذي يلفه علاقة علي بالأشعث «عن قيس بن أبي حازم قال: دخل الأشعث على علي في شيء، فتهدده بالموت! فقال علي: بالموت تهددني؟! ما أباليه! هاتوا لي جامعة وقيداً. ثم أومأ إلى أصحابه. قال: فطلبوا إليه فيه. اتركه»

وسوف يأتي الكلام بالتفصيل عن الدور الخطير الذي لعبه الأشعث في معركة صفين، في موضعه.

*****

شقاقٌ في الجيش العراقي: وقف القتال[2]

وحصل ما أراده معاوية، يروي ابن قتيبة في الإمامة والسياسة وهو يصف الأجواء في الجانب العراقي، وصعوبة وضع عليّ، بعد دعوة الشاميين إلى تحكيم القرآن:

---

(1) وربما بعد مقتله انتصر معاوية ودخل الكوفة طلب صلحه مع الحسن، سوف يجير الأشعث ابنه عن رأي ابنه جعلا في علي) روى الطبراني في المعجم الكبير أن الأشعث استأذن على معاوية وهو بالكوفة فسبه علياً بسبب وجود الحسن وابن عباس عنده فغضب الأشعث وقال له: ائذن علي حجتي يا أمير المؤمنين) تعلم أن صاحبهما كان أشد الناس كلاماً يعني علياً! مما دفع ابن عباس إلى التصدي له وإيجابه بكلام قاسٍ جبهه فيه.

(2) مصادر هذا المبحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص188)، تاريخ الطبري (ج4 ص34)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص103)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص147)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص481).

«فأقبل الأشعث بن قيس في أناس كثير من أهل اليمن فقالوا لعلي: لا ترد ما دعاك القوم إليه! قد أنصفك القوم. والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وكلناك، ولا نرمي معك بسهم ولا حجر، ولا نقف معك موقفاً»

ورواية الطبري فيها عبارات أكثر قسوة وحدة وجهها الأشعث إلى عليّ وصلت إلى تهديده بتسليمه إلى أهل الشام إن لم يأمر بوقف القتال!

فقال علي: إنها مكيدة! وليسوا بأصحاب قرآن.

فاعترض الأشعث بن قيس الكندي، وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه، فقال: لقد دعا القوم إلى الحق!

فقال علي: إنهم إنما كادوكم، وأرادوا صرفكم عنهم!

فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهم انصرفتُ عنك!

ومالت اليمانية مع الأشعث. فقال الأشعث: والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه أو لندفعنك إليهم برمتك!

فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلاماً عنيفاً، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم، وحتى خاف عليّ أن يفترق عنه أصحابه. فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى الحكومة.»[1]

ويروي لنا نصر بن مزاحم مدى إحباط عليّ وغضبه وهو يخاطب جيشه بعد أن اضطروه لقبول وقف القتال:

«فقام علي أمير المؤمنين فقال: إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، وإنها فيهم أنكى وأنهك.

ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحتُ منهياً. وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون!»

---

(1) وفي رواية تاريخ الطبري أن مسعر بن فدكي وزيد بن الحصين (من القراء) هما اللذان قالا لعلي «... وإلا دفعناك برمتك إلى القوم...» وأن علياً اضطر أن يبعث إلى الأشتر النخعي ويوقف حملته على معسكر معاوية في لحظات حرجة، حين كان على وشك الظفر.

وهذه رواية الزهري كما عرضها البلاذري في أنساب الأشراف. وفيها أن قرار الاستجابة للمصحف لدى أهل الشام ووقف القتال اتخذه عليّ بإرادته[1] لأنه رأى اختلاف أصحابه بين مؤيد ومعارض فأراد إنهاء التنازع. ولم يذكر الزهري أن عليّاً تعرض للتهديد من الأشعث أو مسعر بن فدكي أو غيرهما.

«فاختلف أهل العراق!

فقالت طائفة منهم كرهت القتال: أجبنا إلى كتاب الله.

وقالت طائفة: ألسنا على كتاب الله وبيعتنا وطلب الحق، فإن كانت ها هنا شبهة أو شك فلم قاتلنا؟!

ووقعت الخصومة بين أهل العراق. فلما رأى عليّ ما فيه أصحابه وما عرض لهم من الخلاف والتنازع، ورأى وهنهم وكراهة من كره منهم القتال، كاتب معاوية فيما دعا إليه وقبل كتاب الله»

عليّ يجد نفسه في الدوامة: ما الذي حصل بالضبط في الجانب العراقي؟[2]

واضحٌ من النصوص أعلاه كيف أن الأشعث بن قيس الكندي لعب دوراً سلبياً في غاية الخطورة أثناء المعركة. وكان بحكم وضعه القبلي في موقع يؤهله للضغط على الإمام عليّ من أجل وقف فوري للقتال والاستجابة إلى نداء أهل الشام. فليس بوسع أي قائد مسؤول أن يغامر بانشطار جيشه إلى قسمين، أحدهما يستمر بالقتال والآخر يضع السلاح! بدا للإمام عليّ

---

(1) وليس غريباً أن تكون رواية الزهري على هذا النحو. فهو من كبار أهل الحديث، ورواة صحيح البخاري، وهو بالتالي من رموز مذهب «أهل السنة والجماعة»، وكان مقرباً من خلفاء بني أمية. أي أن فكرة رغبة الصلح والسلام بين الأشخاص وعدم جدوى الخلاف بين علي ومعاوية تناسب توجهه المذهبي تماماً.

(2) مصادر هذا البحث: وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص 485 وص 489)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص96)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 137 وص 149 وص 150)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص 293)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 191 وص 192)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأربلي (ج1 ص 256)، نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج2 ص 173)، تاريخ الطبري (ج4 ص 35 وص 34).

أن ذلك هو ما سيحصل إذا واصل إصدار أوامره للأشتر النخعي باستمرار القتال. كان الأشعث بن قيس يستغل الإنهاك العام الذي لا بد وأصاب كل أفراد الجيش بسبب شدة القتال وضخامة الخسائر في الجانبين. كانت فرصة ذهبية استغلها الأشعث في أحرج اللحظات من أجل التعبير عما يختلج بصدره منذ قدوم عليّ إلى الكوفة من غضب شديد ناتج عن ما يعتبره أسوء معاملة من قبل عليّ له.

فبوادر الخيانة كانت موجودة عند الأشعث منذ بدء ولاية عليّ. ولولا أن قومه قد عابوا عليه أن يصبح تبعاً لأهل الشام لكان ربما لحق بمعاوية. وهنا يظهر نوع من إقليمية الولاء لدى القبائل العربية التي استوطنت البلاد المفتتحة. كان هناك شعور من التنافس بين الإقليمين: الشامي والعراقي. وكان الإقليمان حتى ذلك الوقت لا يجدان حرجاً في الولاء والطاعة لمركز الخلافة في مدينة الرسول - على الرغم من أن كل الظروف المادية، من مالٍ وثرواتٍ وسلاحٍ ورجال، قد أصبحت في غير صالح المدينة المنورة وبتفوق شاسع، إذا ما قيست بالمصرين الشامي والعراقي. وكلما مرت السنوات وازداد البعد الزمني عن فترة النبوة كانت المشاعر الذاتية بالانتماء للإقليم تكبر. والأشعث بن قيس ببساطة خجل من أن يترك الجماعة العراقية ويصير تابعاً للشام!

وسوف أورد مثالاً آخر على التنافس بين الإقليمين الشامي والعراقي، هذه المرة فيما يتعلق بزعيم قبلي آخر غير الأشعث: الأحنف بن قيس، سيد قبيلة تميم. فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن أبي المعيش قال:

كنت جالساً عند الأحنف بن قيس إذ جاءه كتاب من عبد الملك يدعوه إلى نفسه فقال: يدعوني ابن الزرقاء إلى ولاية أهل الشام! والله لوددت أن بيني وبينهم جبلاً من نار، من أتانا منهم احترق فيه، ومن أتاهم منا احترق فيه.

والمقصود من ابن الزرقاء في كلامه هو عبد الملك بن مروان، و(من عند الملك) خطأ مطبعي وصحيحه (من عبد الملك).[1]

---

(1) وهذه الرواية يمكن قبولها، ويدعمها ما رواه ابن سعد نفسه أن الأحنف كان صديقاً لمصعب بن الزبير وتوفي أثناء ولايته على الكوفة من قبل أخيه. ومصعب شقيق عبد الله بن الزبير، خصم عبد الملك اللدود.

وينقل لنا نصر بن مزاحم تفاصيل عن الأجواء المشتعلة في المعسكر العراقي بعد رفع المصاحف:

«إن الناس ماجوا وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال.

وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس، ولم يقل هذا إلا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة، وثارت الجماعة بالموادعة».

ويفهم من هذا النص أن الداعين لاستمرار القتال كانوا القلة في وسط الأكثرية الساحقة التي تريد السلام.

وكان الناس من أبناء القبيلة الواحدة يردون على بعضهم البعض ويتجادلون. مثل هذا الكلام الصادر عن اثنين من زعماء قبيلة بكر بن وائل:

فحين قال حريث بن جابر البكري في ختام خطبته «فما بيننا وبين من طغى علينا إلا السيف» رد عليه قريبه شقيق بن ثور البكري «قد أكلتنا هذه الحرب. ولا نرى البقاء إلا في الموادعة»

وحتى قبيلة ربيعة، المعروفة بشدة تأييدها لعلي والولاء له، مالت إلى السلام وطلب زعماؤها من علي، وإن بأدب شديد الاستجابة لذلك، فخالد بن المعمر: «يا أمير المؤمنين، إنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك، فإن لم تره فرأيك أفضل»

فالمؤكد إذن أن الأشعث بن قيس لم يكن وحيدا بين زعماء القبائل الذين أرادوا وقف القتال. وقد حاول عليّ، بكل طاقته، مقاومة هذا التيار «السلامي» في صفوف جيشه، ولكن دون جدوى. تحدثنا المصادر أن علياً ألقى خطبة قوية في محاولة لشحذ الهمم والاستمرار في القتال «عباد الله، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال. إنها كلمة حق يراد بها باطل. إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة. أعيروني سواعدكم

وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا»[1].

ولقد استجابت النواة الصلبة لمؤيدي عليّ لخطبته هذه ورأيه[2]، ولكن المشكلة كانت في ضرورة وحدة الصف في تلك اللحظات الحرجة. فلا يستطيع عليّ أن يركن إلى الأشتر وعدي بن حاتم بينما يتمسك الزعيم القبليّ الكبير، الأشعث، برأيه بضرورة وقف القتال ومعه تيارٌ واسع من قومه. فلم يكن هناك من خيار واقعي امام علي الا قبول عرض وقف القتال.

بل ان هناك من الروايات ما يفيد بأن الاستجابة لعرض وقف القتال قد تمت بالفعل من قبل الجانب العراقي حتى قبل الحصول على موافقة عليّ! لنتأمل النص التالي الذي يورده ابن حبان في كتاب الثقات: «ثم جعلوا ينادون: ندعوكم الى كتاب الله والحكم بما فيه. فسُرّ الناس به وكرهوا القتال وأجابوا الى الصلح وأنابوا الى الحكومة وقالوا لعليّ: ان القوم يدعونك الى الحق والى كتاب الله فإن كرهنا ذلك فنحن اذن ظالمون.

فقال علي: ويحكم! ما ذلك يريدون ولا يفعلون.

ثم مشى الناس بعضهم الى بعض، وأجابوا الصلح والحكومة وتفرقوا الى دفن قتلاهم.

ولم يجد عليٌّ بدّاً من ان يقبل الحكومة لما رأى من اصحابه»

وهذه الرواية لا تذكر أسماء أشخاص بعينهم بل تستعمل مصطلح «الناس» في الإشارة إلى من ضغطوا على عليّ. وهي تشير إلى رغبة عارمة في السلام إلى درجة دفعت قطاعات واسعة من الجانب العراقي إلى التوقف عن

---

(1) نص هذه الخطبة من وقعة صفين لنصر بن مزاحم نقلاً عن رواية عمر بن سعد الأسدي. وروى الطبري في تاريخه نفس هذه الخطبة تقريباً نقلاً عن رواية أبي مخنف.

(2) تجدر الإشارة هنا إلى موقف زعيم قبليّ مهم آخر وهو عدي بن حاتم الطائي، الذي كان رأيه مع استمرار القتال وعبّر عن ذلك بالنص حين قال للإمام عليّ: «يا أمير المؤمنين! إن أهل الباطل لا تعوق أهل الحق. وقد جزع القوم حين نالهم القتال بقسطه وليس بعد الجزع إلا ما تحب. ناجز القوم» كما ورد في رواية الامامة والسياسة.

القتال وقبول عرض الصلح الشامي دون حتى انتظار رأي القائد الأعلى عليّ، الذي لم يجد بُدّاً عندها من قبول ما هو حاصلٌ بالفعل!

وهناك نصٌّ آخر يشير إلى أن موقف الأشعث بن قيس أثناء المعركة قد تم بتنسيق مسبق مع معاوية. وهذا أمرٌ ممكن، لأن معاوية ربما قرر أن يخاطب الزعيم القبلي اليماني قبل أن يدعو إلى مكيدته علناً. ومن المؤكد أن معاوية كان لديه علمٌ بالخلاف القديم بين عليّ والأشعث وبالتالي رأى أن هذه هي اللحظة المناسبة التي يمكن أن يفيد الأشعث فيها. وربما قدّر معاوية أن الأشعث قد أصبح الآن في موقف يتيح له أن يقول لقومه إن الحتف قد رفع، وإننا قد أدّينا ما علينا وخضنا الحرب مع عليّ ولا بأس الآن من الصلح! ولن يستطيع قومه أن يعيّروه بالجبن أو بالتبعية لأهل الشام بعد كل هذه المعركة الطاحنة. بل على العكس، سوف يستطيع الأشعث أن يبرر سلوكه أمام قومه بالحرص عليهم. وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة النص:

«إن معاوية دعا عتبة بن أبي سفيان وقال له: ألق إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة.

فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى الأشعث فأتاه.

فقال عتبة .... إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل. ولست كأصحابك .... وأما أنك لحاميت عن أهل العراق تكرماً، وحاربت أهل الشام حمية. وقد والله بلغنا منك ما أردنا، وبلغت منا ما أردت. وإنا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك من تركك علياً، ولا نصرة معاوية. ولكنا ندعوك إلى البقية، التي فيها صلاحك وصلاحنا»

ومن الجدير بالملاحظة مدى الحرص في اختيار العبارات من قبل عتبة بن أبي سفيان: فهو يقول للأشعث صراحة أنه لا يريده أن يترك علياً وينضم إلى معسكر معاوية في مثل هذه الظروف (فهو يدرك أن هكذا تصرّف يستحيل أن يصدر من الزعيم القبلي العربي، لأنه سيجرّ عليه عار الدهر)، وأنه ببساطة يدعوه إلى ما فيه خير الطرفين، وهو البقاء.

ولا بد من الإشارة إلى أنه توجد طائفة من الروايات الأخرى التي تؤكد أن قيادات «القرّاء» في المعسكر العراقي هي التي قامت بالضغط على عليّ لحمله على قبول فكرة التحكيم التي طرحها معسكر معاوية حين رفعوا المصاحف.

فمثلا روى الدينوري في الأخبار الطوال ان اشتباكا حصل بين (أصحاب الجباه السود) الذين يرون الاستجابة الفورية لمصاحف اهل الشام المرفوعة وبين الاشتر الذي يصر على مواصلة القتال «وكان مسعر بن فدكي وابن الكواء وطبقتهم من القراء الذين صاروا بعدُ خوارج كانوا من أشد الناس في الاجابة الى حكم المصحف»

ومن المصادر الشيعية ذكر ابن ابي الفتح الاربلي انه لما رفع الشاميون المصاحف ارتجع القراء عن القتال. فقال لهم علي عليه السلام: انها فعلة عمرو بن العاص، وخديعة وفرار من الحرب. وليسوا من رجال القرآن فيدعونا اليه. فلم يقبلوا وقالوا: لا بد أن تنفذ وترد الاشتر عن موقفه وإلاّ حاربناك وخذلناك أو سلمناك اليهم!

«فأنفذ في طلب الاشتر، فأعلمه أنه ليس بوقت يجب ان تزيلني فيه عن موقفي وقد أشرفتُ على الفتح. فعرّفه بالاختلاف الذي وقع. فعاد ولام القراء وعنفهم وسبهم وسبوه. وضرب وجه دوابهم وضربوا وجه دابته. وأبوا إلاّ الاستمرار على لجتهم وانهماكاً في بغيهم. ووضعت الحرب أوزارها»

ولكني أرى ان هذه الروايات غير صحيحة. فهي تهدف ببساطة إلى إلقاء تبعة وقف القتال على القراء، الذين سيصبح جزء منهم خوارج فيما بعد، وذلك من أجل إظهار تهافت منطقهم عندما دخلوا في حرب مع الإمام علي. فهكذا روايات تريد أن تقول أن نفس الأشخاص الذين أجبروا علياً على وقف القتال، سيأتون بعد قليل ليقولوا له: لماذا أوقفتَ القتال؟!

فلا يمكن التسليم بأن قيادات القرّاء هي التي أجبرت علياً على وقف القتال، لأنها كانت أصلاً غير قادرة على ذلك حتى لو أرادت. فهي كانت أقلية صغيرة ضمن الجيش العراقي الكبير. كما أن سلوك ومواقف هؤلاء لاحقاً،

الذين أصبحوا خوارج فيما بعد، يؤكد أن مسألة وقف القتال بالذات، والقبول بالتحكيم كانت هي أساس تحركهم وتمردهم ضد عليّ وما أعلنوه الوحيد عليه.

والرواية التالية من الامامة والسياسة لابن قتيبة تؤيد هذا المنحى. فبعد أن استجاب علي وقرر وقف القتال قام إلى علي أناس، وهم القراء، منهم عبد الله بن وهب الراسبي، في أناس كثير قد اخترطوا سيوفهم، ووضعوها على عواتقهم. *فقالوا لعلي: اتق الله! فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا: لنفنين أنفسنا أو لنفنين عدونا، أو يفيء إلى أمر الله. وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله، والذل في الدنيا. فانهض بنا إلى عدونا، فلنحاكمه إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين، لا بحكومة الناس*»

والخلاصة إذن أن وقف القتال قد تم بضغط من الزعماء القبليين، وخاصة الأشعث بن قيس، الذين يتمتعون بنفوذ كبير لدى المقاتلين من أبناء عشائرهم، على الإمام علي. وقد كان موقف الزعماء القبليين انعكاسا لتيار واسع بين أفراد المعسكر العراقي يرى ضرورة الاستجابة لمصاحف أهل الشام ووقف المقتلة والقبول بالموادعة.

ومما يدعم هذا التحليل ما رواه الدينوري من قيام الأشعث بن قيس بحمل كتاب التحكيم بين الفريقين والمرور به على كل القبائل المشاركة في الجيش العراقي للتأكد من التزامها بوقف القتال. والأهم من ذلك هو ردة فعل النواة الأولى للخوارج (لم يكونوا قد أصبحوا «خوارج» بعد) الذين عارضوا وقف القتال مع أهل الشام. فبعض هؤلاء الأفراد المطالبين باستمرار القتال صبّوا جام غضبهم على الأشعث بالذات حتى وصل الأمر إلى حد محاولة الاعتداء عليه جسديا!

«وأخذ الأشعث الكتاب ليقرأه على الفريقين، ويمر به على كل راية راية، قبيلة قبيلة، فيقرأه عليهم...

فقال عروة بن أدية: أتحكمون في دين الله الرجال؟! فأين قتلانا يا أشعث؟

ثم حمل بسيفه على الأشعث، فأخطأه، وأصاب السيف عجز دابته. فانصرف الأشعث إلى قومه، فمشى إليه سادات تميم، فاعتذروا إليه فقبل وصفح»[1]

وطبعاً فإن قيام بعض العناصر التي ستصبح «خوارج» فيما بعد بالتهجم على الأشعث ومحاولة الاعتداء عليه يشير إلى حجم الدور الذي اضطلع به في عملية وقف الحرب.

وسوف يتحوّل غضب الخوارج فيما بعد ليصبّ بالكامل على عليّ، باعتباره القائد الأعلى المسؤول عن كل ما يجري، بما في ذلك خضوعه لضغوط الأشعث وغيره من الزعماء القبائليين.

وأخيراً هناك رواياتٌ تشير إلى أن علياً كان يأخذ بعين الاعتبار، عند موافقته في النهاية على التحكيم، حجم الانهاك العظيم الذي أصاب المسلمين من جراء القتال. فقد قال علي في إحدى محاججاته مع الخوارج فيما بعد:

«... وأما قولكم: لمَ جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم؟ فإنما فعلتُ ذلك ليتبيّن الجاهل ويتثبّت العالم. ولعلّ الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة، ولا تؤخذ بأكظامها...»[2]

وقول عليّ «ولا تؤخذ بأكظامها» فيه دلالة على مدى المشقة التي كان يعاني منها المسلمون آنذاك. وفي هذا النص ذاته يظهر أن علياً كان يعتبر القبول بالتحكيم والرجوع إلى القرآن نوعاً من إقامة الحجة على صحة موقفه، لمن ينشد الحق من المسلمين. فكأنه يقول للناس إنه لم يَدَع سبيلاً إلا سلكه في سبيل وحدة الأمة، وحتى لا يُتّهم بأنه لا يعطي خصومه فرصة الرجوع إلى الحق، سلماً.

وقفة: بشأن الراوي الأبرز أبي مخنف

يعتبر لوط بن يحيى، المعروف بأبي مخنف، من أقدم المصادر القديمة

(1) الأخبار الطوال للدينوري. ومثل ذلك يروي الطبري في تاريخه.
(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده. والأكظام جمع كظم: مخرج النفس، والأخذ بالأكظام: المضايقة والاشتداد.

لأخبار الفتنة الكبرى، إن لم يكن أهمها. وهو من المصادر القديمة والقريبة نسبياً من الأحداث. فهو قد توفي سنة 157 للهجرة وهذا يعني انه ربما كان شاباً واعياً سنة 100 للهجرة وأنه ربما قابل بالفعل اشخاصاً عاصروا احداث الفتنة الكبرى، أو حتى شاركوا بها (حرب صفين وقعت سنة 37 للهجرة).

وأبو مخنف من ابناء الكوفة، نشأ وعاش بها. وهو ينتمي الى قبيلة الأزد اليمانية المعروفة. وكان راوية متخصصاً بالتاريخ، وألف كتباً عديدة تتناول وقعة صفين والخوارج واغتيال علي. وقبل ذلك حرب الجمل والثورة على عثمان. وللأسف لم تصلنا كتبه مباشرة وإنما وصلتنا مقاطع كبيرة منها من خلال الحافظين الكبار للمادة التاريخية وأبرزهم طبعاً الطبري والبلاذري.

وهو من أكثر الذين أخذ المؤرخون الكبار عنهم بشأن اخبار الفتنة الكبرى، بالاضافة الى المدائني والزهري والواقدي وابن اسحق والشعبي وهشام الكلبي وعوانة بن الحكم، من الجيل المؤسس لعلم التاريخ في الاسلام.

وكمثال على أهمية ابي مخنف يكفي ان نذكر ان الطبري في تاريخه أخذ عنه 116 رواية بشأن أحداث الصراع بين عليّ ومعاوية، بينما البلاذري في انساب الاشراف اخذ عنه 33 رواية حول نفس الموضوع[3].

وكثيرٌ من الباحثين والمهتمين بالتاريخ، قديماً وحديثاً، يأخذون على ابي مخنف انحيازه لعليّ في الصراع[4]. وبالتالي يلقون ظلالاً من الشك حول رواياته ومصداقيتها. ويزداد ذلك «الاتهام» لأبي مخنف حدة اذا عرفنا أن جده المباشر، مخنف بن سليم الأزدي كان أحد المقاتلين في جيش عليّ في حرب الجمل وصفين، بل ويقال انه كان من حملة الرايات. وذلك يعني أن لديه انتماءً أسرياً قديماً ومتوارثاً لعليّ ومعسكره وللجانب العراقي من الصراع ككل.

---

(3) المصدر: «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم ص 39 وص 70
(4) ومنهم من وصفه بأنه شيعي، ولكن حتى لو كانت لديه ميول نحو عليّ، الا انه لا تظهر في رواياته تلك «المسطحية» والايديولوجية الشيعية التي راجت عند الشيخ المفيد وغيره من ذوي العقلية الشيعية الذين كتبوا في التاريخ. وروايات ابي مخنف تاريخية بالدرجة الاولى وبعيدة عن التشيع العاطفي.

ولكني ارى أنه من الظلم لأبي مخنف أن يتهم بالتلفيق او الكذب او تزوير الاخبار لمجرد أن جده كان في عداد جيش عليّ. وقد يكون صحيحا ان عنده ميولاً تجاه عليّ، فما ذلك من حقه كإنسان وكمسلم أن يكون محباً لمن يراه معبرا عن الحق والعدل والخير. وليس ذلك مبررا للقدح به.

ثم ان رواياته في مجملها تتفق مع روايات كثيرين آخرين، وبعضهم ليس لديهم أية ميول علوية. أي ان السياق العام لرواياته ليس شاذا ولا يجوز ردها كلها وتجاهلها باعتبار ابي مخنف «علوي الهوى». بل يجب التعامل معها رواية رواية وتحليلها وربطها بالوقائع والاحداث للنظر في معقوليتها وامكانيتها.

وجدير بالذكر ان المصدر المهم الاخر لأحداث حرب صفين بالتحديد، نصر بن مزاحم، لم يأخذ رواياته من طريق ابي مخنف، بل من طرق غيره وأبرزهم عمر بن سعد الأسدي، ومع ذلك كانت متشابهة الى حد كبير مع روايات ابي مخنف. ولعل هذا يضفي مصداقية نوعا ما على روايات ابي مخنف.

وكون جده مشاركا وفاعلاً في الاحداث قد يكون عنصراً ايجابيا على نحو ما. فهذا يعني ان ابا مخنف كان قريبا من البيئة الحقيقية لمسرح الاحداث من خلال اسرته ومن خلال بقية القبائل اليمانية التي كانت مستوطنة في الكوفة. أي انه ينقل لنا بتفصيل كبير البيئة العراقية لأحداث الفتنة الكبرى. وهذه قيمة تاريخية عالية بحد ذاتها.

الفصل الرابع بعد المعركة: مؤتمر التحكيم

بعد توقف القتال انتقل الفريقان إلى محاولة التوصل لصيغةٍ معينة «للتحكيم» بينهما. وتم الاتفاق مبدئياً على أن يرسل كلٌ منهما وفداً إلى مكانٍ محايد برئاسة «حَكَم». وسوف يتداول الحكمان في شأن النزاع ويُصدرا حُكماً يتفق مع «كتاب الله».

وشكّل اختيار الحكم المنتدب من الجانب العراقي مشكلة جديدة وخطيرة لعلي!

تعيين أبي موسى الأشعري حكماً[1]

نظراً لأهمية الموضوع، وغرابته، سوف نقوم باستعراض موسع للروايات بشأنه في مصادر عديدة.

خصص ابن عساكر في تاريخ دمشق كلاما كثيرا واخرج روايات عديدة حول هذا الموضوع: بعضها تلقي باللائمة عن اختيار ابي موسى على «أهل الكوفة»، وبعضها على «اليمانية»، وبعضها على الأشعث بن قيس بالتحديد.

فقد ذكر أن معاوية قال لابن العاص في معرض تكليفه بمهمة التحكيم نيابة عنه: «.. إن أهل الكوفة أكرهوا عليا على أبي موسى وهو لا يريده ..».

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج46 ص171) و(ج32 ص93)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص391)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص306)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص293)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص189)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص246)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأربلي (ج1 ص234)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص107)، تاريخ الطبري (ج4 ص34-39 وص43-46).

وأخرج أيضاً عن عكرمة من طريق ابن سعد رواية تلقي بالمسؤولية عن اختيار أبي موسى على اليمانية:

«لما كان يوم الحكمين حكّم معاوية من قبله عمرو بن العاص، فقال الأحنف بن قيس لعلي: يا أمير المؤمنين حكّم ابن عباس فإنه نحوه، وابن عباس رجل مجرب. قال علي: فأنا أفعل. فحكّم ابن عباس. فأبت اليمانية وقالوا: لا! حتى يكون منا رجل، وجعلوا إلى أبي موسى الأشعري. فجاء ابن عباس إلى علي فقال: علام تحكّم أبا موسى، فوالله لقد عرفتَ رأيه فينا. فوالله ما نصرَنا وهو يرجو ما نحن فيه، فتدخله الآن في معاقد الأمر؟! مع أن أبا موسى ليس لك بصاحب ذلك. فإذا أبيت أن تجعلني مع عمرو فاجعل الأحنف بن قيس فإنه مجرب من العرب وهو قرن لعمرو. فقال علي: فأنا أجعل الأحنف! فأبت اليمانية أيضاً وقالوا: لا يكون فيها إلا يمان. فلما غلب علي جعل أبا موسى»

كما أخرج رواية أخرى عن عكرمة من طريق محمد بن عمر (الواقدي) فيها ذكر للأشعث بن قيس بالتحديد «سمعتُ ابن عباس يقول: قلتُ لعلي يوم الحكمين: لا تحكّم الأشعري فإن معه رجلاً حذراً مرساً قارحاً من الرجال. فلزّني إلى جنبه فإنه لا يحل عقدة إلا عقدتها ولا يعقد عقدة إلا حللتها! قال: يا ابن عباس فما أصنع؟ إنما أوتى من أصحابي، قد ضعفتْ نيتهم وكلّوا في الحرب. هذا الأشعث بن قيس يقول: لا يكون فيها مضريان أبداً حتى يكون أحدهما يمان. قال ابن عباس: فعذرته وعرفتُ أنه مضطهد وأن أصحابه لا نية لهم»[1]

وتابع ابن عساكر مخرجاً روايتين متناقضتين تماماً:

الأولى من طريق الأعمش وفيها أن علياً قال يا أبا موسى: احكم ولو على حز عنقي!

والثانية من طريق الأحوص «قال علي في الحكمين: أحكّمكما على أن تحكما بكتاب الله، وكتاب الله كله لي، فإن لم تحكما بكتاب الله فلا حكومة لكما»[2]

---

(1) وقد أخرج الذهبي في سير أعلام النبلاء نفس هذه الرواية ولكن من طريق ابن سعد.
(2) وقد ذكرها أيضا ابن الأثير في أسد الغابة.

والروايتان الأخيرتان غير صحيحتين! فكيف يمكن ان يتنزل علي لأبي موسى، وبتلك العصبية العجيبة «الحكم ولو على حز عنقي» بعد ما حصل بينهما في الكوفة؟! وكيف يمكن ان يجعل علي الحكم لصالحه شرطاً للتحكيم، مع ان ذلك يناقض فكرة التحكيم ذاتها؟ يمكن ان يتوقع الحكم لصالحه ولكن لا يمكنه اشتراط ذلك.

وأما ابن كثير فقد خلط في روايته لقصة اختيار ابي موسى ما بين «القرّاء» والأشعث بن قيس، وجعل مسؤولية اختيار ابي موسى عليهم معاً! جاءت روايته على النحو التالي *«وأراد عليّ أن يوكل عبد الله بن عباس -وليته فعل- ولكنه منعه القرّاء*[1] *ممن ذكرنا وقالوا: لا نرضى إلّا بأبي موسى الأشعري. وذكر الهيثم بن عدي في كتاب الخوارج له أن أول من أشار بأبي موسى الأشعري الأشعث بن قيس، وتابعه أهل اليمن، ووصفوه بأنه كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال.*

وكان أبو موسى قد اعتزل في بعض أرض الحجاز.

قال علي: فإني أجعل الأشتر حكماً. فقالوا: وهل سعّر الحرب وسعّر الأرض إلا الأشتر؟

قال: فاصنعوا ما شئتم.

..... فأبوا إلا أبا موسى الأشعري.

فبعث الرسل إلى أبي موسى الأشعري -وكان قد اعتزل- فلما قيل له أن الناس قد اصطلحوا قال: الحمد لله. قيل له: وقد جُعلت حكماً فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم أخذوه حتى أحضروه إلى علي رضي الله عنه وكتبوا بينهم كتاباً..»

وأما ابن الأثير فقد أخرج رواية يبدو فيها عليّ بمظهر عديم الشخصية تماماً ويكتفي بالموافقة على أي اقتراح يُعرض عليه!

---

(1) والقراء الذين يخبر عنهم ابن كثير هنا هم مسعر بن فدك التميمي وزيد بن حصين الطائي ومن معهما.

فحكم معاوية عمرو بن العاص. فقال الأحنف بن قيس لعلي: يا أمير المؤمنين حكم ابن عباس فإنه نحوه.

قال: أفعل.

فقالت اليمانية: يكون أحد الحكمين منا، واختاروا أبا موسى.

فقال ابن عباس لعلي رضي الله عنهما: علام تحكم أبا موسى؟ فوالله لقد عرفت رأيه فينا. فوالله ما نصرنا وهو يرجو ما نحن فيه فتدخله الآن في معاقد الأمر؟ مع أن أبا موسى ليس بصاحب ذلك. فاجعل الأحنف فإنه قرن لعمرو.

فقال: أفعل.

فقالت اليمانية أيضاً منهم الأشعث بن قيس وغيره: لا يكون فيها إلا يمان، ويكون أبا موسى.

فجعله علي رضي الله عنه

وأما اليعقوبي فقد أوجز القصة، كعادته، بعباراته المختصرة والحادة، فقال:

فقال علي: أرى أن أوجه بعبد الله بن عباس.

فقال الأشعث: إن معاوية يوجه بعمرو بن العاص، ولا يحكم فينا مضريان، ولكن توجه أبا موسى الأشعري فإنه لم يدخل في شيء من الحرب.

وقال علي: إن أبا موسى عدو! وقد خذل الناس عني بالكوفة، ونهاهم أن يخرجوا معي!

قالوا: لا نرضى بغيره!

فوجه علي أبا موسى على كره بمقالته له ومخالفته فيما بينه وبينه.

ووجه معاوية عمرو بن العاص.[1]

وألقى ابن حبان في كتاب الثقات بالمسؤولية حصرا على عاتق الأشعث:

---

(1) وقريبٌ من هذه الرواية وردت في تاريخ الطبري

«.. وأراد علي أن يحكّم ابن عباس. فقال الأشعث بن قيس - وهو يومئذ سيد اليمانية -: لا يحكم في هذا الأمر رجلان من قريش، ولا افترق الفريقان على هذا الجمع على حكومة، بعد أن كان من القتال بينهما ما كان، إلاّ وأحد الحكمين منّا!

وتبعه أهل اليمن على ذلك. ثم قال الأشعث: لا نرضى إلاّ بأبي موسى الأشعري!»

ومن المصادر الشيعية، يلوم ابن أبي الفتح الأربلي في كشف الغمة القرّاء ويحمّلهم مسؤولية اختيار أبي موسى: «وجهّ علي عليه السلام عبد الله بن عباس، فلم يوافقوا وقالوا: لا نرى بينك وبينه! فقال: فأبو الأسود؟ فأبوا عليه. فاختاروا أبا موسى الأشعري. فقال عليه السلام: إن أبا موسى مستضعف وهواه مع غيرنا! فقالوا: لا نريد غيره. فقال: إذا أبيتم فاذكروا كلما قلت وقلتم!»

وانفرد البلاذري برواية (عن صالح بن كيسان، ذي النزعة الأموية) تتجاهل تماماً فكرة فرض أبي موسى على عليّ من قبل أصحابه! بل تقول إنه بعد وقف القتال اختار الناس (دون تحديد) من الجانبين الشامي والعراقي رجلين من الأنصار ليكونا حكمين: عبادة بن الصامت وشداد بن أوس بن ثابت، ولكن تم رفض ذلك من قبل معاوية، ثم اختار معاوية: عمرو، وقال علي: أبو موسى الأشعري، وتراضيا بذلك؛ أي أن عليّاً اختار أبا موسى بإرادته الحرة!

إذن تظهر غالبية الروايات أن الأشعث بن قيس واصل دوره المشبوه تجاه عليّ، عن طريق الضغط عليه لاختيار أبي موسى الأشعري مندوباً عن الجانب العراقي في مؤتمر التحكيم السري هذه. وهي كذلك تظهر عليّاً بمظهر الزعيم المغلوب على أمره.

ومن الصعب التسليم بصحة هذه الصورة التي ترسمها الروايات تلك. فالواضح منها أنها تريد تحميل الأشعث وزر اختيار أبي موسى الأشعري، الذي سيظهر فشله الكبير لاحقاً، بالإضافة إلى مسؤولية إجبار عليّ على وقف القتال بالأصل.

فالأشعث بن قيس كان بمقدوره فعلاً أن يضغط على عليّ من أجل وقف سفك الدماء المتبادل، لأن ذلك ولا شك كان مطلباً مُلحاً من قواعد المقاتلين، ولكن لا يمكن تصوّر أنه أيضاً كان قادراً على تسمية الحكم من الجانب العراقي! وحتى لو كان الأشعث راغباً في تسمية أبي موسى، فإن علياً كان بإمكانه أن يرفض. فتسمية الحكم ليست أمراً طارئاً يحتاج قراراً فورياً، مثل وقف القتال وسفك الدماء، بل هي حتماً تحتمل التأجيل لمدّة أيام للنظر والتفكير فيها، ما دامت المعركة قد توقفت بالفعل.

ويبقى سؤالٌ مهم: كيف إذن قبل عليّ بتسمية أبي موسى الأشعري مندوباً عنه للتحكيم؟

من المؤكد أن علياً لم يكن يحترم أبا موسى ولا يثق به على الإطلاق. وما صدر منه بالكوفة قبيل وصول عليّ إليها، ودوره المثبّط للناس عن عليّ لم يكن قد مرّ عليه زمنٌ طويل. ومن المستحيل أن يكون علي اختار أبا موسى بإرادته ومشيئته.

وكما رأينا فإن بعض الروايات تذكر أن علياً أراد تسمية مالك الأشتر مندوباً عنه. وهذا هو الأقرب للحقيقة لأن ثقة عليّ بالأشتر كانت كبيرة، واستمرّت إلى نهاية حياته.

ولذا لا مفر من الاعتقاد بأن شيئاً قاهراً قد أجبر علياً على قبول تسمية أبي موسى! ولكن كيف؟ ومَن الذي أجبره؟ الأمر يبعث على الحيرة.

يبدو أن ما حصل في المعسكر العراقي في تلك الظروف كان فوضى رهيبة وشقاق عظيم، أكبر مما يظهر في كل الروايات، إلى درجة أن علياً لم يكن أمامه من سبيل سوى الخروج من ذلك الموقف بأي وسيلة، ولو كانت تعيين واحد من خصومه مندوباً عنه للتحكيم! وقد يكون عليّ فقد زمام السيطرة على الجيش وصارت القيادة بالفعل بأيدي الزعماء القبائليين في الجانب العراقي.

هناك تخبّط في الروايات التي تذكر اختيار أبي موسى حكماً. وقد مرت بنا الروايات التي تتحدث عن مسؤولية القراء وتقول أن الاختيار تم من قبل شخصيات أصبحت خوارج فيما بعد، من أمثال مسعر بن فدكي، وزيد بن

حصين! بل انه توجد روايات أخرى في الطبري والإمامة والسياسة تتحدث عن دور لـ«زعماء الأنصار» في ذلك الاختيار!

وفي كل الأحوال، كان اختيار أبي موسى الأشعري يمثل انتصاراً مؤقتاً للتيار الأكثر سلبية في صفوف جيش عليّ تجاه كل ما جرى من صراع. ذلك التيار الذي كان يجنح إلى اعتزال «الفتنة» ويرى في «سفك دماء المسلمين» شراً مستطيراً ويدعو المؤمنين إلى «الفرار بدينهم» من الفتن!

وهنا تظهر هذه الأحداث ظاهرة مهمة في الجانب العراقي من الصراع. فعليّ كان يحكم بالاستناد إلى شرعيته الإسلامية أولاً وأخيراً، ولم يكن يحكم مستنداً إلى دعائم إدارية وتنظيمية راسخة البنيان. فطاعة جنوده وجيشه وأهل العراق جميعاً له كانت ناتجة عن اقتناع فردي من كل الناس بأهليته وصلاحيته وإخلاصه. ولكنّ هذه العلاقة لم يجر تأطيرها بالشكل الكافي لتصبح، فوق ذلك، علاقة حاكم بمحكوم، بالشكل التنظيمي المحدد، ذي البعد الإداري بتسلسلاته وهيكليته. وذلك أمر خطير، وسوف يعاني منه عليّ شرّ المعاناة. لأنه يعني أن لعليّ عشرات الألوف من الشركاء في الحكم! عشرات الألوف من الذين عليه أن يقنعهم بصحة كل قرار يتخذه وكل سياسة ينتهجها! فهؤلاء يحبونه ويوالونه ولكنهم ليسوا مرتبطين مصلحياً معه. ولا يلام عليّ على ذلك. فهو قد جاء العراق من مدة قصيرة جداً، ولم تتح له الفرصة لكي يرسي دعائم حكم وتنظيم فعال. وكانت جبهة عليّ وجيشه تضمّ صحابية أولين، والأنصار، إلى جانب أشراف القبائل وأهل القادسية والأيام، وجماعات الروادف ومجموعات القراء، وهي عناصر تختلف في درجة تقديرها لمصالحها، وفي نظرتها لقريش ولسلطات المدينة، وفي فهمها لأبعاد الصراع الذي تخوضه. فلم يكن هناك تجانس في الآراء في معسكر عليّ، ولم تكن قبائله منضبطة.

كل ذلك يعكس وضع معاوية في الشام الذي كان يتربع على هرم سلطة إدارية، فعّالة ومنظّمة، منذ حوالي العشرين عاماً. ولم يكن مضطراً إلى هدر الكثير من الجهود لإقناع أفراد جيشه وقياداته، المعتادين على تلقّي أوامره والمستفيدين من عطاياه، بصواب قراراته.

إذن دبّ الخلاف والشقاق في صفوف الجيش العراقي، فعاد إلى العراق وهو على أسوأ حال: «خرجوا مع عليّ إلى صفين وهم متوادون أحباء، فرجعوا متباغضين أعداء. ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم. ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط. يقول الخوارج: يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم. وقال الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا»[1]

ولمّا وصل جيش عليّ إلى العراق افترق الذين مالوا إلى رأي المحتجين على عليّ «الخوارج» ثلاث فرق:

فرقة رجعت إلى أمصارها ومنازلها في العراق.

فرقة أقامت وقالت: «لا نعجل، ننظر إلى ما يصير شأنه»

فرقة شهدت على عليّ بالكفر، وهم الذين تجمعوا في حروراء ثم في النهروان.

مؤتمر التحكيم

قبل التطرق إلى تفاصيل مؤتمر التحكيم وما جرى فيه، لا بد من التوقف قليلاً عند مسار الأحداث التي أدت إلى ذلك المؤتمر، وما هو ممكن من انعقاده.

فمن المؤكد أن التوجه نحو نوع من التحكيم هو دليل أكيد على توازن ما في القوى العسكرية بين الفريقين. ولذلك، وكما سبق وذكرناه، لا ينبغي التسليم بالروايات التي تشير إلى أن جيش العراق كان متفوقاً بشدة عند وقف القتال وأن معاوية وابن العاص كانا على وشك الفرار. وكون المبادرة إلى رفع المصاحف والمطالبة بوقف القتال جاءت من الجانب الشامي لا تعني بالضرورة أنهم هزموا. فهنا لا بد من ربط هذا التصرف من جانب معاوية بالهدف الذي خاض من أجله كل من الطرفين المعركة.

---

(1) تاريخ الطبري

فالإمام عليّ، كخليفة شرعيّ للمسلمين، جاء إلى صفين وأمامه هدف وحيد لا يحتمل أنصاف الحلول: إلحاق الهزيمة الكاملة بمعاوية وجيش الشام. فهؤلاء بنظره يشكلون انشقاقاً في جسد الأمة، وليس أمامهم من سبيل سوى الدخول في الطاعة، إن لم يكن سلماً، فحرباً. فأي اتجاه آخر، أو حل وسط، ليس مقبولاً ولا ممكناً بالنسبة لعليّ، لأنه يعني استمرار انقسام أمة العرب التي وحدها محمد(ص)، والتي يرى عليّ نفسه المؤتمن عليها. لذلك كان عدم الحسم أو الهدنة، أو التأجيل، يساوي الهزيمة ذاتها.

وعلى النقيض من ذلك كان وضع معاوية. فالنجاح الأعظم بالنسبة له كان بالفعل قد تحقق، وهو حشد جيوش الشام من خلفه. وفي اليوم الذي سارت به جيوش الشام وقبائلها معه كان النصر قد كتب له. فلم يكن ممكناً، بكل المقاييس، إلحاق هزيمة تامة بالجيش الشامي المكون من 90 ألف رجل ما دام متماسكاً. فكانت مهمة معاوية الأساسية خلال تلك المواجهة هي المحافظة على صمود قواته وترابطها، وليس هزيمة جيش العراق.

ولذلك كان معاوية شديد الاهتمام بتماسك صفوفه ومنع قواته من التأثر بدعاية أهل العراق، أو بشخصية علي بن أبي طالب. وقبيل بدء المعركة في صفين، عندما انشق على معاوية مجموعة من المتدينين والقراء الشاميين بقيادة شمر بن أبرهة بن الصباح الحميري، وانضموا إلى صفوف عليّ، عقد معاوية وابن العاص اجتماعاً طارئاً على الفور وتناوبا على الخطابة أمام جنود الشام مؤكدين على شرعية موقفهم، ومظلومية عثمان طالبين من الناس الصبر معهم «... أيها الناس أعيرونا أنفسكم وجماجمكم، لا تفشلوا ولا تخاذلوا...»[1].

فهدف معاوية إذن في معركة صفين كان يتلخص بالصمود. فخروج المواجهة ضد عليّ والصمود فيها كان غاية ما يطمح إليه معاوية في حينه. فالصمود في الحرب يعني عملياً أن معاوية نجح في فرض أمر واقع على عليّ، وتثبيت فكرة التقاسم بينهما: هذه الأرض لي، وتلك لك!

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص225)

وهكذا يمكن القول أن معاوية خرج إلى صفين للقتال بهدف الوصول إلى هدنة. وذلك ما نجح في تحقيقه.

فما الذي يمكن لمؤتمر التحكيم أن يحققه؟ هل كان ممكنا لذلك المؤتمر أن يعيد توحيد الأمة؟ هل كان بإمكان ذلك المؤتمر أن يحكم كما يوحي بذلك اسمه بين الفريقين؟ هل كان ممكنا للمؤتمر أن يقرر في مسائل الخلاف والشقاق وأن يبتّ فيها؟

كل تلك الأسئلة مشروعة تماماً في مواجهة تركيز الكثير من الرواة على فكرة «الخديعة» أو «الغدر» الذي حصل في ذلك المؤتمر من طرف عمرو بن العاص تجاه أبي موسى. فهناك ميلٌ واضح لتضخيم دور عمرو بن العاص «الداهية» على حساب أبي موسى «الساذج». ورغم أنه لا شك أبداً في خصال الغدر والدهاء لدى ابن العاص، وقدراته الشخصية والبلاغية الكبيرة والتي تجعله قادراً، دون أدنى ريب، على مراوغة شخص سطحيّ كأبي موسى والتفوق عليه، إلا أن تصوير النتائج الهزيلة التي أسفر عنها مؤتمر التحكيم وفشله، وكأنه ناتج عن سوء أخلاق عمرو بن العاص وتلاعبه، فيه تعسّف كبير، ولا ينطوي أصلاً على أي مصداقية تاريخية.

لم تكن هناك أي نتيجة عملية يمكن أن تنتج عن مؤتمر التحكيم سوى تثبيت الأمر الواقع. وبغض النظر عن اسم الشخصين اللذين أرسلا لتمثيل الطرفين في ذلك المؤتمر، سواء كانا أبا موسى وعمرو، أو ابن عباس وعمرو، أو غيرهم، فالنتيجة واحدة. فبعد تلك المعركة الطاحنة، ودماء عشرات الألوف التي سالت، لا يمكن تخيّل أن أي طرف يحتمل أن يقبل بحل لا يوافق مصالحه وسلطته بسبب فصاحة فلان أو بلاغة علان. فلن يقبل معاوية الدخول في طاعة عليّ مهما كانت حجة مندوب العراق قوية ومؤثرة. ولن يقبل عليّ الاعتراف باستقلالية معاوية وإقليمه الشامي مهما ساق مندوبه من براهين على صوابية موقفه.

ومن هنا يمكن النظر إلى مؤتمر التحكيم على أنه استراحة لالتقاط الأنفاس قبل معاودة واستئناف الصراع المسلح بين الطرفين، والذي لا بد أن ينتهي بالحسم لمصلحة أحدهما.

وكل ما يروى من تفاصيل حول ما جرى داخل أروقة ذلك المؤتمر من جدالات، واقتراحات، ومناورات، صحيحة على الأغلب، يجب النظر إليها من قبيل التفاصيل ليس إلاّ، لا من قبيل الأحداث الرئيسة.

ويمكن أيضاً استعراض نص تفصيلي لكتاب التحكيم بين الطرفين لتوضيح مدى عمومية عباراته وفقراته:

نص كتاب التحكيم[1]

أنقل نص يلخص الاتفاق الذي تم هو ما رواه الدينوري في الأخبار الطوال:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما[2]، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيّه (ص)، قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

إنا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن[3] فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

وإن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً ومحكماً، ورضي معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظراً ومحكماً.

على أن علياً ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه، وذمته وذمة رسوله أن يتخذا القرآن إماماً ولا يعدوا به إلى غيره في

---

(1) مصادر هذا البحث: الأخبار الطوال للدينوري (ص194)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص282 وص314)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص189)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص108).

(2) هذا أول استخدام لمصطلح «شيعة» في تاريخ الإسلام. وكما هو ظاهر استخدم للإشارة إلى الطرفين: شيعة عليّ وشيعة معاوية. وفي مرحلة لاحقة اقتصر استخدامه على عليّ وذلك بعدما سيطر معاوية على مقاليد الحكم وصار خليفة المسلمين وبالتالي صار شيعته يصنفون من ضمن «أهل السنة والجماعة».

(3) حسب تعبير رواية ابن كثير «نترل عند حكم الله وكتابه ونحيي ما أحيا الله ونميت ما أمات الله».

للحكم بما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجداه في الكتاب رداه إلى سنة رسوله الجامعة، لا يتعمدان لها خلافاً ولا يتبعان فيها شبهة»[1]

وواضحٌ أن الكلام عن حكم القرآن وإحياء ما أحياه واتخاذه إماماً .... الخ، لا يحمل أي معنى محدد ولا يزيد عن كونه عبارات عامة متفق عليها أصلاً ولا خلاف بشأنها. فهذا الكتاب لا يتطرق إلى أسباب الأزمة ولا إلى الحلول الممكنة. والاكتفاء بأخذ العهد والذمة للحكمين ليس له أي أهمية حقيقية لأن كليهما قادرٌ على تأويل أي رأي يراه أو قرارٍ يتخذه.

وجديرٌ بالذكر أنه حصل بين الجانبين خلافٌ بشأن الشكليات والديباجة:

روى ابن كثير في البداية والنهاية «... هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين،

فقال عمرو بن العاص[2]: اكتب اسمه واسم أبيه. هو أميركم وليس بأميرنا.

فقال الأحنف: لا تكتب إلا أمير المؤمنين!

فقال علي: امحُ أمير المؤمنين واكتب: هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب. ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فامتنع المشركون من ذلك وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»

وحتى هذا التنازل من طرف عليّ لم يكن كافياً لحل الإشكال. أضاف ابن كثير:

«إن أهل الشام أبوا أن يبدأ باسم علي قبل معاوية وباسم أهل العراق قبلهم حتى كتب كتابان: كتابٌ لهؤلاء فيه تقديم معاوية على علي، وكتاب آخر لأهل العراق بتقديم اسم علي وأهل العراق على معاوية وأهل الشام»

---

(1) ويرى البعض أن رواية المدائني في أنساب الأشراف للبلاذري وفيها عبارة «... السلطة المحتملة السياسية غير المطلقة» لا تبدو هذه العبارة منسجمة مع لغة تلك الأزمان بل هي أقرب إلى لغة الفقهاء في مرحلة زمنية لاحقة.

(2) وأما في رواية الطبري فإن الذي طالب بمحو صفة «أمير المؤمنين» من اسم عليّ كان الأشعث بن قيس، وأدى ذلك إلى رد شديد القسوة عليه من جانب الأشتر النخعي.

وأضاف اليعقوبي في روايته فقرة ذات مغزى في ختام كتاب التحكيم:

«. ولنشترط على الحكمين في الكتابين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته لا يتجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه إلى هوى، ولا إدهان.

وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته فلا حكم لهما[1]»

وتقول المصادر ان الطرفين اتفقا على يكون اجتماع التحكيم (بتعبيرهم: الفصل) في شهر رمضان المقبل، او ما بعده اذا تراضيا على ذلك. وأن يأتي مع كل حكم 400 رجل من كل طرف. وتم التوقيع على الكتاب بشهادة الشهود يوم 13 صفر سنة 37. ولكن هناك اختلاف بين المصادر بشأن مكان الاجتماع: حيث مرة يرد ذكر «دومة الجندل»[2] ومرة ذكر «أذرح»[3]. وكلاهما من المناطق الصحراوية الحدودية بين الشام والعراق والحجاز. وقد حل ابن كثير الاشكالية على النحو التالي:

«على ان يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان... فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح». واما الطبري فقد حل في رواية لأبي مخنف إشكالية مكان المؤتمر (أذرح - دومة الجندل) كما يلي: ان وفدي العراق والشام «توافدا بدومة الجندل بأذرح»!

واعطى ابن كثير توضيحاً جغرافيا بشأن أذرح «وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل»

ما الذي حصل عند انعقاد مؤتمر التحكيم(4)؟

(1) لا شك عندي ان هذه الفقرة «فإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته فلا حكم لهما» مقحمة على النص ومضافة لاحقا، وتهدف الى اعطاء تبرير لقرار الامام علي برفض نتائج مؤتمر التحكيم التي جاءت في غير صالحه.
(2) تقع ضمن حدود محافظة الجوف في شمال دولة السعودية الحالية، قرب عرعر.
(3) تقع ضمن حدود محافظة معان في جنوب دولة الأردن الحالية.
(4) تاريخ اليعقوبي (ج2 ص189)، تاريخ الطبري (ج4 ص51-52)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص314)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج4 ص112 وج3 ص32)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج32 ص93-94)

لخص اليعقوبي في تاريخه ما جرى على النحو التالي:

فوجه علي بعبد الله بن عباس في أربعمائة من أصحابه وبعث معاوية أربعمائة من أصحابه واجتمعوا بدومة الجندل في شهر ربيع الأول[1] سنة 38.

فخدع عمرو بن العاص أبا موسى!

وذكر له معاوية فقال: هو وليّ ثأر عثمان وله شرف في قريش. فلم يجد عنده ما يحب.

قال: فابني عبد الله؟

قال: ليس بموضع لذلك.

قال: فعبد الله بن عمر؟

قال: إنما يحيي سنة عمر. الآن جئت به.

فقال: فاخلع علياً، وأخلعُ أنا معاوية. ويختار المسلمون.

وقدّم عمرو أبا موسى إلى المنبر، فلما رآه عبد الله بن عباس قام إلى عبد الله بن قيس فخلا معه فقال: إن كان عمرو فارقك على شيء فقدمه قبلك، فإنه غدر.

فقال: لا. قد اتفقنا على أمر.

فصعد المنبرَ فخلعَ علياً.

ثم صعد عمرو بن العاص فقال: قد ثبّتّ معاوية كما ثبّتّ خاتمي هذا في يديّ!

فصاح به أبو موسى: غدرتَ يا منافق! إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

قال عمرو: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً!

---

(1) وكما هو الحال بشأن مكان انعقاد مؤتمر التحكيم فإن هناك اختلافاً بين المؤرخين حول زمانه أيضاً فروايات تقول إنه انعقد في شعبان، أو رمضان، أو ربيع الأول سنة 38 ؟

وتنادى الناس: حكم والله الحكمان بغير ما في الكتاب، والشرط عليهما غير هذا. وتضارب القوم بالسياط، وأخذ قوم بشعور بعض، وافترق الناس.

وتنادت الخوارج: كفر الحكمان، لا حكم إلا لله.»(٢٦)

وذكر الطبري في تاريخه تفاصيل ما جرى في التحكيم اعتمادا على روايات ابي مخنف. وهي تشابه في إطارها العام مع رواية اليعقوبي أعلاه، مع اختلاف في التفاصيل. فأبو مخنف يقول ان طرح اسم عبد الله بن عمر بن الخطاب كان من جانب ابي موسى (وليس عمرو كما لدى اليعقوبي)

ويمكن تصديق أن أبا موسى يختار عبد الله بن عمر كحل لمشاكل الأمة. فهو مثله من التيار السلبي الداعي إلى اعتزال الفتنة. وربما كان أبو موسى يحن إلى العصر الذهبي لعمر بن الخطاب، عصر الفتوحات والانتصارات. بل ان رواية لأبي مخنف تظهر انه ذهب للمؤتمر أصلاً وهو يضمر اسم ابن عمر كحل لمشاكل الأمة «قال ابو موسى: أما والله لئن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولكن لما رفض عمرو بن العاص اقتراح ابي موسى، كان الحل الذي اتفقا عليه:

«فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟

قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيت»

ولكن هل من الممكن ان يكون الحكمان اتفقا على «حل» كهذا؟ أن يخلع كل منهما صاحبه؟ أن يختار المسلمون من أحبوا؟ لم توضح الرواية كيف يمكن للمسلمين ان يختاروا من يحبوا. وعلى اي يختار المسلمون من أحبوه من سيتولى أمر القيادة بعد خلع علي ومعاوية؟ وماذا لو كان المسلمون يحبون عدة رجال؟ هل الحكمان بهذه السذاجة؟

---

(٢٦) وكذلك ورد في تاريخ الطبري وفيه ان عمرو بن العاص قال «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه. وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية»

وفي إحدى روايات ابي مخنف يظهر ابو موسى وبكل بساطة وهو يوافق عمراً على أن عثمان قتل مظلوماً وأن معاوية هو وليه! ويقول ان عمراً عرض عليه الرشوة «إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة» ولكنه رفض الموافقة على تولية معاوية الخلافة لأنه «لم يكن ليولي معاوية ويدع المهاجرين الأولين».

وتركز روايات ابي مخنف كثيراً على أسلوب عمرو المخادع عن طريق تبجيله الظاهري لأبي موسى وتقديمه على المنبر. كما تشير بكثير من الوضوح الى مناصحة ابن عباس وتحذيره لأبي موسى من غدر عمرو وتنبيهه له ألاّ يتكلم قبل عمرو، فلم يستمع له، فوقع المحذور: ان عمرو بن العاص قال «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه. وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية».

ولكن هل يجوز تصديق ان أبا موسى كان بالفعل مغفلاً الى هذا الحد؟ الجواب هو بالنفي. فأبو موسى كان يمتلك خبرة إدارية وقيادية ممتازة منذ عهد عمر بن الخطاب. وأمضى سنوات عديدة حاكماً لولاية مهمة وهي البصرة، وكانت له مساهمات بارزة في قيادة الجيوش والفتوحات في بلاد فارس. ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب كان حريصاً جداً على اختيار القادة والولاة من أهل الكفاءة والقوة والذكاء. ولو كان ابو موسى مغفلاً أو أحمقاً لما استطاع أن يشغل ذلك المنصب الصعب لسنوات طويلة.

وأما ابن كثير، صاحب النزعة الأموية، فقدم في البداية والنهاية اعتذاراً ودفاعاً حاراً عن عمرو بن العاص وموقفه. فبعد أن ذكر عدة روايات عن الواقدي وابي مخنف والامام احمد وابن جرير حول تفاصيل الاجتماع قال «فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا في تقدير أمور ثم اتفقا على أن يعزلا علياً ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما....

ثم جاءا الى المجمع الذي فيه الناس -وكان عمرو لا يتقدم بين يدي ابي موسى، بل يقدمه في كل الأمور أدباً وإجلالاً- فقال له: يا أبا موسى: قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.

فخطب أبو موسى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على رسول الله (ص) ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألمّ لشعثها من رأي اتفقتُ أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع علياً ومعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوا. وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية.

ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه وأثبتُ صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وهو أحق الناس بمقامه!

وكان عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف. فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهادُ يخطئ ويصيب.

وهكذا فإن ابن كثير يعتبر تصرف عمرو بن العاص وخيانته لأبي موسى هو مجرد اجتهاد منه لمصلحة الأمة! فنظره أن الصحابي الجليل رأى أن ترك الأمة بلا إمام لا يجوز، فالحل إذن هو خلع علي بن أبي طالب وتثبيت معاوية في منصب الخلافة! ولم يوضح ابن كثير وجه الاجتهاد في ذلك؟ ولو كان ابن كثير قد أنكر حصول الحدث من الأصل - خداع عمرو لأبي موسى وكذبه على المنبر - لأمكن ربما التماس عذر له في رأيه الموفق بعمرو بن العاص. لكنه لم يفعل، بل أثبت الواقعة، ثم خرج بذلك الرأي العجيب! فلا يبقى إذن سوى أن ابن كثير دفعه تعصبه المذهبي وعداؤه للشيعة إلى إعلان رأيه ذلك. فهو يريد أن يجلّ عمرو بن العاص رغم أنف الجميع!

والملاحظ على روايات ابن كثير عموماً التشذيب! فهو يحذف منها ما يراه من عبارات مسيئة للشخصيات التي يجلها! فمثلاً هو يقول إنه بعد إعلان عمرو! ويُقال إن أبا موسى تكلم معه بكلام فيه غلظة وردّ عليه عمرو بن العاص مثله. وهكذا تجنب ابن كثير ذكر الكلام المتبادل الذي يرويه غيره من المؤرخين الذين ينقل عنهم وخاصة الاستشهاد بآيات الكلب الذي يلهث والحمار الذي يحمل أسفاراً.

وهناك رواية لدى ابن سعد في الطبقات الكبرى تفيد بأن معاوية كان قد حاول رشوة أبي موسى قبيل انعقاد المؤتمر، فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري «قال أبو موسى: كتب إليّ معاوية سلام عليك أما بعد: فإن عمرو بن العاص قد بايعني على الذي قد بايعني عليه. وأقسم بالله لئن بايعتني على ما بايعني عليه لأبعثنّ ابنيك أحدهما على البصرة والآخر على الكوفة، ولا يغلق دونك باب ولا تقضى دونك حاجة. وإني كتبتُ إليك بخط يدي فاكتب إليّ بخط يدك.

فقال: يا بني إنما تعلمتُ المعجم بعد وفاة رسول الله(ص). قال: وكتب إليه مثل العقارب:

أما بعد فإنك كتبتَ إليّ في جسيم أمر أمة محمد(ص): لا حاجة لي فيما عرضتَ عليّ!

قال: فلما ولي أتيته فلم يغلق دوني باب ولم تكن لي حاجة إلاّ قضيت »[1]

وليس ببعيد أن يكون معاوية قد كاتب أبا موسى لما علم بتعيينه مندوباً عن أهل العراق محاولاً استمالته أو على الأقل جس نبضه، خاصة وأنه يعلم بمشاكله مع عليّ في الكوفة.[2]

وعلى كل حال، فإن أبا موسى شعر بهول الفاجعة التي تسبب بها لعليّ والطعنة التي وجهها لشرعيته وعدالة قضيته. ولم يستطع أبو موسى العودة إلى العراق لأنه لا يستطيع أن يقابل علياً بعد الذي صنعه، فقرر الانسحاب من المسرح وفرّ إلى مكة وبقي فيها.

---

(1) وهذه الرواية أخرجها أيضاً ابن عساكر بسنده عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري في تاريخ دمشق

(2) وقد استمر معاوية في مكاتبة أبي موسى، حتى بعد انتهاء المؤتمر وهو مقيم بمكة، فلا شك أن تصرف أبي موسى كان محل التقدير الخاص من معاوية، فعلى الرغم من أنه لم يبايع معاوية صراحة إلاّ أنه وبعد كل ذلك المؤتمر المشؤوم بالفعل حين وافق على خلع علي وهو منتصراً فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن معاوية كتب لأبي موسى طالباً منه أن ينضم إليه في الشام حيث سيكرمه على الرحب والسعة (أقبل إلى الشام فإنها أوسع لك)

موقف الطرفين من نتائج المؤتمر(*)

اعتبر معاوية النتائج التي أسفر عنها مؤتمر التحكيم نصراً مؤزراً له، وأعلن معاوية لكل أتباعه وأنصاره، وأرسل إلى الأمصار المختلفة كتباً يشرح فيها كيف أن المؤتمر الذي رضيته الأمة لحل خلافها قد أصدر حكماً لصالحه. وقال معاوية إن إجماع المسلمين، المبني على حكم كتاب الله، قد انعقد على خلع عليّ من منصب الخلافة، وأن ذلك تم بموافقة مندوب أهل العراق.

وبناءً على نتائج هذا المؤتمر، أعلن معاوية نفسه خليفة للمسلمين[1]، وقام أتباعه في الشام بمبايعته بإمرة المؤمنين. ومن تلك اللحظة أصبح لأمة العرب التي وحدها رسول الله (ص) خليفتان. وتكرّس الإنقسام من خلاف لعليّ إلى انشقاق رسمي وشرعي.

وأما عليّ فلما بلغته أخبار مؤتمر التحكيم وما جرى به، أعلن رفضه لكل ما حصل واعتبر أن الحكمين انحرفا عن كتاب الله وحكما الأهواء في شؤون المسلمين. وأعلن تصميمه على مواصلة حربه ضد معاوية وحزبه:

فقام عليّ بالكوفة على المنبر فحمد الله وأثنى عليه

ثم قال: أما بعد. فإن معصية العالم الناصح تورّث الحسرة وتعقب الندامة. وقد كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة بأمري، فأبيتم إلا ما أردتم

فأحيا ما أمات القرآن، وأماتا ما أحيا القرآن، واتبع كل منهما هواه، يحكم بغير حجة ولا سنة ظاهرة. واختلفا في أمرهما وحكمهما. فكلاهما لم يرشد الله، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين.

(*) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص51)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص143).
(1) تاريخ الطبري

فاستعدوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، ثم أصبحوا في معسكركم يوم الاثنين بالنخيلة.

وإنما حكمنا من حكمنا ليحكما بالكتاب. وقد علمتم أنهما حكما بغير الكتاب وبغير السنة.

ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لجاهدتهم!

وأعطى الناس العطاء وحثهم بالجهاد»[1]

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

الجزء الثاني:

الخوارج

على الرغم من رواياتٍ تناقضُ ذلك، إلاّ أنّ المنطق يقول أن القرّاء الذين أصبحوا خوارج فيما بعد كانوا ولا شك ضمن الأقلية التي عارضت وقفَ القتال والقبولَ بالتحكيم منذ البداية. وإن نجاح دعوة الخوارج في استقطاب وجذب أعدادٍ كبيرة نسبياً من العراقيين، دليلٌ على أنها كانت دعوة تتمتع بمنطقٍ مقنع قادر على جذب الأنصار. ولا يمكن تصوّر دعوة تجتذب عشرات الألوف من الناس على أساس قولها: إنا كفرنا لمّا قبلنا التحكيم، والآن نحن نتوب إلى الله ونعود إلى الإيمان! بل الأرجح أن تكون الدعوة قامت على أساس: ألم نقل لكم أن التحكيم غيرُ جائزٍ أصلاً؟ وقد عارضناه في حين قبله عليّ. وأثبتت الأيام صحّة موقفنا.

تعود بداية نشوء حركة الخوارج إلى مسألة التحكيم ووقف القتال في صفين. وأورد الدينوري[1] أسماء أفراد من مختلف القبائل عارضوا « تحكيم الرجال في أمر الله » عند وقف القتال في صفين. فمثلاً قام الأخوان جعد ومعدان من قبيلة عنزة، برفض وقف القتال وأصرّا على الاستمرار في الهجوم إلى أن قتلا. وكذلك عارض القرار أشخاصٌ من قبائل مراد وتميم وبني راسب. وقام بعضهم، وللمرة الأولى، باتهام عليّ « بالكفر بعد الإيمان ». روى البلاذري[2]: « أتى رجل من بني يشكر علياً فقال: يا علي أرتددتَ بعد ايمان وشككتَ بعد يقين؟ اللهم إني أبرأ إليك من صحيفتهم وما فيها ». وتدريجياً تطوّر خطاب الخوارج إلى أن وصل إلى شعار « لا حكم إلاّ لله » الذي أصبح العلامة المميزة لهم، يرفعونه في حروبهم، ويكررونه في خطاباتهم، ويمتحنون الناس عليه!

(1) الأخبار الطوال (ص ١٩٧).
(2) أنساب الأشراف (ج٢ ص ٣٥٤).

كانت طروحات الخوارج الأولين بسيطة ومباشرة:

إنّ القرآن قد أدان معاوية ومَن معه وأصدر حكمه عليهم، فليس هناك مجالٌ لحلّ وسطٍ معهم، فهم ليس فقط باغين ومغتصبين بل أصبحوا كفاراً بسبب إصرارهم على البغيّ، وحكمُ الله قاطعٌ فيهم. فهم قالوا لابن عباس «وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا»

إنّ قبول عليّ للتحكيم هو شكٌ في عدالة القضية التي قاتل الناس من أجلها معه. وهذا القبول هو ارتدادٌ بعد إيمان، وشكٌ بعد يقين. وهو خروجٌ على مبادئ الحق والعدل التي استشهد من أجلها كثيرون في الجمل وصفين.

لا يجوز تحكيم الرجال في أمر الله.

وإلى ما قبل مؤتمر التحكيم كانت معارضة الخوارج لعليّ لم تتخذ الشكل المسلّح، فقد كانت هناك حالة انتظار لذلك المؤتمر المرتقب وما سيسفر عنه. ورفض عليّ مطالب الخوارج الأولين بنقض كتاب الصلح مع أهل الشام والعودة الفورية لحرب معاوية من دون انتظار التحكيم، وأصرّ على الالتزام بالعهد وإعطاء الجهود السلمية فرصة، وهو قال لهم أنه بعد إبرام العهد فلا بد من الوفاء به، وأنه ما دام التحكيم شراً فكان ينبغي رفضه من البداية، وليس نقضه بعد الاتفاق عليه:

«قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومَن كان معنا بصفين ثلاث ليالٍ، ونتوب إلى الله من أمر الحكمين، ثم نسير إلى معاوية فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه.

فقال عليّ: فهلاّ قلتم هذا حين بعثنا الحكمين وأخذنا منهم العهد، وأعطيناهموه؟! ألا قلتم هذا حينئذ؟!

قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا، واشتد البأس، وكثر الجراح، وخلا الكراع والسلاح.

فقال لهم: أفحين اشتد البأس عليكم عاهدتم، فلما وجدتم الجمام قلتم ننقض العهد؟! إن رسول الله كان يفي للمشركين أفتأمرونني بنقضه؟!»[1]

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص310)، ولا يمكن تصديق النصف الثاني من الرواية والذي يقر فيه الخوارج بأنهم طالبوا بالسلام مع أهل الشام.

وكانت مهزلة التحكيم وما جرى فيها من استهتار بمصلحة الأمة، بالإضافة إلى حالة اللاحسم التي آلت إليها الأمور، والانقسام الأفقي الكبير في أمة الإسلام وتصدّع مؤسسة الخلافة بما يهدد مستقبل الأمة، ونجاح معاوية وابن العاص في المحافظة على مواقعهم وخروجهم سالمين من مواجهة صفين، هي العوامل الرئيسة التي جعلت الكثيرين في الجانب العراقي يتقبلون دعوة الخوارج. وكانت الخسائر البشرية الضخمة يوم صفين، وشعور الكثيرين أن هذه الدماء كلها سالت بلا نتيجة وأن التضحيات العظيمة ضاعت هباءً، تقدّم دعماً مهماً لدعوة الخوارج الذين كانوا يحمّلون علياً مسؤولية ما جرى.

بدء الانشقاق الفعلي: تبْ إلى الله يا عليّ![1]

عند العودة إلى العراق، انشقّ على عليّ اثنا عشر ألف مقاتل[2] من جيشه، ونزلوا حروراء (قرب الكوفة). وكان من أبرز دعوتهم عبد الله بن الكواء اليشكري، وشبث بن ربعي التميمي، وحرقوص بن زهير السعدي[3] ويزيد بن الحصين الطائي وعبد الله بن وهب الراسبي. وبسبب الموقع الذي اختاروه صاروا يعرفون بالـ«حرورية».

ولمّا علم عليّ بذلك التجمع المتمرّد قرر بذل كل جهد ممكن لإرجاعهم إلى طاعته، بالحسنى. فحتى تلك اللحظة كانت الأمور لا تتعدى خلافاً سياسياً / دينياً في الاجتهاد، ولم تصل الأمور إلى رفع السلاح، رغم

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص54)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج2 ص129)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص192)، مسند أحمد بن حنبل (ج1 ص84)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج3 ص173)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص310)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج2 ص150)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص32)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأربلي (ج1 ص260)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص270).

(2) هذا الرقم الذي تذكره أغلب روايات البلاذري واليعقوبي والطبري، ولكن رواية الإمام أحمد بن حنبل في مسنده تسجل الرقم أقل، حيث قال: «خرج عليه ثمانية آلاف من قرّاء الناس».

(3) وهو نفسه كان من قادة الثورة على عثمان ومن المتهمين بالمشاركة في قتله، وقد نجا بمعجزة من القتل في البصرة عندما وصلتها عائشة والزبير وطلحة لأن قبيلته الكبيرة (تميم) حمته.

كانوا من جماعته، من عسكره، من جيشه، وليس له أي مصلحة في تصعيد الأمور معهم. وكان عليّ واثقاً بقدرته على إقناعهم بصوابية موقفه وبامتصاص غضبهم واستيعابهم مما جرى.

وبدأت المحاججة بين عليّ وبين «الحرورية»، وكانت على مرحلتين: في الأولى أرسل إليهم عبد الله بن عباس ليحاورهم، ومن ثم انتقل هو بنفسه ليتكلم معهم.

ومن أكثر الأمور التي ترد في المصادر بشأن ما طرحوه على عليّ وجهة نظرهم الرافضة لتحكيم الرجال في دين الله[1]. ورداً على ذلك حاول عليّ في نقاشه معهم أن يشرح لهم أن القرآن بحدّ ذاته لا ينطق:

« ... وهذا القرآن إنما هو خطّ مسطور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بدّ له من ترجمان. وإنما ينطق عنه الرجال...»[2]. ويروي الإمام احمد بن حنبل أنه عندما قال الحرورية «لم انطلقت فحكّمت في دين الله. فلا حكم إلا لله تعالى» ردّ عليّ، في معرض إثباته أن كتاب الله لا يتكلم بنفسه، بأن جمع الناس وقرّاء القرآن وأخذ يخاطب المصحف أمامهم طالباً منه أن يتكلم، ثم قال للناس في معرض تفنيد لمقولتهم ان الله قد أمر في كتابه بالتحكيم بين الرجل والمرأة إن خيف الشقاق بينهما «فأمة محمد (ص) أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل»

وفي المصدر الشيعي، كشف الغمة، يقول ابن أبي الفتح الأربلي ان علياً أجابهم بشأن التحكيم انه كان القصد أن يبيّن الحكمان في الخلافة، ولم يكن قبوله شكاً منه في موقفه. وأنه في التحكيم إنما يقتدي برسول الله (ص) الذي حكّم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة.

وتقول المصادر ان «الحرورية» أخذوا على عليّ موافقته على محو لقب «أمير المؤمنين» في كتاب التحكيم، واعتبروا ذلك تنازلاً منه عن الخلافة «انسلخت من قميص اكتساكه الله واسم سمّاك به الله»[4].

---

(1) حسب رواية الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين انهم قالوا «انه حكّم الرجال في أمر الله. وقال الله تعالى: إن الحكم إلا لله. وما للرجال وما للحكم؟»
(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.
(3) البداية والنهاية لابن كثير، وكذلك: مسند احمد بن حنبل

وعلى النقطة بالذات كان لعليّ رد مُفحِمٌ عليها. فقد أجاب مستشهداً بحادثة يوم الحديبية المشهورة وموقف النبي (ص) من سهيل بن عمرو يومها. قال الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين انه عندما قال الحرورية «انه محا نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين» رد عليهم ابن عباس «وأما قولكم: محا اسمه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم: قد سمعتم ان النبي (ص) يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب فقال رسول الله (ص) لأمير المؤمنين: اكتب يا علي، هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله. فقال المشركون: لا والله ما نعلم انك رسول الله. لو نعلم انك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله: اللهم انك تعلم اني رسول الله. اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله خيرٌ من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه»

ولامه بعضهم على أنه «قاتل ولم يسبِ ولم يغنم. فإن كان الذي قاتل كفاراً، لقد حلّ سبيهم وغنيمتهم. ولكن كانوا مؤمنين ما حلّ قتالهم»[1] وقد رد ابن عباس عليهم، حسب رواية الحاكم في المستدرك، بطريقة تحرجهم: لقد قاتلنا أم المؤمنين عائشة، فما رأيكم «وأما قولكم: قاتل ولم يسبِ ولم يغنم، أفتسبون أمكم عائشة؟ ثم يستحلون منها ما يستحلون من غيرها. فلئن فعلتم فقد كفرتم وهي أمكم، ولئن قلتم: ليست أمنا فقد كفرتم. فإن الله يقول: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم. فأنتم تدورون بين ضلالتين أيهما صرتم اليها صرتم الى ضلالة.»[2]

ويمكن القول ان جهود عليّ الحوارية مع الحرورية قد نجحت، ولكن بشكل جزئي ومؤقت. وبعض المصادر تقول ان كلهم اقتنعوا بوجهة نظره وعادوا معه الى الكوفة، ولكن البعض يقول ان قسماً منهم، النواة الصلبة، بقوا على رأيهم ورفضوا العودة معه[3].

---

(1) النص هنا من رواية الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين. ويتضحّ من هذا «الماحك» كيف نشوء الفكر التكفيري لدى الخوارج. فهم يعتبرون الناس نوعين: إما مؤمنين وإما كفار، لا أصل وسط، ولا يعترفون بأن الطرفين ممكن ان يكونا مسلمين.

(2) وفي المصدر الشيعي الصريح، كشف الغمة، يقول ابن ابي الفتح الاربلي ان علياً رد عليهم بشأن حرب الجمل قائلاً بأن هؤلاء مسلمون وتوابعهم لا ذنب لهم، وان القتال كان موجهاً لمن حملوا السلاح من أهل البصرة.

(3) في رواية الحاكم النيسابوري «فرجع من القوم ألفان» وفي مسند احمد بن حنبل «فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب فيهم ابن الكواء». وفي رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى «فرجع منهم ألوف كثير وثبت ألوف على رأيهم».

وأما رواية اليعقوبي في تاريخه فتبدو متأثرة تماما بالايديولوجية المذهبية الشيعية، ولا يمكن أخذها بجدية من ناحية تاريخية. حيث يقول ان الخوارج عددوا أسبابا ثلاثة لنقمتهم على علي:

محا اسمه من إمرة أمير المؤمنين يوم كتب الى معاوية.

ورجعنا عنه يوم صفين فلم يضربنا بسيفه حتى نفيء الى أمر الله[1].

وحكّم الحكمين

وزعم انه وصيّ، فضيّع الوصية!

ويبدو ذلك جلياً في البند الثالث والكلام عن الوصي. ويقول اليعقوبي ان علياً (من خلال ابن عباس) رد عليهم مذكراً اياهم بما فعله الرسول (ص) يوم صلح الحديبية، بشأن النقطة الأولى، وقد قال بخصوص النقطة الثانية «*واما قولكم اني لم أضربكم بسيفي يوم صفين حتى تفيئوا الى أمر الله، فإن الله عز وجل يقول: ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة، وكنتم عدداً جماً، وأنا وأهل بيتي في عدة يسيرة.*

وأما قولكم اني حكّمت الحكمين، فإن الله عز وجل حكّم في أرنب ثمنه ربع درهم فقال: يحكم به ذوا عدل منكم. ولو حكّم الحكمان بما في كتاب الله لما وسعني الخروج من حكمهما»

ثم أضاف رداً على النقطة الثالثة كلاماً لا يمكن أن يصدر الا من جماعة المذهبية الشيعية في فترة لاحقة «*واما قولكم اني كنتُ وصياً فضيعتُ الوصية، فإن الله عز وجل يقول: ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين. أفرأيتم هذا البيت لو لم يحجج اليه أحد كان البيت يكفر؟ ان هذا البيت لو تركه من استطاع اليه سبيلاً كفر، وأنتم كفرتم بترككم اياي لا أنا كفرت بتركي اياكم*»

---

(1) وهنا تحاول الرواية أن ترسخ فكرة أن الخوارج متقلبون في مواقفهم ومتناقضون الى حد اعترافهم بأنهم كانوا مستحقين أن يُضربوا بالسيوف يوم صفين اي يلومون علياً أنه أطاعهم! وهذا كلام لا يمكن قبوله.

وتبدو لي رواية الزهري لدى البلاذري في أنساب الأشراف من أفضل الروايات التي تتحدث عن موضوع الحرورية وكيف تعامل معهم علي. فهي أكثر موضوعية في ذكر أخبار المساجلات بين علي والخوارج. ويمكن الاستنباط منها أن الرد على الحرورية لم يكن على ذلك النحو البسيط والناجح، وأن الخوارج كانوا أكثر تماسكاً في مواقفهم، وأكثر ترابطاً في منطقهم، وأنهم أحرجوا علياً (أو ابن عباس) واضطروه إلى موقف دفاعي في جداله معهم. يقول الزهري: إنه قبيل توجه أبي موسى إلى مؤتمر التحكيم جاء رؤوس الخوارج، حرقوص بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي، إلى علي وقالوا له:

اتق الله وسر إلى عدوك وعدونا، وتب إلى الله من الخطيئة، وارجع عن القضية.

فقال علي: أما عصيتكم؟ فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم، فتواكلتم ووهنتم وأصابكم ألم الجراح فجزعتم وعصيتموني. وأما القضية فليست بذنب، ولكنها التقصير وعجز أتيتموه وأنا له كاره، وأنا أستغفر الله من كل ذنب!

وأخرج البلاذري رواية أخرى عن الشعبي، وفيها أنه لما رجع الحرورية مع علي ودخلوا الكوفة، *جعل الناس يقولون: تاب أمير المؤمنين وزعم أن الحكومة كفر وضلال. وإنما ننتظر أن يسمن الكراع ثم نشخص إلى الشام. فبلغ ذلك علياً فقال: كذب من قال أني رجعت عن القضية وقلت إن الحكومة ضلال.*

وكانت الحرورية قد سكنت، فعادت بعد إلى التحكيم!

فالظاهر أن علياً أراد أن يساير هؤلاء المعارضين ويستميلهم إلى صفه، خاصة وهو يعلم أنهم الأكثر تصميماً على القتال من بين أتباعه وبالتالي ليس من الحكمة أن يفقدهم. فلا يبعد أن يكون استخدم معهم عبارة عامة مثل «أستغفر الله من كل ذنب» ففهموا منه أنه قد وافقهم

على رأيهم. ولكن الفراق حصل حين بدأ علي يسمع ما يثيره من توبته وندمه، وبالتالي عزمه على نقض اتفاق التحكيم مع أهل الشام، فقرر أن يضع النقاط على الحروف ويوضح لهم انه لا يمكن له أن يغدر أو ينقض العهود والمواثيق.

وقد أشار ابن أبي الحديد الى قريب من هذا الرأي، مع تخصيص الأشعث بن قيس باللوم لأنه هو بالذات الذي أصرّ على استيضاح رأي علي علناً مما أفسد عليه الخوارج الذين كانوا اكتفوا منه بمقولته التي فهموها على رأيهم. وقد بالغ في كلامه عن الاشعث الى حد القول أنه لولاه لما وقعت حرب النهروان. قال ابن أبي الحديد: «كل فساد كان في خلافة علي، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث. ولولا محاقته أمير المؤمنين في معنى الحكومة في هذه المرة لم تكن حرب النهروان، ولكان أمير المؤمنين ينهض بهم الى معاوية ويملك الشام. فإنه عليه السلام حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والمواربة. وفي المثل النبوي صلوات الله على قائله: الحرب خدعة. وذاك انهم قالوا له: تب الى الله مما فعلت كما تبنا، ننهض معك الى حرب أهل الشام. فقال لهم كلمة مجملة مرسلة يقولها الانبياء والمعصومون وهي قوله: أستغفر الله من كل ذنب. فرضوا بها وعدوها إجابة لهم الى سؤالهم وصفت له نياتهم، واستخلص بها ضمائرهم من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب. فلم يتركه الاشعث وجاء اليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال، وهاتكاً ستر التورية والكناية، ومخرجاً لها من ظلمة الاجمال وستر الحيلة الى تفسيرها بما يفسد التدبير ويوغر الصدور ويعيد الفتنة. ولم يستفسره عنها إلاّ بحضور من لا يمكنه عليه السلام أن يجعلها معه هدنة على دخن، ولا ترققا عن صبوح، والجأه بتضييق الخناق عليه الى أن يكشف ما في نفسه، ولا يترك الكلمة على احتمالها، ولا يطويها على غرها. فخطب بما صدع به عن صورة ما عنده مجاهرة فانتقض ما دبره وعادت الخوارج الى شبهتها الاولى...»

وأخرج الطبري في تاريخه روايات عن أبي مخنف تقارب ما رواه

البلاذري أعلاه. فرواية تقول أنه لما اجتمع الخوارج في حروراء أرسل إليهم علي ابن عباس فرجع ولم يصنع شيئاً.

فخرج إليهم علي فكلمهم حتى وقع الرضا بينه وبينهم. فدخلوا الكوفة.

فأتاه رجل[1] فقال: إن الناس قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك!!

فخطب الناس في صلاة الظهر، فذكر أمرهم فعابه. فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم إلا لله ....»

ورواية أخرى لأبي مخنف تقول «إن علياً لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي فدخلا عليه فقالا له لا حكم إلا لله.

فقال علي: لا حكم إلا لله.

فقال له حرقوص: تُبْ من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا.

فقال لهم علي: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابا وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا وقد قال الله عز وجل {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون}

فقال له حرقوص: ذلك ذنبٌ ينبغي أن تتوب منه

فقال علي: ما هو ذنبٌ، ولكنه عجز من الرأي وضعفٌ من الفعل. وقد تقدمتُ إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه ....»

ويلاحظ في الروايات تكرار الخوارج قولهم لعلي أنهم يرفضون «إعطاء الدنية في ديننا» فإن إعطاء الدنية في الدين إدهان في أمر الله عز وجل، وباء راجع بأعماله إلى سخط الله»

---

(1) وبالنظر إلى كلام ابن أبي الحديد أعلاه يكون هذا الرجل هو الأشعث بن قيس.

في الطريق الى النهروان: اشهد على نفسك بالكفر يا علي![1]

رغم ان علياً نجح مؤقتاً في احتواء أزمة «الحرورية» واقنعهم، أو أغلبهم بالعودة معه الى الكوفة إلّا أن التطورات المتلاحقة سرعان ما نقضت كل عمله وأطاحت كل جهوده. فقد ظهرت نتائج مؤتمر التحكيم الكارثية بالنسبة الى عليّ. وكانت هذه الفاصلة بينه وبين الخوارج. فمن جهة رفض عليّ النتائج وأعلن أن كل ما صدر عن الحكمين باطل، وبدأ الاستعداد لجولة جديدة من العمل العسكري ضد معاوية وأهل الشام. ومن جهة أخرى رأى الخوارج، أو الحرورية، أو المحكّمة، أو كل الذين كانوا قد عارضوا وقف القتال واللجوء للتحكيم، في هزيمة التحكيم ما يدعم حجتهم ويقوّي موقفهم. ولسان حالهم يقول: أرأيتم، هذا ما حذرنا منه وعارضناه، بينما قبله عليّ.

عندها حاول عليّ أن يتواصل معهم ليقول: هلموا بنا من جديد الى حرب أهل الشام. هذا ما أردتم وهذا ما أريده الآن، فهيا بنا يداً واحدة من جديد الى قتال القاسطين معاوية وأهل الشام. ولكن هيهات. لم يكن الأمر سهلاً كما ظنه عليّ. فهؤلاء قد أسقطوه من اعتبارهم كزعيم وخليفة، ولم يعد يصلح للقيادة وليس لديهم استعداد أن يسيروا تحت رايته من جديد. ولذلك ألقوا بشرط تعجيزيّ: اشهد على نفسك بالكفر أولاً! وبدأ الخوارج في الكتابة إلى مَن هو على رأيهم من أهل البصرة، فانضمّ إليهم 500 رجل بقيادة مسعر بن فدك التميمي والأشرس بن عوف الشيباني.

روى الدينوري في الاخبار الطوال ان علياً أرسل كتاباً موجهاً الى قيادات الحرورية، عبد الله بن وهب الراسبي ويزيد بن الحصين ومن تبعهما، وكانوا قد تجمعوا من جديد واتجهوا الى النهروان، وهو مكان قرب بغداد الحالية، يقول فيه *«فإن الرجلين اللذين ارتضيناهما للحكومة خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله. فلما لم يعملا بالسنة ولم يحكما بالقرآن تبرّأنا من حكمهما ونحن على أمرنا الأول. فأقبلوا إليّ رحمكم الله، فإنا سائرون*

---

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص128)، الاخبار الطوال للدينوري (ص207-209)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص168)، مسند احمد بن حنبل (ج1 ص87)

على عدونا وعدوكم لنعود لمحاربتهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين»

فكان الجواب في كتابهم «أما بعد: فإنك لم تغضب لربك، ولكن غضبت لنفسك! فإن شهدت على نفسك أنك كفرت فيما كان من تحكيمك الحكمين، واستأنفت التوبة والإيمان، نظرنا فيما سألتنا من الرجوع إليك. وإن تكن الأخرى فإنا نابذناك على سواء. إن الله لا يهدي كيد الخائنين»

ويروي البلاذري أن زعماء الخوارج أجابوا عليا «فقالوا: دعوناك إلى كتاب الله والعمل به فأجبناك وبايعناك وقد قتلت في طاعتك قتلانا يوم الجمل وصفين، ثم شككت في أمر الله وحكّمت عدوك! ونحن على أمرك الذي تركت وأنت اليوم على غيره. فلسنا منك إلا أن تتوب وتشهد على نفسك بالضلالة»

ويروي ابن قتيبة في الإمامة والسياسة «كتب عليّ إلى الخوارج حينما تجمعوا في النهروان بينما هو قد شرع في المسير إلى أهل الشام يحاربهم:

«... ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة؟

وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم: قد عرفتهم أطفالاً وعرفتهم رجالاً؟ فهم شر رجال، وشر أطفال! وهم أهل المكر والغدر.

وإنكم إن فارقتموني ورأيي، جانبتم الخير والحزم، فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكّمتُ. فلما أن فعلتُ، شرطتُ واستوثقتُ. وأخذتُ على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يُميتا ما أمات القرآن. فاختلفا، وخالفا حكم الكتاب والسنة وعملا بالهوى

فنبذنا أمرهم. ونحن على أمرنا الأول. فما بالكم ومن أين أتيتم؟

فقالوا له: إنا حيث حكّمنا الرجلين أخطأنا بذلك، وكنا كافرين، وقد تبنا من ذلك. فإن شهدت على نفسك بالكفر، وتبت كما تبنا وأشهدنا، فنحن معك ومنك! وإلاّ فاعتزلنا. وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء.

فقال علي: أبعد إيماني بالله، وهجرتي وجهادي مع رسول الله، أبوء وأشهد على نفسي بالكفر؟! لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين. ويحكم بما استحللتم قتالنا والخروج من جماعتنا؟ أن اختار الناس رجلين فقالوا لهما: انظرا بالحق فيما يصلح العامة، ويعزل رجلٌ، ويوضع آخر مكانه، أحل لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم، تضربون بها هامات الناس وتسفكون دماءهم؟ إن هذا لهو الخسران المبين.

فتنادوا: لا تخاطبوهم ولا تكلموهم. تهيؤوا للقاء الرب. الرواح الرواح إلى الجنة!»

وفي هذا النص يذكّر عليٌ الخارجين عليه بأنه لم يُرد وقف القتال في صفين، وأنه إنما فعل ذلك تحت الضغط. وهو أيضا يحاول أن يبسّط لهم مسألة التحكيم التي جرت، على أساس أنها كانت في الأساس من أجل عزل معاوية وإعلان حق عليّ، لا أكثر. وأنه لما لم يحصل ذلك فالواجب هو مواصلة الجهاد ضد أهل المكيدة!

وطبعاً كان جواب الخوارج مُحبطاً جداً لعلي، فيئس منهم وقرر أن يتركهم وشأنهم، وأن يسير هو وقواته الى الشام بدونهم. روى الامام أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن شداد في معرض وصفه لعائشة أم المؤمنين لما جرى، ان أهل حروراء الذين بقوا على رأيهم كانوا اربعة آلاف، فأرسل لهم علي يقول انه سيتركهم على حالهم ولن يتعرض لهم على «أن لا تسفكوا دماً حراماً، او تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء إن الله لا يحب الخائنين.»

وقفة: روايات تسفيهية للخوارج

ان محاججة عليّ للخوارج قبل معركة النهروان مناسبة لكي تكون مثالاً على الروايات الكثيرة المصممة لذمّهم والقدح فيهم واظهارهم بلا حجة ولا منطق. ورغم ان المصادر الشيعية التي تحدثت عن محاججة الخوارج قبل معركة النهروان لا تختلف في إطارها العام عما ورد في غيرها، الاّ في

سوف أخذ أحدهما كمثال على الفكرة. فابن أبي الفتح الاربلي في كتابه كشف الغمة[1] اورد روايتين حول الجدالات مع الخوارج. وفي كلتيهما ان الذي حاجج الخوارج هو علي نفسه بعد ان لم ينجح ابن عباس في اقناعهم أو لم يرغبوا في سماعه.

وفي الرواية الأولى يظهر ابن الكواء، زعيم الخوارج، في غاية الضعف أثناء الجدال، ويكتفي بالموافقة على كل ما يقوله علي ببساطة! وفي النهاية يرجع عن رأيه ويعود مع علي بعد وعد منه بالعودة الى قتال اهل الشام حين تنتهي المدة المضروبة. وليس في الرواية أي دفع من جانب ابن الكواء لحجج علي، ولا دفاع عن رأي الخوارج. تقول الرواية ان عليا قال له بشأن رفع المصاحف على الرماح وأمر الحكمين:

«ألم أقل لكم ان أهل الشام يخدعونكم بها، فإن الحرب قد عضتهم فذروني أناجزهم فأبيتم؟! ألم أرد أن أنصب ابن عمي حكماً، وقلت انه لا ينخدع فأبيتم إلا أبا موسى الاشعري؟! وقلتم رضينا به حكماً فأجبتكم كارهاً ولو وجدت في ذلك الوقت أعواناً غيركم لما أجبتكم، وشرطت على الحكمين بحضوركم أن يحكما بما أنزل الله من فاتحته الى خاتمته والسنة الجامعة، وأنهما إن لم يفعلا فلا طاعة لهما علي.

كان ذلك أم لم يكن؟

قال ابن الكواء: صدقت. قد كان هذا كله! فلم لا نرجع الآن الى محاربة القوم؟

فقال: حتى تنقضي المدة التي بيننا وبينهم.

قال ابن الكواء: وأنت مجمع على ذلك؟

قال: نعم ولا يسعني غيره.

فعاد ابن الكواء والعشرة الذين معه الى اصحاب علي عليه السلام راجعين عن دين الخوارج وتفرق الباقون وهم يقولون: لا حكم إلا لله»

---

(1) ج1 ص268

والرواية الثانية تتحدث عن جولة أخرى للجدال خاضها علي مع بقية الخوارج، وهو يجيبهم على اعتراضهم بأنه لم يُبح سبي النساء يوم الجمل بأن هؤلاء مسلمون وذراريهم لا ذنب لهم، وان القتال كان موجها لمن حملوا السلاح من اهل البصرة. ويجيبهم بأنه محا إمرة المؤمنين من اسمه اقتداء برسول الله (ص) يوم الحديبية. وبشأن التحكيم يقول لهم انه كان قصده أن يثبت المحكمان في الخلافة ولم يكن قبوله شكاً منه في موقفه، وانه ليس مسؤولا عن خداع ابن العاص لأبي موسى، وأنه في التحكيم أيضا يقتدي برسول الله(ص) الذي حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة. ويقال لهم علي بعد ذلك:

فهل بقي عندكم شيء؟ فسكتوا، وصاح جماعة منهم من كل ناحية: التوبة التوبة يا أمير المؤمنين! واستأمن إليه ثمانية آلاف، وبقي على حربه أربعة آلاف

ممارسات الخوارج الفظيعة[1]

وترجم الخوارج تشنجهم الفكري إلى جرائم وحشية ارتكبها عناصرهم ضد مسلمين كثيرين ممن هم في طاعة عليّ، وكان أبرز تلك الحوادث ما صنعوه بعبد الله بن خباب بن الأرت، الذي هو ابن واحد من الصحابة الأولين، والذي كان مع عليّ في الجمل وصفين. ألقى عناصر من الخوارج القبض عليه واستجوبوه، ولما عبّر عن رأي إيجابي بعليّ قتلوه بلا رحمة. وهناك اجماع في الروايات على ذلك.

وفيما يلي رواية ابي مخنف في تاريخ الطبري حول مقتل عبد الله بن خباب على يد الخوارج.

«ان الخارجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من اخوانها بالنهر، فخرجت عصابة منهم فاذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا

(1) تاريخ الطبري (ج4 ص60-61)، تاريخ خليفة بن خياط (ص109)، الاخبار الطوال للدينوري (ص206-207)، مسند احمد بن حنبل (ج1 ص87)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج2 ص280 - 282).

اليه فذعروه، فتهددوه وأفزعوه وقالوا له: من أنت؟ قال: انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله(ص).

ثم أهوى الى ثوبه يتناوله من الارض وكان سقط عنه لما أفزعوه. فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم.

قالوا له: لا روع عليك، فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي (ص) لعل الله ينفعنا به.

قال: حدثني ابي عن رسول الله (ص) ان فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه يمسي فيها مؤمنا ويصبح فيها كافراً ويصبح فيها كافرا ويمسي فيها مؤمناً.

فقالوا: لهذا الحديث سألناك. فما تقول في ابي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقا في أولها وفي آخرها.

قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟

قال: انه أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة.

فقالوا: انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً !

فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به بامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا تحت نخل مواقر فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه. فقال أحدهم: بغير حلها وبغير ثمن؟ فلفظها من فمه. ثم أخذ سيفه فأخذ يمينه فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه بسيفه فقالوا: هذا فساد في الارض. فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره.

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس. اني لمسلم ما أحدثت في الاسلام حدثاً، ولقد آمنتموني

قال: لا روع عليك.

فجاؤوا به فأضجعوه فذبحوه، وسال دمه في الماء. وأقبلوا إلى المرأة فقالت: إني إنما أنا امرأة ألا تتقون الله؟! فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

فبلغ ذلك عليا ومن معه من المسلمين من قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس. فبعث إليهم الحارث بن مرة العبدي ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسائلهم فخرج القوم إليه فقتلوه...»[1]

ويبدو لي أن هناك من الرواة من أراد تضخيم ممارسات الخوارج وما ارتكبوه من مخالفات أو جرائم. وذلك ظاهر من النصوص التي تتحدث عن قتلهم لابن خباب. فالروايات لا تشير إلى سبب مقنع دفعهم إلى ارتكاب تلك الجريمة. وهناك تناقض في الروايات نفسها التي تتحدث عن اعتذارهم عن قتل خنزير لأهل الذمة بغير إذن وبين إقدامهم على قتل ابن صحابي مسلم بلا سبب. ومن بلغ به الورع إلى حد استنكاره تناول ثمرة من الأرض لا يمكن أن يقدم على القتل بكل بساطة. فلا شك أن هذه الروايات تم تشويهها لكي تسيء إلى سمعة الخوارج وتبرر للإمام علي قتلهم فيما بعد. ومن ثنايا رواية أبي مخنف يمكن الحصول على بعض الضوء عما قد حصل بالفعل. فما يمكن ملاحظته أن الذين قتلوا ابن خباب هم الخوارج القادمون من البصرة (ومسروق ان هؤلاء كان يتوجههم مسعر بن فدكي التميمي) وليس نواة الخوارج المجتمعين في النهروان. وبالتالي فالجريمة ارتكبها الفرع وليس الأصل. كما يظهر أن الجريمة قد حصلت بعد أخذ ورد فيما بينهم وبينه (قد عرف فهددوه) وربما يكون قد استفزهم خلاله برفضه لآرائهم.

---

(1) ويشير هذه الرواية أخرجها ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلا عن «أبي العباس». وكملاحظة في الاختصار أشير وأما خليفة بن خياط فكشفت في الاختصار أمرج الخبر في معرض حديثه عن سنة 38 كما يلي: «وفيها قتلت الخوارج عبد الله بن خباب بن الأرت، وعليهم مسعر بن فدكي» ولم يذكر من ممارساتهم المتطرفة أو الدموية شيئا آخر.

وأما بقرهم لبطن الحبلى فلا يمكن تصديق ذلك مهما بلغ بنا سوء الظن بالخوارج.

ونحن لا نحاول تبرئة الخوارج من دم ابن خباب، ولكن نحاول وضع ما حصل في سياقه الصحيح.

وقال الدينوري في الأخبار الطوال أن الخوارج الذين قدموا من البصرة كانوا 500 رجل وأنهم «كانوا في جميع مسيرهم لا يلقون أحداً إلا قالوا له: ما تقول في الحكمين؟ فإن تبرأ منهما تركوه وإن أبى قتلوه»

وأضاف أن علياً لما نوى التوجه إلى الشام مرة أخرى «فلما تهيأ للمسير أتاه عن الخوارج أخبار فظيعة، من قتلهم عبد الله بن خباب وامرأته. وذلك أنهم لقوهما فقالوا لهما: أرضيتما بالحكمين؟ قالا: نعم. فقتلوهما وقتلوا أم سنان الصيداوية، واعترضوا الناس يقتلونهم. فلما بلغه ذلك بعث إليهم الحارث بن مرة الفقعسي ليأتيه بخبرهم فأخذوه فقتلوه»

ويروي أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن شداد في معرض وصفه لعائشة أم المؤمنين لما جرى، في العراق...

«فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا ابن شداد، فقد قتلهم؟

فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم واستحلوا أهل الذمة»

وتابع هؤلاء غلوّهم، وشاعت أخبار ممارساتهم بين العامة حتى لجأ البعض إلى التعامل معهم بالطريقة التي يفهمونها، روى ابن أبي الحديد:

«قال أبو العباس: ثم مضى القوم إلى النهروان وقد كانوا أرادوا المضي إلى المدائن. فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم واستوصوا بالنصراني، وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم!

قال أبو العباس: ونحو ذلك إن واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل في رفقة فأحسوا بالخوارج. فقال واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم،

فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وقد كانوا أشرفوا على العطب. فقالوا: شأنك. لنخرج إليهم.

فقالوا: ما أنت وأصحابك؟

قال: قوم مشركون مستجيرون بكم ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده.

قالوا: قد أجرناكم.

قال: فعلمونا.

فجعلوا يعلمونهم أحكامهم ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي.

قالوا: فامضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغونا مأمننا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾.

قال: فينظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم. فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن!

النهروان: مذبحة الخوارج[1]

ولم يعد عليّ قادراً على تجاهل الخوارج أكثر من ذلك، بعد تلك الروح العدائية الخطيرة التي أظهروها. فمتابعة المسير إلى الشام وترك هؤلاء في الكوفة يحمل في طياته خطراً شديداً على عاصمة عليّ ومعقله. لا يجوز لعليّ أن يسير بكل قواته بعيداً، ويترك عاصمته بلا دفاع تحت رحمة أولئك المهووسين. وقد كان احتمال قيامهم بالاستيلاء الفعلي على الكوفة وغيرها من البلاد العراقية كبيراً جداً. فكيف سيكون شعور جيشه وهم يجاهدون أهل

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص128 وص144)، الأخبار الطوال للدينوري (ص207-220)، تاريخ الطبري (ج6 ص43-65)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص144)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص212 وص269 وج3 ص116)، تاريخ خليفة بن خياط (ص149)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص193)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص559)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص292).

الشام خصمهم أبناء لا تسرّه من وقوع أهلهم وذراريهم وأموالهم بأيدي هؤلاء الخوارج؟

كانت الامور تسير باتجاه المواجهة العسكرية. وتوجّه عليّ في شعبان[1] من عام 38 بجيشه الى النهروان حيث مكان تجمعهم. ولكن قبل الاشتباك يبذل عليّ محاولة أخيرة لاقناعهم بالتراجع عن تمردهم بالحسنى. فدخل في جدال حيّ من جديد. نفس الحجج ونفس المجادلة التي كانت بحروراء تتكرر الآن!

روى الدينوري في الاخبار الطوال انه قبيل معركة النهروان طلب علي من الخوارج أن يخرجوا له رجلاً مفوضاً منهم ليكلمه قبل بدء القتال، فأخرجوا له عبد الله بن الكواء:

« فقال علي رضي الله عنه: يا ابن الكواء، ما الذي نقمتم علي بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لي؟ فهلا برئتم مني يوم الجمل؟

قال ابن الكواء: لم يكن هناك تحكيم.

فقال علي: يا ابن الكواء، أنا أهدى أم رسول الله(ص) ؟

قال ابن الكواء: بل رسول الله(ص).

قال: فما سمعت قول الله عز وجل (فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم). أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون؟

قال: ان ذلك احتجاج عليهم. وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين. فنحن أحرى أن نشك فيك.

قال: وان الله تعالى يقول (فأتوا بكتاب من عند الله، هو اهدى منهما، اتبعه.

قال ابن الكواء: فذلك أيضاً احتجاج منه عليهم.

(1) تاريخ خليفة بن خياط. والبلاذري يقول ان المعركة وقعت يوم 9 صفر سنة 38. واما اليعقوبي فيقول ان حرب النهروان وقعت سنة 39]

فلم يزل علي عليه السلام يحاج ابن الكواء يهفنا ويشبهه.

فقال ابن الكواء: أنت صادق في جميع ما تقول. غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين.

فقال علي: ويحك يا ابن الكواء! إني إنما حكمت أبا موسى وحده وحكم معاوية عمراً.

قال ابن الكواء: فإن أبا موسى كان كافراً.

فقال علي: ويحك! متى كفر؟ أحين بعثه أم حين حكم؟

قال: لا. بل حين حكم.

قال: أفلا ترى أني إنما بعثته مسلماً، فكفر في قولك بعد أن بعثته؟ أرأيت لو أن رسول الله (ص) بعث رجلاً من المسلمين إلى أناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره، هل كان على رسول الله (ص) من ذلك شيء؟

قال: لا.

قال: ويحك! فما كان عليّ إن ضلّ أبو موسى؟ أفيحلّ لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟

فلما سمع عظماء الخوارج ذلك قالوا لابن الكواء: انصرف ودع عنك مخاطبة الرجل، فانصرف إلى أصحابه، وأبى القوم إلا التمادي في الغيّ.

وبكل تأكيد، لم يكن عليّ يريد إبادة هؤلاء أو قتلهم وكان مصرّاً على إعطائهم فرصة التراجع والاستسلام حتى آخر لحظة، فبسط لهم راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري، الصحابي الشهير لكي يلجأ إليها مَن أراد الخروج من جيشهم وأمره أن يصيح بهم:

«من جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن، ومن دخل المصر فهو آمن، ومن انصرف إلى العراق وترك هذه الجماعة فهو آمن، فإنه لا حاجة لنا في سفك دمائكم»[1]

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة، وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ الطبري.

وأدّت مجهودات عليّ الى تراجع قسم من الخوارج عن موقفهم. ويبدو أن العناصر التي لم تكن مؤدلجة كثيراً استشعرت بالحجة وبالخطر فقررت التراجع. قال الطبري (عن ابي مخنف) انه بعد أن حاججهم علي انسحب فروة بن نوفل الاشجعي، وكان من رؤسائهم، ومعه 500 فارس حتى نزلوا البندنيجين والدسكرة، واعتزلوا القتال، بعد أن شك في شرعية قتال علي. وخرجت طائفة أخرى منهم متفرقين فتركوا النهروان وعادوا الى الكوفة، وانضم منهم الى علي نحوٌ من مائة. وأضاف الدينوري أن ألفاً آخرين قد لجأوا الى راية الامان التي نصبها علي.

ولكن القاعدة الصلبة من الخوارج بقيت على حالها، مصممة على رأيها. روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عن ابي عبيدة معمر بن المثنى:

«استنطقهم علي عليه السلام بقتل عبد الله بن خباب، فأقروا به.

فقال: انفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة.

فتكتبوا كتائب وأقرت كل كتيبة بمثل ما أقرت به الاخرى، بقتل ابن خباب.

وقالوا: ولنقتلنك كما قتلناه»

وروى الطبري في تاريخه ان علياً بعث اليهم «ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتى ألقى أهل الشام، فلعلّ الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما أنتم عليه من أمركم.

فبعثوا اليه فقالوا: كلنا قتلتهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم»

لقد فشلت كل محاولات عليّ في إقناع القاعدة الصلبة من الخوارج بالعودة إلى صفوفه، فاضطر اخيراً إلى الدخول في المجابهة المسلّحة. روى الدينوري في الاخبار الطوال «قال علي لأصحابه: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم. فنادت الخوارج: لا حكم إلا لله وإن كره المشركون.

ثم شدوا على أصحاب علي شدة رجل واحد فلم تثبت خيل علي لشدتهم. وافترقت الخوارج فرقتين، فرقة أخذت نحو الميمنة وفرقة أخرى نحو الميسرة.

وعطف عليهم أصحاب علي، وحمل قيس بن معاوية البرجمي، من أصحاب علي، على شريح بن أبي أوفى فضربه بالسيف على ساقه، فأبانها. فجعل يقاتل برجل واحدة وهو يقول: الفحل يحمي شوله معقولا. فحمل عليه قيس بن سعد فقتله. وقتلت الخوارج كلها ربضة واحدة»[1]

وبعد أن أمر عليّ كرّاته بالهجوم، تحول الأمر إلى ما يشبه المذبحة لهؤلاء الخوارج. فأعداد أولئك الذين أصرّوا على موقفهم وقرروا القتال تراوحت ما بين 2800 – 4000 [2] رجل حسب معظم الروايات. وتحدث خليفة بن خياط في تاريخه عن القيادة العسكرية الميدانية لقوات الخوارج، وذكر أسماء قياداتهم الذين خاضوا المعركة وهم: عبد الله بن وهب الراسبي (وليهم كلهم)، وحرقوص بن زهير السعدي (على الميمنة)، وشبيب بن بجرة الأشجعي (على الميسرة)، وشريح بن أوفى العبسي (صاحب رايتهم).[3]

وواجههم عليّ بجيش من 14000 رجل. فلم يكن هناك تكافؤ عسكري بين الطرفين.

ورغم ذلك ثبت هؤلاء الخوارج صلابتهم الشديدة وتصميمهم الفريد[4]. فقاتلوا بأسلوب عقائدي واضح. وتشير الروايات إلى أن جميع

(1) ربضة واحدة: أي قتلوا كلهم في بقعة واحدة.
(2) اليعقوبي يقول إنهم 4000، والطبري قال: 2800 رجل، والدينوري قال: خلص مع عبد الله بن وهب (لا أقل من أربعة آلاف رجل). ونصر بن مزاحم رفع العدد إلى 5000. وأما البلاذري فقد هبط بالرقم إلى 1800 رجل. ويقال إنهم 1500.
(3) ورواية الطبري فيها نفس هذه الأسماء ولكن مع ذكر يزيد بن الحصين بدلا من شبيب بن بجرة.
(4) وسوف يبقى الاستبسال في القتال ابتغاء مرضاة الله صفة ملازمة للخوارج جيلا بعد آخر. والوصف التالي الذي يرد على لسان أحد قادتهم أثناء إحدى ثوراتهم الملتهبة ضد الأمويين، أيام مروان بن محمد بن عبد الملك يوضح ذلك (من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد):

« ... نعم والله إن أصحابي لشباب مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم. قد باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا. قد خلطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم. منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن. كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار. وكلما مروا بآية رجاء شهقوا شوقا إلى الجنة. وإذا نظروا إلى السيوف قد انتضيت، وإلى الرماح قد أشرعت، وإلى السهام قد

جيشهم قد قتل في المعركة باستثناء الذين جرحوا وأصيبوا، وهم حوالي الـ 400 رجل، فرد عليّ رؤسهم إلى قبائلهم.

والمصادر تتحدث بشكل غريب عن خسائر المعركة، حيث يبدو وكأن الأمر مقتلة من جانب واحد! فبعض الروايات تقول ان من قتل من طرف جيش عليّ كانوا عشرة فقط! أو حسب تعبير رواية الطبري «والتحمت الحرب بينهم مع زوال الشمس، فأقامت مقدار ساعتين من النهار، فقتلوا من عند آخرهم وقتل ذو الثدية، ولم يفلت من القوم إلاّ أقل من عشرة، ولم يقتل من أصحاب علي إلاّ أقل من عشرة».

وقال خليفة بن خياط في تاريخه: انه نجا منهم أبو بلال مرداس بن أدية، وشبيب بن بجرة والمستورد بن علفة، والبرك صاحب معاوية، ووردان بن مجمع العكلي. وقتل من أصحاب علي يزيد بن نويرة الانصاري وابو نعيم عقبة بن عامر الجهني. وأضاف:

«فقتل عبد الله بن وهب وأصحابه، إلاّ قليلاً منهم.... أتيهم علي فقتلوا، وقتل من أصحاب علي اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً».

ولكن طبعاً لا يمكن تصديق هكذا روايات، فلا يعقل أن يُباد جيش الخوارج بركته، وهم حوالي 4000 رجل من المتحمّسين شديدي البأس، دون أن يقتلوا من جيش عليّ سوى عشرة! فالأصح هو ما أورده نصر بن مزاحم من أرقام بشأن خسائر جيش عليّ في معركة النهروان، حيث ارتفع بالرقم الى 1300 رجل. هذا رغم يمكن تصديقه اذا سلّمنا بأن جيش الخوارج الذي قد يصل الى 4000 رجل قد أبيد كله، أو غالبيته الساحقة.

وقد وصف الطبري القتال فقال ان الخوارج «تنادوا: الرواح الرواح الى الجنة! فشدّوا على الناس، والخيل أمام الرجال، فلم تلبث خيل المسلمين

نوفت، وارتفعت الكثبة بصراخ الموت، استغفروا وسبحوا هذه رحمة الله وانتصروا لها. فطوبى لهم وحسن [illegible] من حين في مقدار [illegible] فكأنما يكفي بها صاحبها من عشية الغداة وكم من يد قد أبينت من ساعدها [illegible] صاحبها [illegible] في خامة الهدى

لشدتهم، وافترقت الخيل فرقتين: فرقة نحو الميمنة وأخرى نحو الميسرة، وأقبلوا نحو الرجال فاستقبلت المرامية وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف. فوالله ما لبثوهم أن أناموهم.

ثم إن حمزة بن سنان صاحب خيلهم لما رأى الهلاك نادى أصحابه أن انزلوا فذهبوا لينزلوا فلم يتقاروا حتى حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءتهم الخيل من نحو علي فأهمدوا في الساعة.

وأضاف أبو مخنف رواية أخرى عن حكيم بن سعد قال: فما هو إلاّ أن لقينا أهل البصرة فما لبثناهم. فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا قبل أن تشتد شوكتهم وتعظم نكايتهم.

ثم أخرج الطبري رواية أخرى عن أبي مخنف يظهر فيها مدى الاستبسال في القتال الذي أظهرته العناصر المتحمسة من الخوارج:

فوقع شريح بن أوفى إلى جانب جدار فقاتل على ثلمة فيه طويلاً من نهار. وكان قتل ثلاثة من همدان. فكان يرتجز ويقول:

قد علمت جارية عبسية ... ناعمة في أهلها مكفية

أني سأحمي ثلمتي العشية

فشدّ عليه قيس بن معاوية الدهني فقطع رجله. فجعل يقاتلهم ويقول:

القرمُ يحمي شوله معقولا

ثم شدّ عليه قيس بن معاوية فقتله. فقال الناسُ:

اقتتلت همدانُ يوماً ورجُلْ ... اقتتلوا من غدوة حتى الأصلْ

ففتح اللهُ لهمدانَ الرجُلْ

وقال شريح:

أضربهم ولو أرى أبا حسن ... ضربته بالسيف حتى يطمئن

وقال:

أضربهم ولو أرى عليا ... ألبسته أبيض مشرفيا

وهكذا فإن الشاميّ قد عابوا على قبيلة همدان الضخمة عجزها عن قتل رجل من الخوارج، حتى استهزؤوا بهم ووصفوا قتلها له أخيراً بالفتح! وذلك يدل على مدى الشجاعة التي تميز بها شريح. ولا شك أن الكثيرين غيره كانوا لا يقلون عنه حماساً وهم يصرخون: الرواح إلى الجنة!

فهل يعقل أن هؤلاء لم يقتلوا من جيش علي سوى عشرة؟!

****

وكان الذي حصل في معركة النهروان، مأساة حقيقية، تضاف إلى سلسلة الكوارث التي ألمّت بعليّ، وبالجانب العراقي ككل. فهذا الاقتتال الداخليّ الطاحن، والذي خلّف الآف القتلى، هو آخر ما يحتاجه العراقيون بعد الجمل وصفين.

مرة أخرى، وجدت القبائل العربية في العراق، التي هي بمجملها موالية للخليفة عليّ، مجبرة على قتل عدد كبير من أبنائها هي بالذات.

وانصرف العراقيون بعد تلك المعركة الطاحنة إلى لملمة جراحهم، وعدّ خسائرهم، وتقييم ما جرى.

والمفارقة أنه كل عقد الحرب والقتال كانت بين فريقين يتفقان على ضرورة وجوب العودة إلى قتال معاوية وجيشه! فعليّ يريد ذلك ويسعى له بكل قوته. والخوارج كذلك، بل هم يتطرفون تجاه أهل الشام أكثر من عليّ، فاعتبروهم كفاراً وقتالهم جزءاً من صحة العقيدة بينما اعتبرهم عليّ فاسقين وظالمين وضالين ولكن ليس كفاراً.

والنتيجة كانت أن علياً، بقتله معظم قوات الخوارج، سوف يفقد العناصرَ الأشدَّ حماسة واستعداداً من بين أهل العراق لاستئناف الحرب ضد معاوية. وسوف يعاني عليّ الأمرين وهو يحاول حشد بقية جيوشه وأهل العراق للعودة إلى الحرب. ولن ينجح.

كان ذلك تطوراً عجيباً للأحداث، وذا أثر مدمر على مستقبل عليّ في المرفق.

وكان الأثر الاجتماعي لما حصل عظيماً، حتى أن امرأة أتت علياً وهو جالسٌ في المسجد وقالت له:

«يا من قتل الرجال، وسفك الدماء، وأيتم الصبيان، وأرمل النساء!»[1]

****

وهناك شواهد على أن الخوارج كانوا يزدادون اقتناعا بصحة مواقفهم التي اتخذوها كلما مر الوقت وتطورت أحداث الصراع الدامي بين علي ومعاوية. ويبدو أنهم كانوا يعتبرون كل ما يقوم به علي تخبطاً وفشلاً يصل إلى حد الضلال! ومن ذلك ما رواه ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن الهيثم بن عدي «أنه خرج على علي بعد النهروان الحارث بن راشد الناجي في ثلاثمائة من أهل البصرة.

فقال لعلي: إنك قد قاتلت أهل النهروان في كونهم أنكروا عليك قصة التحكيم، وتزعم أنك قد أعطيت أهل الشام عهودك مواثيقك، وأنك لست بناقضها. وهذان الحكمان قد اتفقا على خلعك، ثم اختلفا في ولاية معاوية: فولاه عمرو وامتنع أبو موسى من ذلك، فأنت مخلوع باتفاقهما. وأنا قد خلعتك وخلعت معاوية معك.

وتبع الحارث هذا بشر كثير من قومه!

فهنا يتابع الخوارج لومهم لعلي: فأنت يا علي وافقت على وقف القتال، وأعطيت أهل الشام عهودا، وأصررت على الوفاء بإمضاء التحكيم رغم معارضتنا لكل ذلك. وها هي النتيجة: خلعك من الخلافة على يد الحكمين! فهذا من سوء عملك وتدبيرك ولا يحق لك الآن أن تطالب الناس بالنهوض معك. فنحن يا علي نلزمك بما ألزمت به نفسك: نتيجة التحكيم!

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

أحاديث نبوية في ذم الخوارج: ذو الثدية، شيطان الردهة وشر الخلق والخليقة[1]

قام العلامة ابن كثير، وهو المفسر العلم والمؤرخ الكبير، ابن القرن الثامن الميلادي، باستعراض تفصيلي للروايات المتعددة المنسوبة للنبي(ص) بشأن الخوارج، من مصادرها المختلفة في كتب الحديث (السنة)، وبأسانيدها وشروحها.

ورغم أنه لا مجال هنا لذكر كل الأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن، إلا أنه لا بأس من إيراد تلخيص إجمالي لها. فأشهر تلك الأحاديث يذكر أن النبي(ص) قال إنه سيخرج من أمته قوم يكثرون من الصلاة والصيام والعبادة، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وتقول الروايات أن علامة اولئك القوم هو رجل أسود له يد مشوهة لها حلمة كثدي المرأة وعليها شعرات بيضاء وهذا الرجل، ذو الثدية، ورد ذكره في بعض الروايات على أنه «شيطان الردهة» أو «المخدج». وتقول الروايات أن النبي(ص) لعنهم ودعا المسلمين الى قتلهم لأنهم «شر الخلق والخليقة». وتمضي الروايات لتضيف انه في أعقاب معركة النهروان التي هزم فيها عليٌّ الخوارج، أمر عليٌّ بالبحث عن ذلك الشخص ذي الثدية في صفوف قتلاهم مصداقاً للحديث النبوي، فلما أخبره أصحابه أنهم لم يجدوه أصرّ على الاستمرار بالبحث عنه حتى وجدوه بالفعل بينهم فكبّر عليٌّ وخرّ ساجداً لله لأنه تأكد أن هؤلاء هم بالفعل الذين أخبره عنهم النبي(ص) وبالتالي فهو على الحق.

ففي البداية والنهاية قال ابن كثير ان الأحاديث النبوية التي تذكر الخوارج قد وردت عن عدد كبير من الصحابة، وهم: علي بن ابي طالب (اثنا عشرة طريقا - رواها مسلم وابو داود واحمد والبخاري وعبد الله بن احمد والخطيب البغدادي والبيهقي والبزار)، وأنس بن مالك (طريقان

---

(1) مصادر هذه المبحث: البداية والنهاية لابن كثير(ج7 ص319-327)، سنن ابن ماجة (ج1 ص59)، مسند احمد بن حنبل (ج4 ص355)، انساب الأشراف للبلاذري (ص237)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (ج3 ص152).

- رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة)، وجابر بن عبد الله (طريق واحدة - رواه أحمد)، ورافع بن عمرو الغفاري (طريق واحدة - رواه مسلم)، وسعد بن أبي وقاص (طريق واحدة - رواه أحمد)، وأبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الانصاري (ثمان طرق - رواها أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والبزار وأبو يعلى وابن ماجة)، وسهل بن حنيف (طريق واحدة - رواه أحمد والبخاري ومسلم)، وعبد الله بن عباس (طريق واحدة - رواه ابن ماجة)، وعبد الله بن عمر (طريق واحدة - رواه أحمد)، وعبد الله بن عمرو (طريق واحدة - رواه أحمد)، وعبد الله بن مسعود (طريق واحدة- رواه أحمد والترمذي وابن ماجة)، وابو ذر (طريق واحدة -رواه مسلم) وعائشة (طريقان - رواه البيهقي والبزار).

وعلق ابن كثير «والمقصود أن هذه طرق متواترة عن علي: إذ قد روي من طرق متعددة عن جماعة متباينة لا يمكن تواطؤهم على الكذب. فأصل القصة محفوظ وإن كان بعض الألفاظ وقع فيها اختلاف بين الرواة، ولكن معناها وأصلها الذي تواطأت الروايات عليه صحيح لا يشك فيه عن علي أنه رواه عن رسول الله(ص) أنه أخبر عن صفة الخوارج وذي الثدية الذي هو علامة عليهم. وقد روي ذلك من طريق جماعة من الصحابة غير علي كما تراها بأسانيدها وألفاظها»

ومن الروايات اللافتة تلك التي تتحدث عن رجل حسن الهيئة كان يصلي بكل خشوع في بطن أحد الاودية، فرآه أبو بكر فأخبر النبي(ص) عنه، فما كان منه إلا أن قال له: اذهب واقتله ! فلما ذهب لينفذ وجده لا يزال يصلي فكره أن يقتله فعاد للنبي الذي عندها امر عمر بن الخطاب أن يذهب ليقتله، فتكرر معه نفس موقف ابي بكر فعاد للنبي. وعند ذلك امر النبي(ص) علي بن ابي طالب ان يذهب ليقتله، فلما ذهب لم يجده فعاد للنبي(ص). وتقول الرواية ان ذلك الرجل الخاشع المتعبد الذي أمر النبي بقتله هو أس الخوارج المستقبليين وأساسهم وهم الذين سيمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية!

وبالإضافة الى الروايات التي ذكرها ابن كثير هنالك غيرها ممن تحوي ذكراً صريحاً لكلمة « الخوارج» على لسان النبي(ص) مع شتم مباشر لهم «الخوارج هم كلاب النار» كما روى ابن ماجة في سننه والامام احمد في مسنده عن الصحابي عبد الله بن ابي أوفى[1].

ولقد روى العديد من المؤرخين قصة ذلك المخدّج في معرض تناولهم لوقعة النهروان. ومنهم البلاذري في أنساب الأشراف الذي قال ان عليا لم يعثر في أعقاب المعركة وأمر أصحابه بالبحث عن ذي الثدية[2] الذي على حلمة يده خمس أو سبع شعرات رؤوسها معقفة، حتى وجدوه بين القتلى، فخرّ عليٌ وأصحابه سجوداً!

وعادة المؤرخين المسلمين أنهم إذا ما اعتقدوا بصحة حديث منسوب للنبي(ص) كانوا مبالغين، هم أو رواتهم، في تحويله الى حقيقة تاريخية.

ولذلك تبدو هذه الأحاديث النبوية التي تتحدث عن الخوارج مفصّلة تفصيلاً ومفبركة من طرف اعدائهم بقصد ذمّهم والتشنيع عليهم.

وبالنسبة لي فاني أصدّق رواية الهيثم بن عدي التي ذكرها ابن كثير «سئل علي عن أهل النهروان أمشركون هم؟ فقال: من الشرك فرّوا. قيل: أفمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلا. فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا»

وكذلك القول المشهور للامام علي عنهم في معرض المقارنة بينهم وبين أعدائه من جماعة معاوية: طلبوا الحق فأخطأوه.

وكلام عليّ هذا يتناقض مع الأحاديث التي تذكرهم بتلك الصفات الشنيعة

---

(1) ينبغي ملاحظة أنه ورد في الرواية نفسها ان ابن ابي اوفى كان له غلام قد لحق بالخوارج، ومنعه ذكر الحديث.

(2) وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى في سياق كلامه عن الخوارج ومعركة النهروان ان عليا « قتل منهم ذا الثدية»

تولدت المزيد من الاضطرابات داخل جبهة علي[1]

رغم أن القتال في النهروان قد انتهى بالقتل بانتصار صريح لعلي وقواته والقضاء على النواة الصلبة للخوارج، إلا أن الأمر لم ينتهِ عند ذلك، بل كانت له سلسلة طويلة من رجات الفعل والتبعات والعواقب المؤلمة.

فقد ولّدت معركة النهروان شعوراً عميقاً من الاحباط لدى عموم الناس في الجانب العراقي من الصراع. وقد تجلّى ذلك عندما بدأ عليّ محاولاته لحشد الناس والنهوض لحرب أهل الشام من جديد. روى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ان عليا بعد فراغه من النهروان حاول حشد الناس للتوجه الى الشام من جديد ولكنه ووجه بمعارضة:

«وأمر علي بالرحيل -يعني بعد فراغه من قتاله الحرورية- وقال لأصحابه: قد أعزكم الله وأذهب ما كنتم تخافون فامضوا من وجهكم هذا الى الشام.

فقال الاشعث: يا امير المؤمنين نفدت نبالنا، وكلّت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فلو أتينا مصرنا حتى نستعد ثم نسير الى عدونا.

فركن الناس الى ذلك»

وليس ذلك فحسب بل حصل ما هو أسوأ! ففي أعقاب معركة النهروان، وخلال سنة 38 للهجرة، حصلت ست حركات لتمرّدٍ مسلحة[2] ضد الخليفة علي. ووجد عليّ نفسه مضطراً إلى إرسال الحملة تلو الأخرى للقضاء على تلك التمردات المحلية التي يقودها الخوارج وأنصارهم في أنحاء متفرقة من العراق ضد حكم علي.

وابتدأت تلك الحركات بتمرّد قاده شخصٌ اسمه الخريت بن راشد[3] والذي كان قد واجه الخليفة مباشرة بقوله له:

---

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج٤ ص٤٦٦ وص ٢٣٩-٢٤٠)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج١ ص٢١٥)، تاريخ الطبري (ج٤ ص٤٤-٥٥).

(2) أخبار حركات التمرد الست هذه مذكورة من أنساب الأشراف للبلاذري

(3) واخبار تمرد الخريت اخرجها ايضا الطبري في تاريخه بتفاصيل كثيرة نقلا عن ابي مخنف.

«والله لا أطعتُ أمرك ولا صليتُ خلفك!

فقال له علي: ثكلتك أمك! إذاً تعصي ربك وتنكث عهدك ولا تضر إلا نفسك، ولِمَ تفعل ذلك؟

قال: لأنك حكّمت في الكتاب وضعفت عن الحق حين جد الجد، وركنتَ إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقم!» وخرج الخريت من الكوفة ومعه 300 رجل من بني ناجية وقد أعلنوا تمردهم، وساروا في مناطق ريفية وقتلوا بضعة أشخاص ممن لقوهم على طاعة عليّ. فأرسل عليٌّ خلفهم حملة عسكرية بقيادة زياد بن خصفة الذي لاحقهم في الأرياف حتى وصلوا البصرة، فدار نقاشٌ بين زعيم المتمردين، وبين قائد حملة عليّ، قال خلاله الخريت لما سأله زياد عن أسباب تمرده:

«لم أرضَ صاحبكم ولا سيرته، فرأيتُ أن أعتزل وأكون مع من دعا إلى الشورى»

وبعد قتالٍ ضارٍ هُزِم المتمردون وقتل معظم من كانوا مع الخريت الذي فرّ إلى الأهواز ومن ثم إلى داخل إيران بعد أن نجح في استقطاب العديد من الفرس والأكراد ممن كانوا نصارى أصلاً.

وأرسلَ عليّ له حملة أخرى بقيادة معقل بن قيس الرياحي في ألفي مقاتلٍ من أهل البصرة. وخاضوا معه معركة شرسة أسفرت عن مقتل المئات من العرب والعجم الذين انضموا إلى الخريت، رغم أن قوات عليّ قد نصبت راية أمانٍ لمن شاء أن يتراجع.

ومن الملاحظ أن الخريت هذا قد لجأ إلى استعمال كل الطرق الدعائية الممكنة في محاولاته استقطاب العامة لدعمه. فهو قد وصل إلى حد «المطالبة بدم عثمان» حين وجد أن ذلك يفيده في إحدى المراحل! ولم يعبأ الخريت بالتناقض الصارخ بين «المطالبة بدم عثمان» وبين انتقاد عليّ «لأنه حكّمَ في كتاب الله»! فالمهم هو نجاح تمرده ضد علي، وحسب تعبير البلاذري «فكان الخريت يوهم الخوارج أنه على رأيهم ويوهم العثمانية أنه يطلب بدم عثمان»

ونجحت قوات عليّ أخيراً بقتل الخريت وأسر معظم مَن كان معه، فتفرّقت بقية قواته وحشوده.

وما أن انتهى أمر الخريت، حتى بلغ علياً تمرّدٌ بقيادة الأشرس بن عوف الشيباني في منطقة الأنبار، فأرسل إليه قوة بقيادة الأبرش بن حسان، إلى أن قتل الأشرس في شهر ربيع الأول.

وتبع ذلك تمرّدٌ بقيادة هلال بن علفة في منطقة ماسبذان. ونجحت قوات الخليفة بقيادة معقل بن قيس في القضاء على التمرد بعد معركة قتل فيها 200 شخص في شهر جمادى الأولى.

وفي الشهر التالي حصل تمرد بقيادة الأشهب بن بشر القرني. وأسفر ذلك عن معركة في منطقة جوخا، انتصرت فيها قوات الخليفة بقيادة جارية بن قدامة التميمي وقتل المتمردون.

وفي شهر رجب وقع تمرّد بقيادة سعيد بن قفل في منطقة المدائن، فقام والي علي، سعد بن مسعود الثقفي بالقضاء عليه وقتل 200 من أصحابه.

وفي شهر رمضان نجح شخصٌ يدعى أبو مريم السعدي في تأليب واستقطاب عناصر الخوارج الذين كانوا قد فارقوا أصحابهم وعادوا إلى صفوف عليّ قبيل معركة النهروان. فذكّرهم بـ « شهدائهم » واستفزهم للثأر لهم فاستجاب له المئات منهم وانضم إليه أعدادٌ من الموالي وخاضوا حرباً شرسة في منطقة شهرزور، ضد قوات عليّ التي قادها بنفسه قبل أن يولّي مهمة متابعة الحرب إلى جارية بن قدامة. ولم ينجُ من المتمردين سوى 50 رجلاً طلبوا الأمان فآمنهم عليّ!

وتعطّل مشروع عليّ في إعادة الهجوم على الشام[1]

لما فرغ عليٌ من حرب الخوارج في النهروان أراد التوجه مباشرة بجيشه إلى الشام:

فقام خطيباً فحمد الله ثم قال: فإن الله قد أحسن بلاءكم وأعز نصركم. فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين الذين نبذوا كتاب الله

---

(1) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 124)، تاريخ الطبري (ج4 ص 107)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص 116)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج2 ص 359 وص 451)

وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً. فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.

فقالوا: يا أمير المؤمنين! نفدت نبالنا، وكلّت أذرعنا، وتقطعت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا. فارجع بنا نحسن عدتنا. ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة. فإن ذلك أقوى لنا على عدونا.

فأقبل عليّ بالناس حتى نزل بالنخيلة فعسكر بها، وأمر الناس أن يلزموا معه معسكرهم، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد، وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام.

فأقاموا معه أياماً ثم رجعوا يتسللون ويدخلون الكوفة، ويتلذذون بنسائهم وأبنائهم وملذاتهم حتى تركوا علياً وما معه إلاّ نفرٌ من وجوه الناس يسير، وترك المعسكر خالياً[1]

وقال البلاذري « وسار علي حتى أتى المدائن ثم مضى حتى نزل النخيلة، وجعل أصحابه يدخلون الكوفة حتى بقي في أقل من ثلاثمائة. فلما رأى ذلك دخل الكوفة وقد بطل عليه ما دبّر من إتيان الشام قاصداً إليها من النهروان.

فخطب الناس فقال: أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم، ففي جهاده القربة إلى الله ودرك الوسيلة عنده، فلم يصنعوا شيئاً.

فتركهم أياماً حتى إذا يئس منهم خطبهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: يا عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً، وبالذل والهوان من العز والكرامة خلفاً »

ومن جانبه كان معاوية يرصد تطورات الأحداث في العراق بدقة. وبعد انتهاء مؤتمر التحكيم وصلته الأخبار أن علياً قد تجهز في أهل العراق للمسير إليه مرة أخرى وانه قد خرج بجيوشه بالفعل

«.. فهاله ذلك. فخرج من دمشق معسكراً وبعث إلى كور الشام فصاح بها: إن علياً قد سار إليكم، وكتب إليهم نسخة واحدة:

أما بعد، فإنا كنا كتبنا كتاباً بيننا وبين عليّ، وشرطنا فيه شروطاً،

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة. ونفس الرواية أوردها الطبري عن أبي مخنف، وفيها زيادة أن الذي أولى مخاطبة علي بذلك الكلام هو الأشعث بن قيس.

وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه، وجعلنا عهد الله وميثاقه على من نكث العهد ولم يمض الحكم، وإن حكمي الذي كنتُ حكمته أبيتني، وإن حكمه عليه. وقد أحل الله لكم قتاله. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه.

تجهزوا للحرب بأحسن الجهاز، وأعدوا آلة القتال، وأقبلوا خفافاً وثقالاً، يسرنا الله وإياكم لصالح الأعمال!

فاجتمع إليه الناس من كل كورة وأرادوا المسير إلى صفين.....

فمكثوا يجيلون الرأي يومين أو ثلاثة، حتى قدمت عليهم عيونهم: إن علياً اختلف عليه أصحابه، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة، وأنه قد رجع عنكم إليهم،

فكبر الناس سروراً لانصرافه عنهم وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم.

فلم يزل معاوية معسكراً في مكانه، منتظراً لما يكون من علي وأصحابه، وهل يُقبل بالناس أم لا؟

فلما برح جاء الخبر أن علياً قد قتل أولئك الخوارج، وأنه أراد بعد قتلهم أن يقبل بالناس، وأنهم استنظروه ودافعوه، فسر بذلك هو ومن قبله من الناس»[1]

ومسار الأحداث التطورات شجع معاوية كثيراً إلى درجة جعلته يطمع في التأثير المباشر في أهل العراق متجاوزاً علياً، ومحاولاً استمالتهم لصفه أو على أقل تقدير تحييدهم.

مكاتبات معاوية لوجوه أهل العراق: روى البلاذري في أنساب الأشراف «أن معاوية لما بويع وبلغه قتال علي أهل النهروان كاتب وجوه من معه مثل الأشعث بن قيس وغيره، ووعدهم ومناهم وبذل لهم حتى مالوا إليه وتثاقلوا عن المسير مع علي عليه السلام فكان يقول فلا يُلتفتُ إلى قوله ويدعو فلا يُسمع لدعوته. فكان معاوية يقول: لقد حاربتُ علياً بعد صفين بغير جيش ولا عناء أو قال: ولا عتاد»

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وقريبٌ من ذلك ورد في ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري

الجزء الثالث

الصراع على الأقاليم

الفصل الاول: سقوط مصر

هناك اربع شخصيات من جانب فريق عليّ لعبت دورا في الاحداث التي أدت الى سقوط مصر بيد معاوية، ولا بد من التحدث عنها بالتفصيل نظرا لتكرر ورودها في المصادر والتداخل في أخبارها: محمد بن ابي حذيفة، قيس بن سعد بن عبادة الانصاري، محمد بن ابي بكر الصديق ومالك الاشتر النخعي.

اولا: **محمد بن ابي حذيفة**[1] (القرشي، من بني عبد شمس، ابن خال المؤمنين معاوية):

سبق وتحدثنا بالتفصيل عن دوره هو ومحمد بن ابي بكر في التحريض على عثمان ومشاكلهما مع واليه على مصر ابن ابي السرح .

ومعظم المصادر تشير الى نجاحه (ولو بشكل مؤقت) في السيطرة على مقاليد الامور في مصر بعد هرب الوالي ابن ابي السرح[2] وبيعة عليّ في المدينة.

وقلة من المصادر تذكر ان الامام علياً قد ولاه إمارة مصر. وبالتحديد

---

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص161)، تاريخ الطبري (ج3 ص140)، تاريخ اليعقوبي، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج52 ص269-273)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص349)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص404)، الاصابة لابن حجر (ج4 ص9-11)، أسد الغابة لابن الاثير (ج4 ص314).

(2) وفي رواية ابي مخنف لدى الطبري ان ابن ابي حذيفة "وثب" على ابن ابي السرح وهو بمصر فطرده منها.

ابن عساكر في روايتين عن خليفة وعن أبي جعفر الهمداني وابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب وكذلك ابن الأثير في أسد الغابة في رواية عن خليفة.

ولكن من المستبعد جداً أن يكون ذلك قد حصل. فالبلاذري لم يشر إلى تولية علي لابن أبي حذيفة مصراً بل تحدث عن تعيينه قيس بن سعد بعد الثورة شمالة والي عثمان الهارب ابن أبي السرح به، فقال وهو يشير إلى دور ابن أبي حذيفة في التمرد على عثمان «أبعد الله ابن أبي حذيفة، بغى على ابن عمه وسعى أهل بيته وسعى عليه، حتى ولي بعده من لم يسعه بسلطان يلقه حولاً ولا شهراً ولم يره لذلك أهلاً».

والطبري في تاريخه أخرج نفس كلام ابن أبي السرح في رواية البلاذري، وطبّق قائلاً «فخبر هشام هذا يدل على أن قيس بن سعد ولي مصر ومحمد بن أبي حذيفة حي».

واليعقوبي في تاريخه لم يذكر تولية علي لابن أبي حذيفة.

أي أن مصادر التاريخ الرئيسية، الطبري والبلاذري واليعقوبي، لم تذكر أن علياً قام بتعيين ابن أبي حذيفة والياً على مصر. فقط هو تولى شؤونها بمبادرة منه، وجماعته، بعد فرار ابن أبي السرح من مصر خوفاً من عليّ.

وكان من الطبيعي جداً، والمتوقع، أن معاوية قرر أن يتعامل مع التطورات التي تحصل في مصر نظراً لأهميتها وتأثيرها المحتمل عليه. روى ابن حجر العسقلاني «وذكر أبو أحمد الحاكم أن محمداً بن أبي حذيفة لما ضبط مصر وأراد معاوية الخروج إلى صفين بدأ بمصر أولاً. فقاتله محمد بن أبي حذيفة بالعريش إلى أن تصالحا. وطلب منه معاوية ناساً يكونون تحت يده رهناً ليأمن جانبهم إذا خرج إلى صفين. فأخرج محمد وهنا عدتهم ثلاثون نفساً فأحيط بهم وهم فيهم فسجنوا»(1)

---

(1) وفي رواية أخرى لابن حجر عن يزيد بن أبي حبيب أن معاوية قد سار بنفسه في جيش كثيف إلى مصر قبيل معركة صفين!

«لم كان من مسير معاوية بن أبي سفيان إلى مصر لما أراد المسير إلى صفين فرأى ألا يترك أهل مصر مع ابن أبي حذيفة خلفه، فسار إليهم في عسكر كثيف لخرج إليهم ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعوه من دخول الفسطاط. فأرسل إليهم إنا لا نريد قتال أحد إنما نطلب قتلة عثمان. فدار الكلام بينهم في الموادعة».

ولكن يجب الشك في صحة هذه الرواية: لأنه من المستبعد جداً أن يفكر معاوية بالهجوم على مصر أثناء استعداداته لقتال أهل العراق. لقد كان معاوية منهمكاً بأقصى طاقته لتجنيد أهل الشام وحشدهم خلفه للمعركة التي يعلم جيداً أنها قادمة حتماً وأنها ستكون حاسمة بالنسبة له. في تلك اللحظات الحرجة قبل صفين، كان معاوية يضع مصيره الشخصي، والحزب الأموي بأكمله، على شفير الهاوية. كانت الهزيمة والفشل أمام زحف عليّ والعراقيين احتمالاً مطروحاً أمام عيني معاوية، خاصة وقد رأى علياً يحارب زوجة الرسول واثنين من كبار الصحابة، بلا هوادة وبلا تردد. وكان يدرك مدى القدرات الاستقطابية التي يتمتع بها عليّ ومدى الشرعية والأخلاقية التي تميز تحركه. ولذلك لم يكن معاوية في وارد الدخول في مغامرات مصرية آنذاك. كما أن معاوية كان بحكم خبرته يدرك أيضاً أن محمد بن أبي حذيفة، مع صغر سنه وقلة تمرّسه في العمل السياسي والإداري، ومع حداثة وثوبه على السلطة في مصر، لم يكن في وضع يسمح له بتشكيل تهديد جدي له في الشام. إن معاوية لم يستشعر التهديد الحقيقي له من الحدود المصرية إلا مع تولي قيس بن سعد للولاية هناك.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون معاوية بذل محاولات من أجل الحصول على دعم ابن خاله، محمد بن أبي حذيفة، أو على الأقل تحييده. والكثير من الروايات تفيد بأن معاوية نجح في إلقاء القبض على ابن أبي حذيفة بالخديعة على الأغلب. فربما يكون معاوية قد استدرجه إلى كمين أو دعاه إلى مفاوضات وغدر به أو غيرها من الوسائل.

وبشأن مصير ابن أبي حذيفة، بعضُ الروايات تفيد بأنه قتل في معركة، وبعضها تفيد أنه حُبس ومن ثم هرب من سجنه وقتل بعد ذلك، وبعضها تفيد أنه قتل في سجنه:

هناك رواية واضحة لدى ابن عساكر حول كيفية تخلص معاوية منه. فعن أبي جعفر الهمداني «... فتقدم حتى خرج إلى العريش، وخلف الحكم بن المطلب بن مخرمة على مصر. فنُصب المنجنيق عليه حتى نزل على صلح في ثلاثين من أصحابه، فحبسوا ثم قتلوا»

وأضاف ابن عساكر نقلا عن يزيد بن أبي حبيب: «... فتركهم نصفين: فسجن محمد بن أبي حذيفة ومن معهم في سجن دمشق، وسجن ابن عديس والنصف الباقي في سجن بعلبك».

وأكد ابن حجر العسقلاني في الاصابة رواية ابن عساكر عن تفاصيل صراع ابن أبي حذيفة مع معاوية، فروى عن يزيد بن أبي حبيب: «واستخلف ابن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وخرج مع جماعة منهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح، فلما بلغوا به غدر بهم عسكر معاوية وسجنوهم إلى أن قتلوا بعد ذلك»[1].

وأضاف ابن حجر: «وقال أبو سعيد الحاكم: خادع معاوية محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى العريش في ثلاثين نفساً فحاصره ونصب عليه المنجنيق حتى نزل على صلح، فحبس ثم قتل».

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد ذكر رواية ثالثة حول مصير محمد بن أبي حذيفة جعلت مقتله يتأخر لأكثر من سنتين عما هو معروف. ولكن سياق رواية ابن كثير يظهر تشككه بها فقال «وقد زعم هشام بن محمد الكلبي أن محمد بن أبي حذيفة بن عتبة أُسر بعد مقتل محمد بن أبي بكر - وكان من جملة المحرضين على قتل عثمان - فبعثه عمرو بن العاص إلى معاوية ولم يبادر إلى قتله لأنه ابن خال معاوية، فحبسه معاوية بفلسطين فهرب من السجن، فلحقه رجل يقال له عبد الله بن عمرو بن ظلام بأرض البلقاء، فاختفى محمد بغار فجاءت حمر وحش لتأوي إليه فلما رأته فيه نفرت، فتعجب من نفرها جماعة من الحصادين هنالك فذهبوا إلى الغار فوجدوه فيه، فجاء أولئك إليه فخشي عبد الله بن عمرو بن ظلام أن يرده إلى معاوية ليعفو عنه، فضرب عنقه».

---

(1) من الواضح أن هناك ضعفاً في الشكل في هذه الرواية: فهي تذكر اسم كنانة بن بشر ضمن من أسرهم وقتلهم معاوية، بينما من المؤكد أن كنانة بن بشر كان حياً يرزق إلى ما بعد معركة صفين بفترة طويلة. فهو كان مع محمد بن أبي بكر وتولى الدور الأبرز في القتال الذي دار مع قوات عمرو بن العاص التي أرسلها معاوية للسيطرة على مصر بعد حرب صفين، وقتل في تلك المعركة.

هكذا ذكر ذلك ابن الكلبي. وقد ذكر الواقدي وغيره أن محمد بن أبي حذيفة قتل في سنة 36 كما ذكرنا. والله أعلم.

وأما ابن الأثير في أسد الغابة فقد ذكر رواية تقول أن نهاية ابن أبي حذيفة كانت على يد رشدين، مولى معاوية، الذي قتله بعد أن كان هرب من سجنه[1].

ثانيا: عليّ يعيّن قيس بن سعد والياً[2]

يمكن اعتبار تعيين قيس بن سعد في منصب والي مصر وإفريقية خلفاً لرجل عثمان ابن أبي السرح، جزءاً من سياسة عليّ القائمة على إعادة الاعتبار للأنصار بشكل عام، بعد الفترة الطويلة التي تم تهميشهم فيها على يد الخلفاء الثلاثة. فقد عيّن عليّ شخصيات أنصارية بارزة في مناصب قيادية في دولة الإسلام. فهو كان يعتبر الأنصار المجموعة الرئيسية التي ساهمت في إنجاح دعوة محمد(ص) ودفعوا ضريبة الدم في سبيل ذلك، وبالتالي من حقهم إسناد دور محوري لهم في المنظومة الإسلامية. فإخلاصهم للرسول(ص) وللإسلام لا يرقى إليه الشك، وتضحياتهم يجب أن تكافئ. ولذا قام علي بتعيين رجال الأنصار في مناصب الولاة في البصرة وفي المدينة المنورة بالإضافة إلى مصر.

وقيس بن سعد كشخص، كان يملك خصالاً تؤهله لهكذا منصب. وفضلاً عن كونه ابناً لواحد من زعماء الأنصار السابقين (كان سعد بن عبادة أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة الأخيرة)، فإنه هو ذاته كان محل ثقة رسول الله(ص) وتقديره، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه أن قيس بن سعد كان هو صاحب لواء رسول الله(ص) في الحج.

---

(1) راجع أيضاً ابن عبد البر في ترجمة محمد بن أبي حذيفة حين قال: «فلما قتل عثمان هرب إلى الشام، فوجده رشدين مولى معاوية فقتله». لأن محمد لا يمكن أن يهرب إلى الشام بعد قتل عثمان.

(2) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج2 ص162-163)، صحيح البخاري باب ما قيل في لواء النبي (ج4 ص64)، تاريخ الطبري (ج4 ص551-555)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص105)، البيان والتبيين للجاحظ (ج2 ص54).

دخل قيس إلى مصر ومعه كتاب التعيين من الخليفة الجديد، وسرعان ما نجح في بسط سيطرته ونشر سلطان الإمام عليّ في مصر. وهذا أمرٌ يحسب له. فعلى الرغم من أن مصر كانت منذ أكثر من عشرين عاما تحت حكم عمرو بن العاص ومن ثم ابن أبي السرح، إلاّ أن قيسا نجح في أخذ البيعة من أهلها لعليّ دون مشاكل كبيرة.

ولكن كان لا بد لعشرين عاماً من حكم عدوّي الإمام عليّ في مصر أن يترك بعض الأشياع والأتباع، وخاصة من الموظفين الإداريين والمتنفذين والوجهاء الذين كانوا مستفيدين من حكم عثمان، وأصبحوا فجأة يرون كل امتيازاتهم ونفوذهم يتبخر أمام أعينهم مع قدوم والي الخليفة الجديد.

يروي البلاذري «فقام الناس فبايعوا عليّاً واستقاموا لقيس إلاّ رجلاً يقال له يزيد بن الحرث. وكان معتزلاً في قرية هناك فبعث إلى قيس: إنّا لا نبايعك ولا نتعرّض عليك في سلطانك، فابعث عمالك، فإن الأرض أرضك. ولكنا نتوقف حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ووثب مسلمة بن مخلد الساعدي من الأنصار، فنعى عثمان ودعا إلى الطلب بدمه.

فأرسل إليه قيس: ويحك أعليّ تثب؟! فوالله ما أحب أن أقتلك ولي ملك مصر والشام.

فكفّ عنه، وجبا قيس الخراج وليس أحدٌ ينازعه»

وقد أورد الطبري تفاصيل أكثر عن أنصار النظام القديم « فقام الناس فبايعوا. واستقامت له مصر وبعث عليها عماله. إلاّ أن قرية منها، يقال لها خربتا، فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبها رجل من كنانة، ثم من بني مدلج يقال له يزيد بن الحارث. فبعث هؤلاء إلى قيس بن سعد إنا لا نقاتلك، فابعث عمالك فالأرض أرضك، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس»

من هذا النص يتضح أن موقف الفئة المرتبطة بالنظام السابق في مصر،

والتي سوف تعرف لاحقاً بـ «العثمانية»، كان مهادناً للوالي الخليفة الجديد. لم يكن هؤلاء «العثمانية» في وضع يسمح لهم بالقيام بتحدٍّ جدّي لسلطة الإمام عليّ. والمؤكد أنهم كانوا أقلية في مصر وأنهم كانوا محسوبين بمقتل عليتهم وعزل واليهم وتتالي الأحداث بسرعة شديدة عليهم بجعلهم غير قادرين على التمييز بوضوح. ولذلك كان قرارهم التريث في الأمور، وكان كل ما يريدونه أن يتركوا وشأنهم دون اعتداء من الوالي الجديد. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد برز تحدّي صريح لسلطة علي بن أبي طالب وعلاقته.

وعاملهم قيس بن سعد باللين والمهادنة، ورضي منهم بالاعتزال والموادعة. فطالما لم يكن ليصدر منهم ما من شأنه أن يفسد عليه ولايته وحكمه، فلا داعي له أن يبدأ عهده في مصر بالقتال وسفك الدماء. كان قيس بحاجة إلى وقت من أجل تثبيت ركائز إدارته الجديدة، ولكي يتعرف على البلاد وأهلها ويضمن تأييد الجنود وأبناء القبائل العربية في مصر لخلافة عليّ. ولقد بدا أن قيساً نجح في ذلك (وفي ذلك الزمان كانت جباية الخراج بسلاسة ودون مشاكل هي المقياس لنجاح الحاكم في ولايته، وهي التعبير عن الطاعة من الرعية للحاكم).

ولما كان قيس بن سعد والياً مقتدراً وقائداً ناجحاً، فقد أثار خوفاً شديداً لدى معاوية بسبب وجوده على الحدود الجنوبية لمعاوية، وخاصة مع ما يعلمه معاوية من استقامة قيس وولائه للإمام عليّ. وقد كان قيس بن سعد موجوداً في مصر، ومسيطراً على الأوضاع فيها خلال فترة حرجة من خلافة عليّ وهي تلك التي تشمل حرب الجمل وتمتد إلى ما بعد استقرار عليّ في الكوفة. وحرم قيسٌ معاوية من الميزة الاستراتيجية التي كانت متاحة له من طريق استغلال الحرب التي يخوضها عليّ في البصرة وانشغاله هناك للسيطرة على مصر، التي لا شك لم تغب يوماً عن ذهن رجل كمعاوية. وقد عبّر الطبري عن هواجس معاوية بسبب وجود قيس في مصر «فكان أثقل خلق الله على معاوية بن أبي سفيان، لقربه من الشام مخافة أن يقبل إليه عليّ في أهل العراق، ويقبل إليه قيس بن سعد في أهل مصر فيقع معاوية بينهما»

ويتحدث الطبري عن سلسلة من المراسلات[1] حصلت بين معاوية وقيس بن سعد. بدأها معاوية باستعمال أسلوبه المفضل: الرشوة أولاً فأرسل معاوية إلى قيس بن سعد عارضاً عليه الانضمام إليه والتخلي عن عليّ:

«فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل.

تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرتُ ما بقيتَ، ولمن أحببتَ من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان.

وسلني غير هذا مما تحب، فإنك لا تسألني شيئاً إلاّ أوتيته. واكتب إليّ برأيك فيما كتبت به إليك. والسلام»

وهنا يذكر الطبري رسالة جوابية من قيس تحمل عرضاً بالموادعة والمهادنة:

«فلما جاءه كتاب معاوية أحب أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب إليه: أما بعد فقد بلغني كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه، فأما ما سألتني من متابعتك وعرضت عليّ من الجزاء به فقد فهمته وهذا أمر لي فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع إليه. وأنا كافّ عنك ولن يأتيك من قِبَلي شيء تكرهه[2] حتى ترى ونرى»

وهذا الجزء من المراسلات يثير الحيرة لدى الباحث. لأن مواقف سعد بن عبادة كانت على الدوام شديدة العداء لمعاوية، وظلت كذلك إلى ما بعد اغتيال عليّ وبيعة ابنه الحسن. ولذلك فإن رسالة لمعاوية والتي تجعله قريبا من الحياد بينه وبين عليّ من الصعب قبولها. ولكن في ذات الوقت سنرى ان عليّاً يقوم بعزل قيس من منصبه بسبب شكه في موقفه من معاوية ولينه تجاهه، مما يعطي قوة لرواية عرضه المهادنة. فالأمر ملتبس. هل حقاً جرّب قيس نوعا من سياسة المداراة تجاه معاوية ؟! على كل حال حتى لو فعل ذلك لم تنجح حركته تلك بل ان معاوية ربما استفاد منها في دق إسفين بينه وبين عليّ كما سيأتي.

---

(1) نصوص المراسلات هذه من رواية هشام الكلبي عن أبي مخنف.
(2) والبلاذري في أنساب الأشراف يروي قريبا من هذا الكلام عن أبي مخنف أيضا.

وعلى أي حال فالطبري يقول ان معاوية لم يقتنع بجواب قيس المُراوِغ، فطلب منه موقفاً صريحاً:

«فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلّا مقارباً مباعداً، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مباعداً مكايداً. فكتب اليه معاوية ايضاً: أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلماً ولم أرك تباعد فأعدك حرباً أنت فيما هنا كحنك الجزور، وليس مثلي يصانع المخادع ولا ينتزع للمكايد ومعه عدد الرجال وبيده أعنة الخيل»

ويضيف الطبري انه عندما طفح الكيل بقيس، أو حسب تعبيره: أظهر له ذات نفسه، فأرسل جواباً مزلزلاً لمعاوية:

«.. أما بعد فإن العجب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك رأيي!

أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة وأقولهم للحق وأهداهم سبيلاً وأقربهم من رسول الله وسيلة؟! وتأمرني بالدخول في طاعتك؟ طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم للزور وأضلهم سبيلاً وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله وسيلة؟! ولد ضالين مضلين، طاغوتٌ من طواغيت إبليس.

وأما قولك إني مالئ عليك مصر خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد. والسلام...

فلما بلغ معاوية كتابُ قيس أيس منه وثقل عليه مكانه»

وفي رواية البلاذري أن قيساً كتب الى معاوية رداً غاضباً «يا وثن ابن الوثن، دخلتم في الإسلام كارهين وخرجتم منه طائعين»[1]

عزلُ قيس بن سعد

تحدثنا الروايات أن معاوية طبّق خطة في غاية الذكاء من أجل عزل حكم قيس بن سعد في مصر. وكانت الخطة تعتمد في الأساس على زعزعة

---

(1) وروى الجاحظ في البيان والتبيين ان معاوية كتب لقيس «أما بعد: فإنك يهودي ابن يهودي، إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكّل بك» فرد قيس بأنه «وثن وابن وثن»

علاقة الثقة المتبادلة بين الإمام عليّ وتابعه المخلص قيس بن سعد. وهذا هدفٌ صعب المنال بلا شك، نظراً إلى طول عهد الإمام عليّ بقيس بن سعد والأنصار عموماً، في المدينة المنورة وإلى مواقفهم المشهودة في دعم وتأييد عليّ ضد توجهات الهيمنة القرشية.

لجأ معاوية إلى الإشاعة بين الناس في الشام أن قيس بن سعد قد انقلب في مواقفه وأصبح مع معاوية من الطالبين بدم عثمان! وكان معاوية يدرك أن الأخبار ستصل حتماً إلى العراق بهذا الأمر مما سيلقي الشك في قلب عليّ تجاه واليه. يقول الطبري:

«فاختلق معاوية كتاباً من قيس بن سعد، فقرأه على أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم. للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. سلام عليك. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد: فإني لما نظرتُ رأيتُ أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مُسلماً محرماً برّاً تقيّاً، فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا ونسأله العصمة لديننا. ألا وإني قد ألقيتُ إليكم بالسلم، وإني قد أجبتك إلى قتال قتلة عثمان رضي الله عنه، إمام الهدى المظلوم. فعوّل عليّ فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل عليك والسلام......

فشاع في أهل الشام أن قيس بن سعد قد بايع معاوية بن أبي سفيان، فسرحت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك.

فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره وتعجب له. ودعا بنيه ودعا عبد الله بن جعفر فأعلمهم ذلك.

فقال: ما رأيكم؟

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين دَع ما يريبك إلى ما لا يريبك. اعزل قيساً عن مصر.

قال لهم علي: إني والله ما أصدّق بهذا على قيس!

فقال عبد الله يا أمير المؤمنين اعزله فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك إن عزلته»(1)

---

(1) وكذلك يروي الذهبي في سير أعلام النبلاء قصة مكيدة معاوية التي أدت إلى عزل قيس.

إذن نجحت خطة معاوية، ووصلت الأخبار إلى عليّ أن قيساً قد انشقّ عليه! وظاهرٌ من كلام الإمام علي مع آله أنه كان غير مصدّق لذلك، ولكن ماذا تراه يفعل وقد ملأت الإشاعات الآفاق تحمل تلك الأخبار؟ كان لا بد للخليفة لكي يتأكد أن يعهد إلى واليه المشكوك فيه بمهمة صعبة تظهر إخلاصه.

وفي تلك الظروف بالتحديد جاء كتاب من قيس بن سعد لعليّ يذكر له فيه خبر «العثمانية» في مصر والذين كان قد قرر موادعتهم ما داموا مسالمين. يروي الطبري: فبيناهم كذلك إذ جاءه كتابٌ من قيس بن سعد فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن قبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا رأيهم. فقد رأيتُ أن أكفّ عنهم ولا أتعجل حربهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك، لعل الله عز وجل أن يُقبل بقلوبهم وأن يفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله.

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين ما أخوفني أن يكون هذا ممالأة لهم منه. فمُره يا أمير المؤمنين بقتالهم.

فكتب إليه عليّ: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فسر إلى القوم الذين ذكرتَ فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلاّ فناجزهم إن شاء الله.

فلما أتى قيسَ بن سعد الكتاب فقرأه لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد يا أمير المؤمنين فقد عجبتُ لأمرك! أتأمرني بقتال قوم كافين عنك، مفرغيك لقتال عدوك. وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك. فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فإن الرأي تركهم والسلام[1]

فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، ابعث محمد بن أبي بكر على مصر يكفك أمرها واعزل قيساً. والله لقد بلغني أن قيساً يقول: والله إن سلطاناً لا يتم إلاّ بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء. والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلتُ ابن مخلد

---

(1) وفي رواية البلاذري أن قيساً كتب لعليّ: إني قد عجبت من سرعتك التي في مسارعة من أمرتني بمحاربته من عدوك، ومتى فعلت ذلك لم آمن أن يساعدوا عدوك ويظاهروا ويجتمعوا من كل مكان فيغلظ الأمر وتشتد الشوكة.

ليبعث عليّ محمد بن أبي بكر على مصر ويعزل عنها قيساً»[1]

لقد ترافقت إشاعات معاوية حول قيس بن سعد، مع كتابه الذي أرسله إلى عليّ يخبره فيه بقراره مهادنة «العثمانية» في مصر، لتخلق لدى الإمام عليّ شكاً في واليه دفعه إلى عزله من قبيل الاحتياط. في تلك الظروف لم يكن أمام عليّ من سبيل آخر سوى عزل قيس بن سعد من منصبه لأن تلك كانت الطريقة الوحيدة للتأكد من إخلاصه. فإذا نفّذ قيس قرار العزل وأطاع علياً فعندها فقط تكون الأخبار عنه كاذبة، وأما إذا أعلن رفضه لقرار الخليفة وتمسك بمنصبه فتكون الإشاعات صحيحة ويكون على عليّ أن يتصرف بناء على ذلك. ولم يكن ممكناً أن يُبقي عليّ قيساً في منصبه المهم جداً مع شكه فيه، ذلك الشك الذي تعزز مع إصرار قيس على رفض منابذة العثمانية وتصميمه على قرار الموادعة[2].

ثالثاً: محمد بن أبي بكر[3] يفشل في مهمته

لم ينجح محمد بن أبي بكر في السيطرة على الأوضاع في مصر. ولم يكن يمتلك الخبرة الكافية لإدارة شؤونها على النحو الأمثل. ويبدو أنه كان في طبعه وأسلوبه حدّة في التعامل مع بقايا عهد عثمان؛ «لم يمكث محمد بن أبي بكر إلاّ يسيراً حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم فقال لهم: إما أن تبايعوا وتدخلوا في طاعتنا، وإما أن ترحلوا عنا»[4].

دفع ذلك «العثمانية» في مصر إلى تنظيم أنفسهم على شكل معارضة فعالة، وكانوا بشكل خاص من القبائل اليمانية. ولا بد من ملاحظة أن التحدي

---

(1) وكان عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه. وربما ذلك هو السبب في حماسته له ومحاولته دفع عمه عليّ لتعيينه.
(2) ومما يجب أن يسجّل لقيس بن سعد وفاؤه المستمر وإخلاصه المتواصل لإمامه عليّ على الرغم من قرار العزل، فهو عاد إليه وانضم إلى صفوفه وكان له دور بارز في صفين وما بعدها.
(3) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص147)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج6 ص52)، تاريخ الطبري (ج3 ص194)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص350).
(4) أنساب الأشراف للبلاذري.

الحقيقي وبدء المواجهة الفعلية من قبل «العثمانية» في مصر لسلطة محمد تجلّت بعد انتهاء معركة صفين، وما تبعها من مهزلة التحكيم. يضيف البلاذري: «فاستعدوا وأخذوا حذرهم وكانوا له هائبين. حتى أتى خبر الحكمين فاجترؤوا عليه ونابذوه». فقد علموا أن أصحاب عليّ قد صمدوا في المواجهة وأعطاهم ذلك دفعاً معنويا كبيراً ولا شك:

«فبعث ابنَ جهيمان البلوي إلى يزيد بن الحرث الكناني ومن قبله من أهل القرية التي كان بها، فقاتلوه فقتلوه. ثم بعث إليهم ابن أبي بكر رجلاً من كلب فقتلوه أيضاً»

ويبدأ «العثمانية» في التعامل الإيجابي مع حليفهم الموضوعي في الشام، معاوية. تتابع رواية البلاذري:

«وخرج معاوية بن حديج الكندي ثم السكوني فدعا إلى الطلب بدم عثمان، وذلك أن معاوية دسّ إليه في ذلك وكاتبه فيه بالمال وأرغبه. فأجاب ابنَ حديج بشرٌ كثير. وفسدت مصر على ابن أبي بكر».

إذن اضطربت الأحوال بابن أبي بكر وشعر أن الأمور تسير في غير صالحه مما دفعه إلى مراسلة الخليفة في العراق يطلب منه العون:

«وبلغ علياً ضعف محمد بن أبي بكر وممالأة اليمانية معاوية وعمرو بن العاص، فقال: ما أوتي محمد من حرص. ووجه مالك بن الحارث الأشتر إلى مصر..... فلما بلغ معاوية أن علياً قد وجه الأشتر عظم عليه، وعلم أن أهل اليمن أسرع إلى الأشتر منهم إلى كل أحد»[1]

إن قيام الإمام عليّ بتعيين مالك الأشتر[2] بديلاً لابن أبي بكر يشير بوضوح إلى مدى الاهتمام من طرفه بالمحافظة على مصر وحرصه على عدم سقوطها

---

(1) تاريخ اليعقوبي.

(2) ويشتهر في المصادر ما يُعرف بعهد الإمام علي لمالك الأشتر حين ولاه مصر، وهو رسالة طويلة عظيمة وشهيرة في روحها وكمالها. وقد رأيتُ أن أثبت هذا الخطاب، أو كتاب التكليف، كما ورد في نهج البلاغة، لما به من فائدة ولفرادته وتميّزه وجعلته كملحق في نهاية هذا الكتاب.

يد أعدائه. فعليّ كان يعتبر مالك الأشتر من أخلص الرجال له الذين يعتمد عليهم في إدارته وحكمه، وكان يفضل دائماً وجوده إلى جانبه. وحسب تعبير عليّ في كتابه لأهل مصر بهذا الشأن فهو «آثركم به على نفسه»، وحسب رواية اليعقوبي ان علياً كتب لأهل مصر «اني بعثت إليكم سيفاً من سيوف الله، لا نابي الضريبة ولا كليل الحد، فإن استنفركم فانفروا وإن أمركم بالمقام فأقيموا فإنه لا يقدم ولا يحجم إلّا بأمري»

قال البلاذري انه في ذلك الوقت كان الاشتر يشغل منصب والي الجزيرة لعليّ، ومقره نصيبين، «فكتب اليه عليّ «انك ممن استظهر به على إقامة الدين، واقمع به نخوة الأثيم وأسدّ به الثغر المخوف.

وأخبره بأمر ابن ابي بكر، وقدمه له، وأمره ان يستخلف على عمله بعض ثقاته ويقدم عليه. ففعل، فولاه مصر»

ولكن هل كان على عليّ أن يفعل أكثر من ذلك؟ ألم يكن واجباً عليه إرسال جيش لإنقاذ مصر من السقوط؟

يبدو أنه فكر بذلك ولكنه اصطدم بعقبات لها علاقة بالمشاكل الداخلية لديه في العراق، بالإضافة إلى أمور موضوعية تتعلق بصعوبة إرسال جيش كبير يخترق بلاد الشام ليصلَ إلى مصر. وعلى كل حال فالمصادر تخبرنا أن علياً أرسل بالفعل جيشاً الى مصر، ولكن بعد فوات الأوان، بعد أن مات الاشتر وقتل محمد بن ابي بكر. روى ابن كثير في البداية والنهاية ان عليا قد أرسل بالفعل نجدة الى محمد ولكنه أرجعهم بعد أن بلغته الأخبار «... فقام اليه مالك بن كعب الأرحبي، فندب الناس الى امتثال أمر علي والسمع والطاعة. فانتدب ألفان، فأمر عليهم مالك بن كعب هذا فسار بهم خمساً. ثم قدم على علي جماعة ممن كان مع محمد بن ابي بكر بمصر، فأخبروه كيف وقع الأمر وكيف قتل محمد بن ابي بكر، وكيف استقر أمر عمرو بها. فبعث الى مالك بن كعب فرده من الطريق - وذلك أنه خشي عليهم من أهل الشام قبل وصولهم الى مصر»

*****

والرسائل المتبادلة بين معاوية في الشام وبين أعداء محمد بن أبي بكر في مصر، تظهر بوضوح أن العثمانية كانوا حتى تلك الوقت لا يدينون بالولاء لمعاوية بل كانوا يرون أنفسهم أوفياء لذكرى الخليفة «المظلوم» وثأره. وقد أحسن معاوية التعامل معهم، وقبلوا هم عرضه لمساعدتهم ضد محمد لحاجتهم لذلك:

كتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج «فإن الله عز وجل قد ابتعثكما لأمر عظيم. أعظم به أجركما ورفع درجتكما ومرتبتكما في المسلمين.

طلبتما بدم الخليفة المظلوم، وغضبتما لله إذ ترك حكم الكتاب. وجاهدتما أهل الظلم والعدوان. فأبشروا برضوان الله وعاجل نصرة أولياء الله والمواساة لكما في دار الدنيا، وسلطاننا، حتى ينتهي ذلك إلى ما يرضيكما ويؤدي به حقكما.

فالزما أمركما وجاهدا عدوكما وادعوا المدبرين منكما على هداكما. فكأن الجيش قد أظل عليكما، فاندفع كل ما تكرهان ودام كل ما تهويان. والسلام عليكما ورحمة الله»

وكان الجواب:

أما بعد، فإن هذا الأمر الذي قد بذلنا له أنفسنا، وابتغينا الله به على عدونا، أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا، وطأطأ الركض في مهادنا.

ونحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغي، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل.

وقد ذكرت موازرتك في سلطانك وذات يدك. وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا ولا إياه أردنا...

فعجل علينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد كان علينا جريئا وكنا فيهم قليلا. وقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم منابذين.

فإن يأتنا مددٌ من قبلك يفتح الله عليك»(1)

فهؤلاء إذن يوصفون بالعون والمدد من معاوية ولكنهم يفعلون ذلك لحاجتهم للاستقواء به على ابن أبي بكر وليس حباً بمعاوية. فالعثمانية موجودون في مصر لأسباب لا علاقة لها بمعاوية، ولم يكونوا تابعين لمخططاته، وإنما هو يستفيد منهم بذكاء، ويجرّهم إلى معسكره.

معاوية يتخلص من الأشتر(2)

كان لمعاوية جهاز مخابرات فعّال، يشبه الظلمة المخابرات الحديثة من حيث التنظيم والتخصص في أعمال التجسس والمراقبة. وطبعا كان جهازه ينقل له أخبار العراق ومعسكر عليّ أولاً بأول. فلما قرر الإمام عليّ إرسال مالك الأشتر إلى مصر، أبلغه جواسيسه بالخبر فوراً، وعلى حد تعبير الطبري «وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية عليّ الأشتر».

وكان هذا خبراً سيئاً لمعاوية، لأنه يعرف مدى شدة مالك الأشتر ومدى خبرته التنظيمية والقتالية والميدانية أيضاً. ولا يُقارن مالك الأشتر بمحمد بن أبي بكر، الشاب اليافع، وقليل الخبرة والتخصص. ولذلك قرر معاوية أن يحاول التخلص من الأشتر بأي وسيلة قبل وصوله إلى مصر ودخولها، الذي كان من شأنه ربما أن يقلب خطط معاوية وابن العاص رأساً على عقب. فلجأ هنا إلى لجأ إلى أسلوب الرشوة والتآمر وشراء الذمم. ورسم خطة محكمة تعتمد على الغدر بالأشتر من حيث لا يتوقع!

فحتى تلك اللحظة لم يكن أهل البلاد الأصليين يتدخلون فيما يحدث من خلافات بين السادة العرب الفاتحين. كان أقباط مصر بكتلتهم معزولين عن التجمعات العربية، ذات الطابع العسكري في الغالب والآخذة بالازدياد

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
(2) مصادر هذا المبحث: تاريخ الطبري (ج4 ص71-72)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص299)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص169)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج6 ص74-76)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص194)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص347)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ق2 ص181).

في مصر، وكان دورهم مقتصراً على أداء الجزية والخراج للحكام العرب. وهنا قام معاوية بخطوة غير تقليدية حين أرسل إلى أحد الوجهاء المحليين في مصر، والمسمى الجايستار، عارضاً عليه أن يضطلع بالدور الرئيسي في مؤامرة اغتيال الأشتر، مقابل أن يعفيه من الضرائب والخراج في المستقبل *فبعث معاوية إلى الجايستار، رجل من أهل الخراج، فقال له: إن الأشتر قد ولي مصر، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت. فاحتل له بما قدرت عليه*"[1].

ولم يقاوم الجايستار هذا الإغراء الكبير وقبل القيام بالدور. والخطة تتلخص في أن يذهب الجايستار هذا إلى منطقة في بداية الحدود المصرية تدعى "القلزم"[2] من أجل استقبال والي الخليفة الجديد أول دخوله البلاد. وفعلا قام الجايستار هذا بالترحيب الشديد بالأشتر حين وصوله. ولم تثر شكوك الأشتر لأن هذا سلوك معتاد من قبل أهل البلاد الأصليين الميالين إلى الموادعة، فقبل أن يستضيفه الجايستار وأكل من طعامه، ولم يَدْرِ بخلده أن السُم قد مزج في العسل الذي قدمه الدهقان له!

قال البلاذري "*استقبله الرجل فأنزله وأكرمه وأتاه بطعام. فلما أكل قال له: أي الشراب أحب إليك أيها الأمير؟ قال: العسل، فأتاه بشربة منه قد جعل فيها سمّاً. فلما شربها قتلته من يومه أو من غده*"

ويكاد يكون هناك اجماع في المصادر على قصة تسميم الاشتر. وقد ذكرها بالاضافة الى الطبري والبلاذري كل من ابن حبان في كتاب الثقات واليعقوبي في تاريخه وغيرهما.

ولكن هناك من بين المصادر الاسلامية اثنان وجدتهما لا يصدّقان بقصة التسميم. الاول هو ابن خلدون حيث قال في تاريخه *فرحل الاشتر فنزل على صاحب الخراج بالقلزم فمات هنالك*. وقيل ان معاوية بعث الى

---

(1) تاريخ الطبري. وقريب من ذلك رواه ابن حبان في كتاب "الثقات"
(2) مكان قريب من مدينة السويس الحالية في مصر. وقال اليعقوبي أن قبر مالك الاشتر موجود بها.

صاحب القلزم نفسه على أن يُسقط عنه الخراج، وفعلا بعثه. ورغم ان ابن خلدون لم يشرح سبب عدم تصحيحه لرواية السمّ، إلّا ان له عندي مكانة عالية، ورأيه مُعتبر، فهو المؤرخ العقلاني المصلاق، وربما يعود رأيه هذا الى نزعته العقلانية التي لا تقبل كثيرا فكرة المؤامرات الخفية. والثاني هو ابن كثير، الأموي الهوى، الذي أعلن شكّه في الرواية، وعبّر عن ذلك بقوله «وفي هذا نظر». قال في البداية والنهاية ان علياً لما أرسل الاشتر الى مصر «فلما سار الاشتر اليها وانتهى الى القلزم استقبله الجايستار وهو مقدم على الخراج فقدم اليه طعاما وسقاه شراباً من عسل فمات منه.

فلما بلغ ذلك معاوية وعمراً واهل الشام قالوا: ان لله جنوداً من عسل.

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه ان معاوية كان قد تقدم الى هذا الرجل في أن يحتال على الاشتر ليقتله، ووعده على ذلك بأمور، ففعل ذلك.

وفي هذا نظر. وبتقدير صحته فمعاوية يستجيز قتل الاشتر لأنه من قتلة عثمان رضي الله عنه»

ومن الواضح هنا أن تشكك ابن كثير في رواية تسميم الاشتر مرده حسن الظن بمعاوية، لا غير.

والعلامة ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ذكر بشأن وفاة الأشتر عدة روايات:

واحدة عن المدائني، وفيها أن معاوية طلب من أحد عُمال الخراج «الذين يثق بهم في منطقة القلزم أن يحتال لقتل الأشتر مقابل وعد بإعفائه من الخراج ما بقيت وبقيت» وأنه نفذ ذلك عن طريق دعوة الاشتر للإقامة والاستراحة عنده وجعل السم له في العسل.

وأخرى عن الشعبي تقول ان معاوية «بعث رسولا يتبع الاشتر الى مصر وأمره باغتياله. فحمل معه مزودين فيهما شراب، وصحب الاشتر. فاستسقى الاشتر يوما فسقاه من احدهما. ثم استسقى يوما آخر منه فسقاه من الآخر، وفيه سم فشربه»

وثالثة عن مغيرة الضبي «ان معاوية دس للأشتر مولى لآل عمر، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضل علي وبني هاشم، حتى اطمأن إليه واستأنس به، فقدم الأشتر يوما ثقله أو تقدم ثقله فاستسقى ماء، فقال له مولى عمر: وهل لك في شربة سويق؟ فسقاه شربة سويق فيها سم فمات.»

وأضاف ابن أبي الحديد «قال ابراهيم (ابن سعد الثقفي): وقد روي من بعض الوجوه ان الأشتر قتل بمصر بعد قتال شديد.

والصحيح أنه سقي سما فمات قبل ان يبلغ مصر»

إذن «إن لله جنوداً من عسل» كانت ردة فعل معاوية على اخبار وفاة الاشتر. وقد عبّر عن سروره الشديد للخلاص من الاشتر بقوله «إنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان، قطعت إحداهما يوم صفين، يعني عمار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم يعني الأشتر»[1]

وأما ردة فعل عليّ، فكانت الحزن على فقدان الاشتر الى حد النحيب «قال عليّ: على مثلك فلتبك البواكي يا مالك، وأنّى مثل مالك»[2]

استطراد بشأن مبالغات بعض الرواة بشأن القتل بالسم

ويبدو ان لجوء عميل معاوية المصري الى التخلص من الاشتر عن طريق السم قد فتح شهية العديد من الرواة وشجعهم على تطوير نظريات بشأن وفاة العديد من الشخصيات بواسطة سم معاوية. وهناك مبالغات ظاهرة في الروايات الى حد أن الذين ذُكِرَ ان معاوية سممهم كان من بينهم رجال من أعمدة نظام معاوية وأقربائه ودعائم حكمه، وليس فقط أعدائه وأنصار علي وأهل بيته.

والمشكلة في موضوع الاغتيال بالسم هذا أنه لا يمكن إثباته أبداً في غياب التشخيص الطبي العلمي الحديث، يكفي أن يموت شخصٌ فجأة أو بسرعة حتى يقال انه قد تعرض للتسميم، خاصة إذا كان له شأن ما مع معاوية.

---

(1) تاريخ الطبري.
(2) تاريخ اليعقوبي

والسامع قد يميل إلى قبول تلك الرواية خاصة مع ما هو معروف عن معاوية من دهاء ومكر.

والحقيقة أن الموت «فجأة» أو خلال أيام معدودات في ذلك الزمان لا ينفي إمكانية أن الميت كان مصاباً بمرض داخلي خبيث أو عضال لم يشخصه أحد أو يعلم عنه، أو أزمة قلبية أو سكتة دماغية أو نوبة ضغط، إلى غير ذلك من الأمراض الكثيرة التي نعلم عنها اليوم ما يكن معروفاً آنذاك.

وكمثال على تلك المبالغات يمكن الرجوع الى كتاب «جواهر التاريخ (ج3 ص120-129)» للشيخ اللبناني علي الكوراني العاملي. فهو يقول:

نقلاً عن مقاتل الطالبيين «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما سماً فماتا منه»

وينقل عن البلاذري والعسكري وابن عساكر وابن حبيب ان معاوية قتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسم بواسطة طبيبه الرومي ابن أثال، وذلك بسبب ان أهل الشام كانوا له انهم يرونه أهلاً لخلافته!

وهو يتحدث عن معارضة عبد الرحمن بن ابي بكر لتعيين يزيد ولياً للعهد، ويشير الى وفاته الفجائية، ثم يستنتج ان معاوية سمّه !

وهو يضع عنواناً «هل قتل معاوية عائشة بنت ابي بكر؟؟» يتكلم فيه على مدى خمس صفحات عن خلافات عائشة مع معاوية في أواخر عهده، ليخلص الى ان معاوية قد تخلص منها عن طريق «مجموعته المتخصصة في السم بإدارة طبيب يهودي».

ويضع عنواناً آخر «هلك زياد بن أبيه بدعاء الامام الحسين وسمّ معاوية» ويشرح فيه ان زياداً عارض تعيين يزيد ولياً للعهد لما استشاره معاوية الذي «دفعه أصغر أمره الى مجموعة الاغتيال بالتخلص منه».

ولم يكتف الشيخ الكوراني بكل هؤلاء الذين اجتهد في البحث عن بعض النصوص التي تدعم نظرية تسميمهم فأضاف «ومن نظن أنه قتلهم»:

عبد الله بن عامر بن كريز، الذي مات «قبيل مبايعة يزيد بولاية العهد» ويقول عنه «لعله كان يطمع بالخلافة»

سعيد بن العاص الأموي فقد كان طامعاً بالخلافة ويرى نفسه أحق من معاوية لمكان جده في بني أمية»

محمد بن مسلمة الأنصاري «الذي اعترض على معاوية في مجلسه لأنه سكت على اتهام المتاعام يامين اليهودي(ص) بأنه غدر بصاحبه كعب بن الأشرف»

ولا داعي للاستطراد في نقض نظريات التسميم هذه والتي في أحسن الأحوال لا تعدو كونها ناتجة عن «الظن» ليس إلاّ. فالموت سبباً أمرٌ لا يمكن اثباته ولا نفيه. وحتى وجود روايات تتحدث عن دسّ سمّ لفلان من الناس لا يمكن أخذه دليلاً على حصول ذلك.

عمرو بن العاص يعود إلى مصر من جديد[1]

أصبحت الأجواء الآن مهيئة أمام معاوية لتحقيق هدفه الاستراتيجي بالسيطرة على مصر. فعقد اجتماعاً مع قادته المقرّبين[2] واتفقوا على إرسال حملة عسكرية إلى مصر بعد ترتيب الأمور والتنسيق مع العثمانية فيها. وطبعا لم يجد معاوية أفضل من عمرو بن العاص لكي يعهد إليه بقيادة الحملة المصرية، فهو صاحب الخبرة الطويلة جدا في الشؤون المصرية، وقد سبق له أن افتتحها وحكمها لعدة سنوات أيام عمر. وغدت الفرصة سانحة أمام ابن العاص لكي يحقق حلمه الذي لم يفارقه: العودة إلى حكم مصر.

تقدم عمرو بن العاص إلى مصر في جيش لجب من ستة آلاف. ولما اقترب منها كتب إلى محمد بن أبي بكر يأمره بالتنحي والتخلّي عن ولاية مصر.

---

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص344)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص175)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص194)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص450).

(2) ذكر ابن الأثير في الكامل أسماءهم: عمرو بن العاص / حبيب بن مسلمة / بسر بن أرطاة / الضحاك بن قيس / عبد الرحمن بن خالد بن الوليد / أبو الأعور السلمي / شرحبيل بن السمط الكندي.

قال ابن كثير في البداية والنهاية «وكتب عمرو بن العاص إلى محمد بن أبي بكر: أما بعد، فتنحَّ فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك. فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان، فاخرج منها فإني لك لمن الناصحين، والسلام.

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه: أما بعد، فإن غب البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا والتبعة الموبقة في الآخرة. وإنا لا نعلم أحداً كان أشد خلافاً على عثمان منك حين تطعن بمشاقصك بين خششائه وأوداجه. ثم إنك تظن أني عنك نائم أو ناسٍ ذلك لك، حتى تأتي فتأمر على بلاد أنت بها جاري وجل أهلها أنصاري. وقد بعثت إليك بجيوش يتقربون إلى الله بجهادك ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت، والسلام»[1]

رفض ابن أبي بكر التهديد وأمر الاستسلام الصادر من ابن العاص، وصمم على القتال بمن معه من المقاتلين الموالين له. وقبل ذلك كان قد كتب إلى عليّ بالكوفة يخبره بالتطورات وبقدوم جيش عمرو بن العاص ويطلب منه العون ويشكو ضعف قواته وجماعته «فإن كانت لك بمصر حاجة فأمدني بالأموال والرجال» فرد عليه عليّ «يأمره بالتحرز والاحتراس، وإذكاء العيون، وجمع شيعته إليه، وأن ينتدب كنانة بن بشر - وهو الذي ضرب عثمان بن عفان بعمود على رأسه - إلى عدوه ويعلمه أنه باعث إليه بالرجال على كل صعب وذلول»[2]

وبعد أن فقد ابن أبي بكر التأييد العام من مقاتلة مصر بسبب الحرب النفسية الهائلة التي شنها معاوية وحملة الترهيب التي نفخها ابن العاص،

---

(1) وبسبب حرصه على عدم السماح برواية ما يسيء إلى معاوية، تجنب ابن كثير، الأموي الهوى، ذكر جواب محمد بن أبي بكر الكلبي عمرو ومعاوية فقال «وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية في جواب ما قاله وفيه غلظة. وكذلك كتب إلى عمرو بن العاص وفيه كلام غليظ»

(2) أنساب الأشراف للبلاذري. ويضيف البلاذري أن علياً أرسل جيشاً صغيراً بقيادة كعب بن مالك الهمداني إلى مصر ولكنه رجع من الطريق بعد أن بلغته أخبار مقتل ابن أبي بكر.

أصبح جلّ اعتماده على قاعدته الصلبة من العثمانيين الذين كان لهم باعٌ طويل في معاداة عثمان بن عفان، وشاركوا في التمرد عليه وساهموا في قتله، وعلى رأسهم كنانة بن بشر السكوني.

ومن الجهة المقابلة، انضم «العثمانيون» القدماء في مصر إلى ابن العاص في حملته، وكانوا بقيادة فعالة من معاوية بن حديج، السكوني أيضاً، والذي هو من نفس قبيلة كنانة بن بشر.

وحصلت معركة طاحنة بين الفريقين، فكان جماعة محمد ابن أبي بكر وكنانة بن بشر، يدركون أن الجيش الشامي لن يرحمهم بعد كل الذي جرى من أحداث، خاصة وأن ابن أبي بكر وكنانة، كانا من الأشخاص المتهمين مباشرة بقتل عثمان، وكان القتال شديداً بين جيش من حوالي أربعة آلاف وآخر من ستة آلاف، وحسب تعبير اليعقوبي فلقيهم محمد بن أبي بكر في موضع يقال له: المسناة فحاربهم محاربة شديدة. وكان عمرو يقول: ما رأيتُ مثل يوم المسناة. وقد كان محمدٌ استكثر إلى اليمانية فمال عمرو بن العاص اليمانية

النهاية الشنيعة لابن أبي بكر[1]

وأورد الطبري مزيداً من التفاصيل حول القتال:

فاستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد.

فأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا من كنانة سرّح الكتائبَ كتيبة بعد كتيبة، فجعل كنانة لا تأتيه كتيبة من كتائب أهل الشام إلا شدّ عليها بمن معه فيضربها حتى يقربها بعمرو بن العاص. ففعل ذلك مراراً.

فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن خديج السكوني فأتاه في مثل الدهم فأحاط بكنانة وأصحابه. واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص79 وص82)، التاريخ الصغير للامام البخاري (ج1 ص104)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص297)، تاريخ الاسلام للذهبي (ج2 ص160)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ق2 ص142)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص349) الاستيعاب لابن عبد البر (ص 447)، نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج2 ص250 وج1 ص91)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص99).

فلما رأى ذلك كنانة بن بشر، نزل عن فرسه ونزل أصحابه وكنانة يقول (وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابا مؤجلا. ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين). فضاربهم بسيفه حتى استشهد رحمه الله.

وأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أصحابه لما بلغهم قتل كنانة حتى بقي وما معه أحد من أصحابه.

فلما رأى ذلك محمد خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها.

وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق، فسألهم: هل مر بكم أحدٌ تنكرونه؟

فقال أحدهم: لا والله. إلاّ أني دخلتُ تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس.

فقال ابن حديج: هو ورب الكعبة!

فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً. فأقبلوا به نحو فسطاط مصر.

ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جنده فقال: أتقتل أخي صبراً؟ ابعث إلى معاوية (ابن حديج) فانهه.

فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر.

فقال معاوية: أكذلك قتلتم كنانة بن بشر، وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر؟ هيهات. أكفاركم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟!

..... فقال له معاوية: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار.

فقال له محمد: إن فعلتم بي ذلك فطالما فعل ذلك في أولياء الله.

وإني لأرجو هذه النار التي تحرقني بها أن يجعلها الله عليّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله ابراهيم وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه. ان الله يحرقك ومن ذكرته قبل (يعني عثمان)، وإمامك (يعني معاوية)، وهذا (وأشار الى عمرو بن العاص) بنار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيراً.

قال له معاوية: إني إنما أقتلك بعثمان.

فقال محمد: وما أنت وعثمان؟ إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم القرآن. وقد قال الله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) فنقمنا ذلك عليه فقتلناه، وحسّنت أنت له ذلك ونظراؤك. فقد برأنا الله إن شاء الله تعالى من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه، وجاعلك على مثاله.

فغضب معاوية فقدمه فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار».

وقد اشتهرت هذه الحادثة التمثيل بجثة محمد بن ابي بكر وحرقة داخل حمار ميت، لفرادتها وبشاعتها[1]، فذكرتها معظم المصادر، إن لم يكن كلها. قال الذهبي في تاريخ الاسلام ان معاوية بن حديج لما القى القبض على محمد فقتله ثم جعله في بطن حمار وأحرقه». وفي تاريخ ابن خلدون «وطلب محمد الماء لمنعه ابن حديج جزاء بما فعل بعثمان ثم أحرقه في جوف حمار بعد أن لعنه ودعا عليه وعلى معاوية وعمرو». وذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير عن الحسن قال «لم يدع الله الفسقة، قتلة عثمان، حتى قتلهم بكل أرض»[2]. فأما ابن أبي بكر فضربت عنقه ثم جعل بدنه في مسك حمار ثم أحرق بالنار» وروى ابن عبد البر في الاستيعاب أنه لما سار عمرو بن العاص الى مصر فانهزم محمد بن ابي بكر، فدخل في خربة فيها حمار ميت، فقتل

(1) رغم ان هناك رواية ثانية تقول انه لم أسر محمد بن ابي بكر وأرساله الى عمرو بن العاص الذي أمر بأصحابه (أقتله صبراً). مثلاً وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن قال: «أتي به عمرو بن العاص فقتله صبراً». وروى شعبة وابن عيينة عن عمرو بن دينار قال: «أتي عمرو بن العاص بمحمد بن ابي بكر أسيراً فقال: هل معك عهد؟ هل معك عقد من أحد؟ قال: لا. فأمر به فقتل».

(2) وينبغي ملاحظة نبرة التشفي في كلام البخاري.

في جوفه، فأحرق في جوف الحمار. وقيل: بل قتله معاوية بن خديج في المعركة، ثم أحرق في جوف الحمار بعد»

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد أخرج نفس هذه الرواية في اجمالها، ولكنه شذبها بما ينسجم مع نزعته الأموية! وبالتحديد قام ابن كثير بحذف تفاصيل كلام محمد بشأن عثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وقدحه بهم. فقال عن ذلك «وقد ذكر ابن جرير وغيره أن محمد بن أبي بكر نال من معاوية بن خديج هذا ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضاً، فعند ذلك غضب معاوية بن خديج فقدمه فقتله، ثم جعله في جيفة حمار فأحرقه بالنار»

ويلاحظ ان ابن كثير قد اعترف بحادثة حرق جسد محمد في جيفة حمار، رغم بشاعتها. ومن ملاحظة منهاجه واسلوبه، لو كان في تلك الحادثة أدنى شك لضعفها أو لشكك بها، ان وجد لذلك سبيلا.

****

وقد كان خبر مقتل محمد ابن أبي بكر مؤلماً جدا للإمام عليّ، فقال: «.. فإنّ مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد. فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً ..»[1]

وقال في مناسبة أخرى عنه: «.. ولقد كان إليّ حبيباً وكان لي ربيباً»[2]

وروى الطبري حزن عليّ على محمد بن أبي بكر حتى رؤي ذلك في وجهه وتبيّن فيه.

«وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (ص) وقال: ألا ان مصر قد افتتحها الفجرة أولوا الجور والظلم الذين صدّوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً.

ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله، فعند الله نحتسبه. أما والله إنْ كان ما علمتُ لممن ينتظر القضاء ويعملُ للجزاء ويُبغض شكل الفاجر ويحب هدي المؤمن».

وقال اليعقوبي «وتفجّع عليه وقال: انه كان لي ولداً، ولولدي ولولد أخي أخاً»

---

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.
(2) نهج البلاغة بشرح محمد عبده.

الفصل الثاني: الصراع على اليمن

وتقوية شوكة أنصار عثمان ومعاوية في كل مكان: حال اليمن[1]

قال البلاذري «كان عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب -عامل علي على اليمن- اشتدّ على أهل صنعاء فيما يجب عليهم، وطرد قوماً من شيعة عثمان منها. وكان سعيد بن نمران الهمداني على الجند فصنع مثل ذلك. فجتمعت العثمانية وبعثت أن الأمر قد أفضى إلى معاوية واجتمع الناس عليه»

وروى ابن أبي الحديد «إن قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان يعظمون قتله لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعليّ عليه السلام على ما في أنفسهم، وعامل عليّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عبيد الله بن عباس وعامله على الجند سعيد بن نمران. فلما اختلف الناس على عليّ عليه السلام بالعراق، وقتل محمد بن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام تكلموا ودعوا إلى الطلب بدم عثمان.

فبلغ ذلك عبيد الله بن عباس فأرسل إلى ناس من وجوههم فقال: ما هذا الذي بلغني عنكم؟

قالوا: إنا لم نزل ننكر قتل عثمان، ونرى مجاهدة من سعى عليه.

فحبسهم.

---

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص3 وص4-24)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج2 ص[illegible])، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 15 ص[illegible])، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص454).

فكتبوا إلى من بالجند من أصحابهم فثاروا بسعيد بن نمران، فأخرجوه من الجند، وأظهروا أمرهم. وخرج إليهم من كان يستماه وانضم إليهم كل من كان على رأيهم. ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم، أرادوا أن يمنعوا الصدقة»

وبسبب تلك التطورات كتب عبيد الله بن عباس إلى عليّ:

«أما بعد: فإنا نخبر أمير المؤمنين عليه السلام أن شيعة عثمان وثبوا بنا، وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره واتسق له أكثر الناس.

وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومن كان على طاعته. وإن ذلك أحمشهم وألبهم فعبئوا لنا، وتداعوا علينا من كل أوب. ونصرهم علينا من لم يكن له رأي فيهم إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه.

وليس يمنعنا من مناجزتهم إلا انتظار أمر أمير المؤمنين»

فأرسل عليّ كتابين من المرفق: الأول إلى عبيد الله وسعيد[1]، يقرّعهما فيه على تخاذلهما وسوء تدبيرهما، والآخر إلى المتمردين من أهل اليمن يطلب منهم الاستمرار بالطاعة والوفاء بالبيعة، ويَعِدُهم بالعفو إن تراجعوا وبنفس الوقت يهددهم بإرسال جيش بقيادة يزيد بن قيس الأرحبي ليطحنهم إن هم أصروا على العصيان.

فكان رد فعل المتمردين أن أرسلوا إلى معاوية يسألونه المدد وقالوا له:

معاويَ إلاّ تسرع السيرَ نحونا نبايع علياً أو يزيد اليمانيا

واتفق البلاذري ان معاوية استجاب لهم، فأرسل سفاحه المشهور

---

(1) ولاحظ اعتذار سعيد بن نمران، الذي كان قائد الجند، بعد ذلك من الإمام علي على موقفه ولام عبيد الله بن العباس فيما حصل. فقد روى ابن أبي الحديد نص حوار بين الإمام علي وسعيد بن نمران اعتذر فيه الأخير عندما ونّبه عليّ قائلاً: «قد والله كلمت ولكن ابن عباس خذلني وأبى أن يقاتل ولقد خلوت به حين دنا منا بسر فقلت له إن ابن عمك لا يرضى مني ومنك بدون الجد في قتالهم. قال: لا والله ما لنا بهم طاقة ولا يدان. فقمت بالناس وحمدت الله ثم قلت: يا أهل اليمن من كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فإليّ إليّ. فأجابني منهم عصابة فاستقدمت بهم فقاتلت قتالاً ضعيفاً وتفرّق الناس عني وانصرفت».

بسر بن أرطأة في حملة عسكرية من 2600 جندي الى المدينة ومكة وقال له: «هلم امضوا الى صنعاء فإن لنا بها شيعة فانصرهم واستعن بهم على عمال علي وأصحابه، فقد أتاني كتابهم، واقتل كل من كان في طاعة علي اذا امتنع من بيعتنا، وخذ ما وجدت لهم من مال»

قال ابن عساكر بشأن هجوم بسر بن أرطأة على اليمن: «ثم مشى إلى اليمن وعليها يومئذ عبيد الله بن العباس عاملاً لعلي بن أبي طالب. فلما بلغ عبيد الله أن بسراً قد توجه إليه، هرب إلى عليّ واستخلف عبد الله بن عبد المدان المرادي. وكانت عائشة بنت عبد الله المدان قد ولدت من عبيد الله غلامين من أحسن صبيان الناس وأوضأه، وأنظفه، فذبحهما ذبحاً

فخرجت نسوة من بني كنانة فقالت منهن قائلة: أبهرا هذه! هذه الرجال تقتل فما بال الولدان ؟! والله ما كانوا يُقتلون في جاهلية ولا إسلام. والله إن سلطاناً لا يقوم إلاّ بقتل الضرع الصغير والمدره الكبير وبرفع الرحمة، وعقوق الأرحام لسلطان سوء.

فقال لها بسر: والله لهممت أن أضع فيكنّ السيف!

فقالت له: تالله إنها لأخت التي صنعت، وما أنا لها منك بآمنة.

وكانت أمهما قد هامت بهما، وكادت تخالط في عقلها وكانت تنشدهما في الموسم في كل عام تقول:

ها من أحس بابنيّ اللذين هما ... كالدرتين تجلّى عنهما الصدفُ

ها من أحس بابنيّ اللذين هما ... سمعي وقلبي فقلبي اليوم مختطفُ

ها من أحس بابنيّ اللذين هما ... مخ العظام فمخي اليوم مزدهفُ

حُدّثتُ بسراً وما صدقتُ ما زعموا ... من قولهم ومن الإفك الذي وصفوا

أنحى على ودجي ابنيّ مُرهفة ... مشحوذة وكذاك الإثم يُقترفُ

من ذا لوالهة حرّى مُفجعة ... على صبيين غابا إذ مضى السلفُ[1] »

---

(1) أبيات الشعر هذه في رثاء الولدين مشهورة للغاية ومذكورة في كثير من المصادر،

وقد تدارك عليّ الموقف المتدهور في اليمن. فقام بإرسال جيش من ألفي فارس بقيادة جارية بن قدامة، فوصل اليمن وقام بمواساة الناس - الذين أنقل عليهم بسر لوثيرا به- وملاحقة ابن أرطأة الذي فرّ إلى الشام. وهرب شيعة عثمان الى الجبال[1]. وهكذا تجمع في منع المسقط الكامل لليمن - ولو مؤقتاً - بيد معاوية.

استطراد بشأن جريمة بسر بن أرطأة في اليمن: قتل ولديّ عبيد الله بن عباس[2]

تتحدث معظم الروايات في مختلف المصادر عن الولدين اللذين قتلهما قائد قوات معاوية، بسر بن أرطاة، أثناء هجومه على اليمن، ذبحاً وبكل وحشية. والشعر اللاذع الذي قالته أم الغلامين عاطفيّ ومؤثر ومن المستبعد أن يكون مختلقاً، ولذلك فالتشكيك في حصول واقعة ذبح الغلامين ليس في محله خاصة مع ما هو معلوم بالضرورة من طباع ابن أرطأة. ولكنّ هناك ظلالاً من الشك حول هوية هذين الولدين، وهل هما حقاً ابنا عبيد الله بن العباس[3]؟!

فالمصادر ذاتها تحدثنا أيضاً أن عبيد الله بن عباس كان من قادة جيش الحسن بن عليّ في الكوفة سنة 41 عندما بويع بعد مقتل أبيه. وتقول المصادر أن عبيد الله بن عباس ارتكب فعل الخيانة في ذلك الوقت العصيب وانضم الى معاوية[4]! فكيف يمكن صدور فعل الخيانة هذا من جانب عبيد الله بن العباس

باختلافات طفيفة. ومنها الكامل لابن الأثير الذي حذف - كما سمّي أمير المؤمنين بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بسر».

(1) من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(2) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري(ج3 ص213 وص214)، كتاب الثقات لابن حبان(ج2 ص300)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص199)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص5 وص6-16)، تاريخ دمشق لابن عساكر(ج37 ص479 وج10 ص144)، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص91)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص355)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص340).

(3) من المصادر التي ذكرت أن الغلامين المقتولين هما ابنا عبيد الله بن العباس: اليعقوبي وابن عساكر وابن حبان والبلاذري والبخاري وابن الأثير وغيرهم الكثير. والروايات تقول أن اسم الغلامين: عبد الرحمن وقثم.

(4) سنأتي لاحقاً الى تفاصيل ذلك عند الحديث عن صلح الحسن ومعاوية.

بالقتلات علماً بأن حادثة مقتل ولديه الجميلين على يد قوات معاوية حصلت قبل شهور قليلة فقط؟!! فالمتوقع والطبيعي أن يكون عبيد الله بن العباس موتوراً وحاقداً على معاوية بشكل يفوق الآخرين. فكيف إذن يستجيب عبيد الله لدعوات وإغراءات معاوية ؟ وكيف يأمل معاوية أصلاً في استمالة عبيد الله؟ الأصل أن يكون يائساً منه وأن يدعه ويحاول مع غيره.

إذن هناك احتمالان لتفسير موقف الخيانة الذي صدر من عبيد الله بن عباس:

فإما أن يكون قد وصل درجة من الانهيار النفسي والمعنوي والانهزام الداخلي تجاه معاوية تدفعه إلى الاستسلام اللامشروط للرجل المسؤول عن قتل ولديه.

وإما أن يكون الغلامان المقتولان على يد بسر بن أرطاة ليسا ابنيه. وهو ما نرجحه.

فربما يكون الغلامان ابنين لمساعد عبيد الله الذي استخلفه ليدير الشؤون ريثما يصل هو إلى الخليفة علي في الكوفة.

وهناك بالفعل روايات تتحدث عن قتل ابن أو ابناء لمساعدي عبيد الله على يد بسر، رغم أنه في الأغلب يُذكر كل هؤلاء إلى جانب قتل ابني عبيد الله - كجريمة إضافية. وهناك اسمان يترددان. الأول هو عمرو بن أراكة الثقفي. فمثلاً روى ابن أبي الحديد أن بسراً لما وصل صنعاء، تصدى له عمرو بن أراكة الثقفي - الذي استخلفه عبيد الله بن عباس - إلى أن قتل. ثم أورد ابن أبي الحديد شعراً قاله عبد الله بن أراكة الثقفي في رثاء ابنه عمرو.

ولكن الاسم الأكثر تردداً هو عبد الله بن عبد المدان المرادي.

فمثلا ذكر اليعقوبي في تاريخه أن الذي استخلفه عبيد الله كان عبد الله بن عبد المدان الحارثي[1]، وأن بسراً قتله وقتل ابنه مالك.

---

(1) ابن كثير يذكر الاسم على النحو التالي «عبد الله بن عبد الله بن المدان الحارثي»، وأشار ابن كثير إلى تشككه في خبر قتل الغلامين المشهور «في صحته عندي نظر والله تعالى أعلم»، ولكنه لم يوضح سبب شكه. والسبب واضح عندي وهو أن ابن كثير يميل دائماً إلى التهوين من جرائم الأمويين ويهمه تبييض صفحة معاوية قدر الإمكان.

وقد روى البلاذري في أنساب الأشراف روايتين بهذا الشأن: الأولى عن الجماعة المذكورة وفيها أن الذي استخلفه عبيد الله - بعد أن هرب هو وسعيد - كان عبد الله بن عبد المدان الحارثي، وأن بسراً قتله وقتل ابنه مالك. والثانية عن الهيثم بن عدي وفيها أن الذي استخلفه عبيد الله على صنعاء كان عمرو بن أراكة الثقفي، وأن بسراً قتله، فرثاه أبوه بشعر عاطفي مؤثر.

كما أن هناك اختلافاً في الروايات حول اسم أم الغلامين: فهي تارة جويرية بنت قارظ الكناني[1] وتارة عائشة بنت عبد الله المرادي[2].

وبعض الروايات تقول ان عبيد الله بن العباس عندما فر ترك ولديه عند أخوالهما من بني كنانة فقام بسر بن أرطأة بقتلهما هناك[3].

ولأن وجود البعض ممن قرر أن يقاوم غزوة قوات معاوية في اليمن يجعل من إمكانية لجوء بسر بن أرطأة لذبح ابنائهم -الأطفال- أمراً ممكناً ومرجحاً أكثر من قيامه بقتل ابني الوالي المنهزم الفار عبيد الله بن العباس. ولذلك كله فإننا نرجح أن يكون قد حصل خلط لدى الرواة بشأن الغلامين المذبوحين لنسبهما لعبيد الله بن العباس المهزوم.

وجديرٌ بالذكر أن الرواة قد وصفوا موقفاً حصل فيما بعد في بلاط معاوية وبحضرته، يجتمع فيه عبيدالله مع بسر بن أرطأة فيذكر معاوية مسؤوليته عن قتل ابني عبيد الله ويقول له انه لم يأمر بذلك ولم يعلم به. فيقول عبيد الله انه لن يقتل بسرا بدم ابنيه لأنه أحقر وألأم من ذلك! وانه لن يدرك ثأره إلا إذا أصاب ابني معاوية نفسه: يزيد وعبد الله! وتضيف الرواية أن معاوية ابتسم واحتمل ذلك من عبيد الله الشريف وسيد قومه. ولا يخفى ما في هذه الرواية من ضعف: فكيف يطلب عبيد الله، الذي جبُن وفر من واجب الدفاع عن ولايته في اليمن،

---

(1) ذكر ذلك كل من الطبري في تاريخه والبلاذري في أنساب الأشراف، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

(2) ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن حبان في كتاب الثقات.

(3) وقال الطبري ان بسراً قتل معهما رجلاً كنانياً أصر على الدفاع عنهما. وقال البلاذري ان بسراً كان سيحبسهما أياماً عند قوم أمهما من أجل أن يأتيه أبوهما قبل أن يقتلهما. وفي رواية لابن أبي الحديد ان ذلك حصل عند مرور بسر على بني كنانة قرب الطائف، قبل وصوله الى صنعاء.

ومن ثم خانَ إمامه وتآلف الحسن، إلى بطول يواليه معاوية بهبة مالية ويغريه بمعسول الكلام؟ هذا الكلام لا يمكن ان يصدر عمن أخذ الرشوة من معاوية وقبل العتبة لنفسه. بل ان رواية البلاذري في أنساب الأشراف تذهب إلى ان بسراً ألقى سيفه على الأرض غضباً من كلام عبيد الله ووجه كلامه لمعاوية قائلاً له انه كان ينفذ أوامره، فأجابه معاوية معتذراً «خذ سيفك فإنك ضعيف الرأي حين ألقيت سيفاً بين يدي رجل من بني هاشم وقد قتلت ابنيه»!

وهناك رواية في تاريخ دمشق لابن عساكر تتحدث عن دخول عبيد الله على معاوية وكلامه معه بشأن بسر. وتظهر في هذه الرواية بكل جلاء بصمات الرواة الوضّاعين: فالرواية كلها أشبه بأدب المساجلات والمفاخرات! فهي لا تعبر عن حرقة أب لفقد ولديه على يد خلق مجرمين، بقدر ما تعبر عن حرص عبيد الله على إظهار مقدار فصاحته. فهو يقول لمعاوية انه يطالب ان يقيده من بسر الذي قتل ولديه ظلماً، ويسرد له مزاياه «وقد علمت قريش أني غير عشي المشافهة ولا سري المأكلة وإن أولنا ساد أولكم وإن آخرنا هدى آخركم ... وأيم الله لولا انه لا نحل في الاسلام لما سألتك استقادة بسر» ثم يبدأ بذكر أشعار لإظهار فضل بني هاشم في قريش ... الخ فيرد عليه معاوية بالشعر أيضاً وعلى نفس الوزن معترفاً بفضله وفضل بني عبد المطلب. وأقتطف منها البيتين التاليين اللذين يظهران معاوية مقراً بفضل بني عبد المطلب!

أنتَ علمتَ قريشاً جودها ... أدب منك والجود أدب

ليس تعريك قريش كلها ... ان خير القوم عبد المطلب

والطريف ان الرواية ذاتها تقول ان معاوية وافق على طلب القود وقال لعبيد الله «ان بسراً قتل ابنيك فاقتلهما لهما فاقتل ابنه بابنيك، فدونك الرجل» ولكن الرواية لا تذكر ماذا فعل عبيد الله ببسر بعد هذا التصريح من معاوية!

وخلاصة البحث عندي أن الولدين اللذين قتلهما بسر بن أرطأة في صنعاء ليسا ابني عبيد الله بن العباس بل ابنا نائبه عبد الله بن عبد المدان المرادي[1] الذي استخلفه عندما هرب لدى سماعه بقرب وصول قوات معاوية.

---

(1) واستبعد الاسم الثاني، عمرو بن أراكة الثقفي، لأن ثقيف متحالفة تاريخياً مع قريش، ومع الأمويين بالتحديد. ومن النادر وجود ثقفيين موالين لعلي بن أبي طالب ومتحمسين لأجل قضيته كما هو في الرواية.

الفصل الثالث:

معاوية يطمح إلى التهام العالم العراقي

محاولة السيطرة على البصرة بعد سقوط مصر(1)

قرر معاوية أن الوقت قد حان ليسعى لاستغلال الوضع القبلي المضطرب في البصرة ومحاولة الحصول على ولائها، بعد إخراجها من طاعة علي.

كانت تلك خطوة كبيرة من جانب معاوية، وتعكس بلا ريب تموّاً متزايداً في ثقته بجيشه ومعسكره، وفي ذلك الوقت إدراكه لعمق المشاكل والصعوبات التي تواجه علياً في العراق.

فالبصرة ليست رهاناً سهلاً. فهي الحاضرة الرئيسية الثانية في العراق، بعد الكوفة. والنجاح في الاستيلاء عليها سيشكّل ضربة شبه قاصمة لعليّ وسلطته. وسيضيق فضاء عليّ، عندها، لينحصر فعلياً في الكوفة وما شرقها من بلاد فارس، وسيجد عليّ نفسه وقد فقد بالفعل السيطرة على جلّ المناطق العربية وسكانها. فالشام ومصر صارت خالصة لمعاوية، والحجاز واليمن أصبحت مناطق «متنازع عليها» بينهما، وسقوط البصرة أيضاً سيؤدي فعلياً إلى سقوط البحرين واستتباب الأمر لمعاوية في الجنوب العربي بأسره.

---

(1) مصادر هذه البحث: تاريخ الطبري (ج9 ص55)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج2 ص100 وص424)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج4 ص42)، تاريخ خليفة بن خياط (ص148)، سيرة رسول الله للمباركفوري (ص237)، وكتاب العطاري للرطلي (ج1 ص65).

ومناورة معاوية باتجاه البصرة كانت في الحقيقة رهانا منه على قدرته على إحياء كل مآسي يوم الجمل بين أهلها. هو كان يراهن على الدماء التي سالت في البصرة، والتي لم يطل عليها العهد. وحسب خطة معاوية، فإن البصريين، أو جزءاً مهما منهم، سيكونون مهيئين لقبول حكم معاوية، نكاية بعليّ الذي وَتَرَهم يوم الجمل.

وسير الأحداث يُظهر أن كل رهان معاوية كان منصباً على هذا الوتر. فهو لم يُرسل جيشاً لفتح البصرة، ولا مقاتلين لهزيمة رجال عليّ، بل أرسل رجلاً خبيراً في الشؤون البصرية، وهو عبد الله بن عامر بن الحضرمي[1]، الذي كان تابعاً لعبد الله بن عامر بن كريز، والي البصرة أيام عثمان. وابن الحضرمي كان بلا شك يعرف أوضاع البصرة الداخلية تماماً، ويملك الصلات والعلاقات القديمة مع كثيرين من رجالاتها والمفاتيح فيها، بما يؤهله للنجاح في مهمته الصعبة تلك.

وكان والي عليّ على البصرة عبد الله بن عباس، حينذاك موجوداً في الكوفة عند عليّ[2]، وقد استخلف على البصرة وبيت مالها زياد بن أبيه.

ونزل ابن الحضرمي جاراً على قبيلة تميم في البصرة، التي تعهدت بحمايته، وبدأ من هناك عمله الدؤوب في محاولة السيطرة على البصرة وإخراجها من طاعة عليّ عن طريق بذل الوعود لوجهائها بالتبعية عن سيده معاوية. وباشر بالاتصال مع الذين كانوا على علاقة ببني أمية وولائهم والمستفيدين من أيام عثمان.

ولكن زياد بن أبيه، الذي كان يحكم والي عليّ في غياب ابن عباس،

---

(1) وأبوه كان حليفاً لجد معاوية عتبة بن ربيعة. وقد لعب أبوه عامر بن الحضرمي دوراً مميزاً في تحريض قريش على قتال المسلمين يوم بدر حين قام في جيشها يصرخ مطالباً بالثأر لدم أخيه عمرو الذي قتله المسلمون قبيل معركة بدر، ويبلغ حساب إلى درجة أنه «... كشف عن إسته وصرخ: واعمراه واعمراه! فحمي القوم ...» كما روى المباركفوري في الرحيق المختوم، وأيضاً كتاب المغازي للواقدي. وهو أيضاً كان ابن خالة عثمان بن عفان كما ذكر البلاذري.

(2) ولكن البلاذري في أنساب الأشراف يقول أن ابن عباس حينها كان موجوداً في مكة بعد أن انفصل عن عليّ أو بسبب غضبه حين شخص إلى مكة مغاضباً لعليّ.

أثبت أنه ذو قدرات عالية المستوى في مواجهة المخاطر والصعوبات. لجأ زياد إلى التعامل مع الأزمة بالأسلوب الوحيد الذي يمكن أن ينجح في تلك البيئة: اللعب على حبال القبائل المتنافسة! كان هذا الأسلوب يبرع فيه معاوية، ولسوء حظه أنه واجهه، على غير توقع، خصماً يجيد هذا الأسلوب أيضاً!

لجأ زياد إلى القبيلة الرئيسية في البصرة التي تنافس تميم وهي الأزد، وطلب منهم الحماية. وفعلاً استجاب أشراف الأزد انصياعاً للتقاليد العربية بإغاثة الملهوف ونكاية بتميم. وهكذا أصبح زياد في منعة بعد أن استثار حمية زعماء الأزد. ونزل زياد دار صبرة بن شيمان ومعه بيت المال.

وحرّض زياد من يوصل لزعماء الأزد أن تميماً تزدريهم وتستهين بشرفهم وتريد أن تعتدي على الذي أجاروه. وأدى ذلك بالفعل إلى أن الأزد زاد تصميمهم على التمسك بزياد وحمايته كي لا يفرطوا بشرف القبيلة!

وأرسل زيادٌ إلى الإمام عليّ يخبره بتطورات الأوضاع في البصرة. فقام عليّ باختيار شخص من قبيلة تميم وأرسله من الكوفة ليقنع قومه في البصرة بالتخلي عن ابن الحضرمي. وفعلاً ذهب أعين بن ضبيعة إلى البصرة، ولكنه دخل في سلسلة مشاكل هناك، داخل أجنحة قبيلة تميم، أسفرت عن مقتله[1].

وأصبحت هناك حالة من التوازن في البصرة، أقرب إلى الهدنة، بين القبيلتين. فالأزد تحمي وتمنع زياداً، بينما تميم تدفع عن ابن الحضرمي. وبقي الخصمان متربصين ببعضهما بانتظار عامل حسم لا بد أن يأتي من الخارج.

فأرسل الإمام عليّ رجلاً آخر من تميم وهو جارية بن قدامة، في كتيبة صغيرة إلى البصرة. ونجح جارية هذه المرة في إقناع معظم قومه بالتخلي عن مندوب معاوية، بعد أن قرأ عليهم كتاب عليّ. وقام جارية بمطاردة ابن الحضرمي وحصره وقتله مع السبعين رجلاً الذين كانوا معه، وأحرق عليهم دارهم.

---

(1) البلاذري في أنساب الأشراف يذكر احتمالين لقتل أعين بن ضبيعة: أن ابن الحضرمي دسّ له من قتله وهو نائم أو أن جماعة من الخوارج الحرورية قتلوه.

وهكذا فشلت مؤامرة معاوية في البصرة ورجع زياد إلى دار الإمارة.

كان هذا ملخصاً للروايات الموجودة في تاريخ الطبري[1].

وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة تفاصيل وافية جداً عن هذا الموضوع، نقلاً عن كتاب الغارات لإبراهيم بن هلال الثقفي. وفيها تظهر قبيلة الأزد وهي تعكس موقفها الذي اتخذته يوم الجمل -حين ناصرت عائشة وجمعها- وتقرر تأييد أمير المؤمنين عليّ وعدم تكرار الخطأ السابق. وفيها يظهر أن معاوية -وهو الأستاذ الماهر في التلاعب بالقبائل والعصبيات- اضطر مرغماً إلى دفع ثمن نزاعات القبائل في البصرة. فقد أرغم رجل معاوية إلى الاختيار: إما الأزد وإما تميم؛ وفشل في إرضاء الطرفين معاً. وهكذا فإن معاوية الذي عاش هذه المغامرة على أساس استغلال الولاءات القبلية، وبالأخص مشاعر المرارة لدى الذين خسروا أبناءهم في حرب علي يوم الجمل -وجلهم من الأزد- وجد ما راهن عليه يرتد ضده: فالأزد هنا يفتخرون في حمايتهم لوالي علي، وهو زياد، ويظهرون استعدادهم لحمل السلاح وخوض القتال ضد تميم؛ لأن مندوب معاوية اختارهم عليهم ونزل لديهم، فعدّوا ذلك إهانة لهم وقرروا إظهار أنهم ليسوا بأقل شأناً من خصومهم. وفي القصة الطويلة أن معاوية كان قد تلقى دعوة من رجل من عبد القيس[2] لإرسال من يأخذ البصرة له وأنه استشار عمرو بن العاص الذي كان بمصر بعد قتل ابن أبي بكر فشجعه بقوة. وفيها أيضاً أن زياداً هو الذي طرح اسم جارية بن قدامة على عليّ لإرساله إلى البصرة بعد مقتل أعين بن ضبيعة. كما يظهر أن مندوب معاوية نجح إلى حد كبير جداً في السيطرة على البصرة ولقي تأييداً عاماً هناك، لولا موقف زعيم الأزد صبرة بن شيمان؛ وإلى درجة دفعت علياً إلى تهديد مخالفيه بالبصرة بالشخوص إليهم بنفسه إن لم ينهضوا مع جارية. كما يظهر مدى العجز القيادي لابن عباس الذي ترك مصره إبان تلك الأحداث

---

(1) ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه هذه القصة باختصار، ضمن أحداث سنة 38، ولكن الأرجح أن تكون الأحداث جرت بعد سنة 38.

(2) وفي رواية البلاذري أن «جماعة من العثمانية بعثوه بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر، ويسألونه أن يوجه إلى البصرة رجلاً يطلب بدم عثمان ليسمعوا له ويطيعوا»

الخطيرة ولم يبدِ أي اهتمام بالعودة إليها لمعالجة تدهور الأحوال مع قدوم ابن الحضرمي، وترك كل شيء لزياد ليتدبر الأمور وحده. ويكرر الأحنف بن قيس هنا موقفه القديم: فيعتزل الفريقين.

استطراد بشأن «خيانة» عبد الله بن عباس(*)

في الواقع تحدثنا المصادر عن خيانتين لابنَي عباس: الأولى خيانة عبد الله بن عباس لعلي بن أبي طالب حين كان واليا له على البصرة سنة 40، والثانية خيانة أخيه عبيد الله بن عباس للحسن بن علي بن أبي طالب حين كان من قادة جيشه في الكوفة لما قدم إليها معاوية سنة 41. وسوف نأتي للثانية لاحقا عند الوصول الى موضوع صلح الحسن ومعاوية.

هناك اشكالية حقيقية في الروايات التي تتحدث عن قصة خيانة عبد الله بن عباس لأمير المؤمنين عليّ وقيامه بسرقة بيت المال في البصرة وحمله معه الى مكة بعد أن فارق علياً اثر خلاف شديد بينهما. والاشكالية تنبع من كون ابن عباس معروفاً بنشاطه الشديد في تأييد ابن عمه عليّ وانخراطه في صفوفه طوال احداث الفتنة الكبرى، من الجمل الى صفين الى النهروان، بل وقيام عليّ باعتماده كمستشار مخلص له ومن ثم تعيينه والياً على البصرة. كما أن ابن عباس استمر في ولائه لعليّ والدفاع عنه ومن سمعته في العهد الاموي – أيام معاوية. وهناك روايات كثيرة توضح ذلك. ولا ننسى أن ابن عباس ذاته هو راوي الحديث النبوي المشهور في صحيح مسلم والذي به ذمّ لمعاوية (لَا أَشْبَعَ اللَّهُ بَطْنَهُ)، مما ينفي عنه، من حيث المبدأ، تهمة موالاة معاوية او الترويج له.

(*) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي (ج4 ص 55-56) و(ج3 ص 188)، أنساب الأشراف للبلاذري تحقيق محمد باقر المحمودي (ص 169-173 من ترجمة علي بن أبي طالب)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج20 ص 139)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج3 ص 98-107)، تاريخ الطبري (ج4 ص 108-109)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي (ج2 ص 781)، كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي (ج4 ص 241-242)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص 99)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ق2 ص 184).

ولكن المصادر غير متفقة بشأن «خيانة» عبد الله بن عباس: فبعضها يذكر القصة بتفاصيلها وبشكل مُسيء جداً لابن عباس، وبعضها لا يذكر القصة على الاطلاق، وبعضها يذكرها مختلفة أو ملطفة أو بشكل عرضي مُبهم.

بل إني اكتشفتُ أمراً مثيراً للغاية يعني في الموضوع: اختلاف نفس المصدر بهذا الشأن، وبالتحديد كتاب أنساب الأشراف للبلاذري. ففي النسخة التي حققها محمد باقر المحمودي من الكتاب وطبعتها مؤسسة الأعلمي في لبنان توجد كل الرواية وتفاصيل الرسائل المسيئة كاملة، بينما لا توجد هذه الرسائل والتفاصيل في النسخة التي حققها سهيل زكار ورياض زركلي وطبعتها دار الفكر في لبنان أيضاً!

وهذه رواية البلاذري في نسخة أنساب الأشراف بتحقيق المحمودي:

(قالوا) ان علياً استعمل ابن عباس والياً على البصرة وأبا الأسود الدؤلي على بيت مالها. فكتب أبو الأسود رسالة إلى الخليفة علي في الكوفة يتهم فيها ابن عباس «... وإن عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك، ولا يسعني كتمانك ذلك...». فأرسل عليٌ كتاباً إلى ابن عباس - دون أن يطلعه على ما وصله من أبي الأسود «أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وأخزيت أمانتك وعصيت إمامك وخنت المسلمين. بلغني أنك جردت الأرض وأكلت ما تحت يديك. فارفع إليّ حسابك واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس. والسلام»

فأجابه ابن عباس «أما بعد. فإن الذي بلغك عني باطل. وأنا لما تحت يدي أضبط وأحفظ. فلا تصدق عليّ الأظناء رحمك الله. والسلام»

فلم يقتنع عليٌ بجوابه وكتب له «أما بعد فإنه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذتَ من الجزية؟ ومن أين أخذته؟ وفيما وضعتَ ما أنفقتَ منه؟ فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه. فإن المتاع بما أنت رازئ منه قليل وتباعة ذلك شديدة. والسلام»

وعند ذلك انفجر ابن عباس في وجه عليّ فكتب له كتاباً قبيحاً «أما بعد فقد فهمتُ تعظيمك عليّ مرزأة ما بلغك أني رزأته من أهل هذه البلاد،

ووالله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من ذهبها ولجينها، ويطلاع ما على ظهرها، أحبّ إليّ من أن ألقاه وقد سفكتُ دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة. فابعث إلى عملك من أحببتَ.

وأجمع ابن عباس على الخروج

قالوا: فلما قرأ علي الكتاب قال: أو ابن عباس لم يشركنا في هذه الدماء؟!»

ثم تتابع الرواية فتقول ان ابن عباس لجأ إلى أخواله من قبيلة بني هلال لكي يحموه أثناء خروجه من البصرة بعد أن حمل معه المال وهو ستة آلاف ألف، فلحقته القبائل الأخرى، الأزد وبكر بن وائل وتميم، وهو غير بعيد عن البصرة يريدون أخذ المال. ولكن بني هلال، وعموم القيسية، أصرّوا على حماية ابن عباس فتطورت الاشكاليات بين القبائل وحصلت مناوشات محدودة بين بعض الأفراد إلى أن نجح ابن عباس وحماته في الوصول سالماً إلى مكة. وفي مكة بدأ ابن عباس في الاستمتاع بالأموال فاشترى ثلاث جوارٍ مولدات.

فكتب إليه علي رسالة قاسية جداً «أما بعد فإني كنتُ أشركتك في أمانتي ولم يكن في أهل بيتي رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي وموازرتي وأداء الأمانة إليّ. فلما رأيتَ الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو عليه قد حرب، وأمانة الناس قد خربت وهذه الامة قد فتنت، قلبتَ له ظهر المجنّ ففارقته مع القوم المفارقين، وخذلته أسوأ خذلان الخاذلين وخنته مع الخائنين. فلا ابن عمك آسيتَ ولا الأمانة أديتَ، كأنك لم تكن الله تريد بجهادك؟! وكأنك لم تكن على بينة من ربك! وكأنك إنما كنتَ تكيد امة محمد عن دنياهم وتطلب غرتهم عن فيئهم! فلما أمكنتك الشدة أسرعتَ العدوة وأغلظتَ الوثبة وانتهزتَ الفرصة واختطفتَ ما قدرتَ عليه من اموالهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الهزيلة، وظالعها الكسير، فحملتَ أموالهم إلى الحجاز رحيب الصدر، تحملها غير متأثم من أخذها كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ إنما حزتَ لأهلك تراثك عن أبيك وأمك؟ سبحان الله أفما تؤمن بالمعاد؟! ولا تخاف سوء الحساب! أما تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراماً؟! أو ما يعظم عليك وعندك

أنك تستمن الإماء وتنكح النساء بأموال اليتامى والأرامل والمساكين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم البلاد؟! فاتق الله وأدّ أموال القوم فإنك والله إن لا تفعل ذلك ثم أمكنني الله منك لأعذرن إليه فيك حتى آخذ الحق وأرده، وأقم الظالم وأنصف المظلوم. والسلام

فكتب إليه عبد الله: أما بعد فقد بلغني كتابك تعظم عليّ إصابة المال الذي أصبته من مال البصرة. ولعمري إن حقي في بيت المال لأعظم مما أخذتُ منه. والسلام.

وتتابع الرواية بأن عليا بعث له برسالة تقريعية أخرى شديدة اللهجة.

وأضاف البلاذري فقال زعم بعض الناس أن عبد الله لم يبرح البصرة حتى صالح الحسن معاوية. وليس ذلك بثبت، والثبت أنه لما قتل أمير المؤمنين علي عليه السلام كتب إلى الحسن كتابه -الذي نذكره إن شاء الله في خبر صلح الحسن ومعاوية- من الحجاز.

ولكن في طبعة أنساب الأشراف بتحقيق الدكتور سهيل زكار وزميله وجدتُ فقط اتهاماً من ابن الزبير لابن عباس بالسرقة (في الجزء الرابع - ترجمة عبد الله بن عباس)، ولم أعثر على تلك الرسائل الشديدة اللهجة والاتهامات الموجهة من علي لابن عباس[1].

هذا ما وجدته في نسخة أنساب الأشراف بتحقيق سهيل زكار ورياض زركلي:

ان عبد الله بن الزبير قال وهو على المنبر بمكة كلاماً سيئاً جداً بحق ابن عباس، من ضمنه قوله حمل ما في بيت مال البصرة وترك أهلها يرضخون النوى!! وفي الرواية ان ابن عباس قد رد عليه كما يلي: «...وأما حملي مال البصرة فإنه كان مالاً جبيناه ثم أعطينا كل ذي حق حقه وبقيت منه بقية هي دون حقنا في كتاب الله وسهامه فأخذناه بحقنا»[2].

---

(1) رغم انه في الجزء الثالث يذكر - مؤرخاً - ان ابن عباس كان قد ذهب الى مكة مغاضباً لعلي، وأن أبا الأسود الدؤلي كان كتب به الى علي.
(2) يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن المدائني نفس هذه الرواية بالحرف تقريباً.

ولستُ أدري سبب هذا الاختلاف. هل يُحتمل أن يكون موضوع شبهة المحمودي وسنّة زكار سبباً لحذف عبارات أو إضافة فقرات في كتاب البلاذري؟! هل يفعل الباحثون المحترفون ذلك؟! أم أن النسخة المخطوطة التي حققها كل منهما كانت في الأصل مختلفة هكذا؟! لستُ متأكداً.

وقد روى ابن عبد ربه في العقد الفريد رواية الخيانة برمتها، عن أبي مخنف، وبتفاصيل أكثر قليلاً من نسخة المحمودي من أنساب الأشراف. وفيها إضافة الى اختتام المراسلات بين علي وابن عباس كان برسالة من عبد الله بن عباس قال له فيها عن المال «والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنه الى معاوية يقاتلك به. فكفّ عنه علي»

كما قدم ابن عبد ربه رواية أكثر اختصاراً عن أبي بكر بن أبي شيبة فيها تفسير لاختلاس ابن عباس أموال البصرة وهو أنه تأول أن ذلك حق له «كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد (ص)، ولم يستعمله قط. فقال له يوماً: كدتُ أستعملك، ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل.

فلما صار الأمر الى علي استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى) واستحله من قرابته من رسول الله (ص)»

وروى الطبري في تاريخه عن أبي مخنف رواية مفارقة ابن عباس لعلي في أحداث سنة 40 للهجرة. وروايته تتشابه في عمومها مع نسخة المحمودي من أنساب الأشراف، ولكنها مختلفة قليلاً وخالية من العبارات الجارحة. فهو يذكر كتاب أبي الأسود الدؤلي بشأن خيانة ابن عباس، وجواب عليّ له، وكتابه الى ابن عباس وجواب الأخير عليه منكرا الخيانة، وتشديد عليّ في طلب المحاسبة مما دفع ابن عباس الى إبلاغ عليّ باعتزاله العمل له، ولكن الرواية تخلو من الجزء المثير للإشكال من رد ابن عباس وهو «والله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها ولجينها، وبطلاع ما على ظهرها، أحبّ إليّ من أن ألقاه وقد سفكتُ دماء الأمة لأنال بذلك المُلك والإمارة».

ثم تتابع الرواية فتقول ان ابن عباس لجأ إلى أخواله من قبيلة بني هلال لكي يحموه أثناء خروجه من البصرة، بعد أن حمل معه المال، ولكن دون ذكر رقم معين (الذي هو ستة آلاف ألف عند البلاذري)، ووصفت الرواية المال بأنه «كانت أرزاقا قد اجتمعت فحمل معه مقدار ما اجتمع له»

ثم يذكر أبو مخنف عند الطبري مشاكل القتال على نحو قريب مما رواه البلاذري في انساب الاشراف، وينهي روايته بوصول ابن عباس الى مكة سالماً، ولكن دون ذكر شرائه للجواري المولدات ولا ذكر رسالة علي له التي فيها (أفما تؤمن بالمعاد؟! ولا تخاف سوء الحساب؟ أما تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراماً؟!).

وبعد أن أنهى الطبري رواية أبي مخنف قال «وحدثني أبو زيد قال: زعم أبو عبيدة ولم أسمعه منه، أن ابن عباس لم يبرح من البصرة حتى قتل علي عليه السلام، فشخص الى الحسن فشهد الصلح بينه وبين معاوية ثم رجع الى البصرة وثقله بها، فحمله ومالا من بيت المال قليلا وقال: هي أرزاقي.

قال أبو زيد: فذكرت ذلك لأبي الحسن فأنكره وزعم أن عليا قتل وابن عباس بمكة وأن الذي شهد الصلح بين الحسن ومعاوية عبيد الله بن عباس»

وقد أخرج ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح رواية الخيانة ولكن مع اختلاف في تفاصيلها 1 وهو قال ان كتاب ابي الأسود الدؤلي الى عليّ يخبر سرقة ابن عباس للأموال كان ترفعاً من الوشاية سببها الخلاف الحاد الذي وقع بين أبي الأسود وزياد بن أبيه في البصرة وانحياز ابن عباس الى زياد وتقريعه لأبي الأسود «مالك وللأمراء تهجوهم وتقول فيهم القبيح وتذكر أعراضهم بما لا يجب. أخرج عني، فعل الله بك وفعل». وتذكر رواية ابن أعثم صيغة معدلة للرسالة التي بعثها عليّ لابن عباس «بلغني عنك أمرٌ الله أعلم به. فإن تكن حقا فلست أرضاها لك وإن تكن باطلاً فأنسها على من اقترفها. فإذا ورد عليك كتابي هذا فأعلمني ما جبيته وما أخذت من مال البصرة من أين أخذته، وفيم وضعته». وهذه الرسالة ليست شديدة ولا قاسية بل هي أقرب الى الاستفسار منها الى الاتهام وهي بالتأكيد لا تستحق ذلك الجواب الغريب

الذي أرسله ابن عباس «أن الذي بلغك عني باطل، وإني لما تحت يدي لضابطٌ وحافظ، فلا تصدق الظنون المرتابة. وأما تعظيمك مرزأة ما رزأته من هذه البلدة فوالله لئن ألقى الله عز وجل بما في الأرض من لجينها وعقيانها وعلى ظهرها من طلاعها أحبّ إليّ من أن ألقاه وقد أرقتُ دماء الأمة؛ فابعث لعملك من أحببت فإني معتزل عنه والسلام». وهذه الخاتمة الغريبة لهذه الرواية فتكتب إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بكتاب يعتذر فيه على غضبه ويكذّب من سعى به إليه، وأعاده إلى عمله !».

فواضحٌ تماما عدم الانسجام بين أجزاء رواية ابن أعثم.

وابن خلدون في تاريخه أخرج الرواية بشكل مختصر، واستعمل كلمة فراق ابن عباس لعليٍّ في وصف ما جرى. ولعلها لابن عباس برر موقفه كما يلي هو لم يبعث الأمراء وقالت عنه أرزاقنا ثم توجه إلى مكة.

وذكر ابن أبي الفتح الإربلي في كشف الغمة، وهو من المصادر الشيعية[1]، أن عبد الله بن العباس كان موجودا مع الإمام الحسن حين بويع عقب مقتل أبيه في الكوفة «فقام عبد الله بن العباس رحمة الله عليهما بين يديه فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصيّ إمامكم فبايعوه. فاستجاب له الناس....»

وهذا يعني أن ابن عباس كان موجودا في الكوفة عند مقتل علي، لأنه لا يمكن تصور أن يقدم من مكة إلى الكوفة بهذه السرعة الخارقة! وهذا يشكل على قصة خيانته.

كما يُشكل على قصة الخيانة ما رواه ابن سعد في ترجمة أبي الأسود الدؤلي في طبقاته من أن ابن عباس ذاته قد استخلفه حين خرج من البصرة ولحق عليّاً أثره.

---

(1) والمصادر الشيعية كما هو معروف حساسة جدا تجاه كل من خالف أو اختلف مع علي بن أبي طالب وشيعته الكثيرة عليه. وكلامها الإيجابي عن ابن عباس مؤشرٌ على تزكيته ونبرئه.

الخلاصة: الحكم على قصة خيانة عبد الله بن العباس

لا يمكن تصديق أن ابن عباس قد نهب بيت مال البصرة وفرّ به الى الحجاز. فالسرقة بتلك الشكل الصارخ والمفضوح لا يمكن ان تصدر عن شخص بمكانة ابن عباس، الذي كان في منتصف الاربعينات من عمره، صاحب علم وقرابة من رسول الله (ص). وهو قد عُرف لاحقاً بفقهه واختصاصه بشؤون الدين وتفسير القرآن.

أما الذي يمكن ان يكون حصل فهو أن ابن عباس لم يحتمل تطورات الاحداث وشدّتها وخطورتها، من الجمل لصفين للنهروان لغارات معاوية لصراع القبائل، الى آخر تلك السلسلة الجهنمية من الاحداث المتسارعة التي لا ترحم والتي صارت أخيراً تتجه لصالح معاوية وجماعته على حساب عليّ وخلافته. فربما جعل ذلك كله ابن عباس يقرر مراجعة موقفه والانسحاب من «الفتنة» فراراً الى بيت الله في مكة[1]. تورّعٌ من الضعف. فلعلّه ذهب في موسم الحج سنة 39 الى الحجاز وبقي هناك ولم يعد الى البصرة، وقد يكون أخذ معه من بيت المال ما يراه حقاً له، من عطاء مستحق ولكونه من اقرباء رسول الله (ص)، أي ذوي القربى. والى ابن عباس لم يكن شخصية قيادية او إدارية ناجحة، ولم يكن من ذوي الخبرة والكفاءة في تولي مسؤوليات الحكم وإدارة ولاية مهمة بحجم البصرة. وقد لاحظنا كيف أن زياد بن ابيه كان اقدر منه وأقوى على تحمل مسؤوليات القيادة ومجابهة الصعوبات والظروف الحرجة. فكانت مكانة زياد ترتفع وأهميته تبرز حتى وهو يعمل تحت ظل ابن عباس في البصرة.

وأخيراً، ربما يكون عليّ قد ارسل لابن عباس، عندما علم بتركه البصرة، يسترضيه ويستعجبه من الحجاز، فعاد الى الكوفة.

محاولة أقلّ طموحاً: معاوية يستهدف السماوة[2]

لم ييأس معاوية من مشروعه العراقي. ولكنه أصبح أكثر واقعية هذه المرة

---

(1) يحلو لي ان اشبه ابن عباس الاقرب الى نوعية وشخصية عبد الله بن عمر.
(2) أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص223)

حين أرسل، بعد فترة لم تُعلن عنها ما حصل في البصرة، رجلاً من قبيلة كلب يدعى زهير بن مكحول إلى السماوة وهي تقع على الفرات ما بين البصرة والكوفة، من أجل إخراجها من طاعة عليّ. وبالفعل فإن زهير بن مكحول بدأ في قبض الصدقات لحساب معاوية. ولا شك أن متدوب معاوية قد استفاد من انشغال عليّ وقواته في الصراع الداخلي ضد الخوارج بالإضافة إلى السمعة الرهيبة التي اكتسبتها قوات معاوية التي كانت بدأت بشنّ موجة الغارات الوحشية على المناطق التي هي بطاعة عليّ.

ولمواجهة ذلك أرسل عليّ ثلاثة رجال: جعفر بن عبد الله الأشجعي، وعروة بن العشبة (من قبيلة كلب) والجلاس بن عمير. وخاض هؤلاء معركة ضد جماعة معاوية في السماوة فخسروها، وقتل منهم جعفر بينما فرّ الجلاس وابن العشبة. ولما رجع ابن العشبة عائدا إلى عليّ في الكوفة، غضب عليه واتهمه بالجبن وعاقبه لذلك، مما أدى إلى فرار ابن العشبة من العراق ولحوقه بمعاوية في الشام.

الفصل الرابع:

غاراتُ معاوية وسياسة البطش والترهيب[1]

قرر معاوية أن يستغل ظروف الاضطراب في العراق وأن يتحول إلى استراتيجية هجومية!

بدأ معاوية في شن حملةٍ واسعةٍ من الغارات على المناطق الخاضعة لحكم عليّ. وكانت المعالم الرئيسية لتلك الغارات على النحو التالي:

إرسال قوات عسكرية صغيرة الحجم نسبياً

استهداف منطقة محددة بعينها، وتكون في الغالب بعيدة نسبياً عن مركز خلافة علي في الكوفة.

الهجوم المفاجئ، المركّز، وغير المسبوق بأي مقدمات.

الحرص على ارتكاب جرائم مارعة، ذات صدى إعلامي واسع، وممارسات ترويعية بحق الناس الذين هم في طاعة عليّ

عدم احتلال المنطقة المستهدفة، والانسحاب منها عقب تنفيذ المهمة.

والنص التالي لابن أبي الحديد يوضح تماماً فلسفة معاوية من شن الغارات:

«... تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفت أهوائهم، ووقعت الفرقة بينهم...»

---

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص3 وص42)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص195-197 وص200)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص227)، تاريخ الطبري (ج4 ص104)، البداية والنهاية لابن كثير (ج3 ص354).

ولذلك اقترح نفرٌ من الذين أرادوا اغتنام الفرصة على الوليد بن عقبة بن أبي معيط أن يذهب لمعاوية ويكلمه، ففعل:

«... فذكره أنه ما يُشير به إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم أو يصالح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره...

فشمّر للحرب، وناهض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغرّة، فإنك لا تدري متى تقدر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها. وأن تسير إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه لولا تفرق الناس على صاحبك، لقد نهض إليك»

فأجاب معاوية:

«إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم واختلاف أهوائهم لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم وأن أسير إليهم مخاطراً بجندي، لا أدري عليّ تكون الدائرة أم لي؟ فإياكم واستبطائي، فإني آخذ بهم في وجه هو أرفق بكم، وأبلغ في هلكتهم.

قد شننتُ عليهم الغارات من كل جانب: فخيلي مرة بالجزيرة، ومرة بالحجاز، قد فتح الله فيما بين ذلك مصر، فأعز بفتحها ولينا، وأذل به عدونا.

فأشرافُ أهل العراق لما يرون من حُسن صنيع الله لنا، يأتوننا على قلائصهم في كل أيام، وهذا مما يزيدكم الله به وينقصهم، ويقويكم ويضعفهم، ويعزكم ويذلهم.

فاصبروا ولا تعجلوا، فإني لو رأيتُ فرصتي لاهتبلتها»

إذن هي نوعٌ من حرب الاستنزاف، يشنها معاوية يهدف من خلالها إلى إظهار ضعف عليّ وتراجع نفوذه وعزلة موقفه العسكري، أراد معاوية أن يبدو أمام عامة المسلمين بمظهر الأقوى والمُبادر. وهدفه تشجيع كافة العناصر التابعة لعليّ، وخاصة في المناطق البعيدة عن معقل عليّ في الكوفة، على تركه والانضمام إلى معاوية باعتباره الرجل الكاسب في الصراع. لم يرَ معاوية أن الوقت قد حان لشنّ حرب كبرى كاسحة على عليّ في الكوفة لأن ذلك من

شأنه توحيد أهل العراق من جديد خلف عليّ. فلذلك كانت سياسة القضم التدريجي لمناطق الأطراف هي الحل المناسب لهذه المرحلة. وكان لا بدّ، بنظر معاوية، من إظهار قدر كبير من القوة والبطش تجاه أنصار عليّ في كل مكان، ممن يقررون مقاومة قواته وعدم الاستسلام أو الفرار. إنها سياسة كسْر المعنويات لإيصال رسالة واضحة للجميع: عليّ هو الخاسر، ومن سيبقى معه سيخسر معه!

وبدأت موجة الغارات!

يحدثنا اليعقوبي عن النعمان بن بشير[1] وكيف كان جزءاً من ماكينة معاوية الدموية:

ووجّه معاوية النعمانَ بن بشير، فأغار على مالك بن كعب الأرحبي، وكان عاملَ عليّ على مسلحة عين التمر[2]، فأرسل عليّ في أثره عدي بن حاتم الطائي على شاطئ الفرات.

وأضاف أن الضحاك بن قيس أغار على القطقطانة[3] وقتل ابن عميس، فشنّ عليه حجر بن عدي غارة معاكسة حتى تدمر.

وأن سفيان بن عوف الغامدي أغار على الأنبار وقتل أشرس بن حسان البكري، فأتبعه عليّ بسعيد بن قيس إلى عانات، فانصرف سفيان مولياً ولم يلحقه.

وأضاف اليعقوبي أن معاوية أرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في 1700 رجل باتجاه المدينة ومكة، فبلغ الخبر علياً فوجّه إليه ابن قيافة، المسيب بن

---

(1) سبق الحديث عنه، وكيف أنه ولمرة من قبله، كان من القلة من الأنصار الذين والوا معاوية وقريشاً.
(2) تبعد مسافة 40 كم إلى الغرب من كربلاء في العراق.
(3) منطقة في غرب العراق قريبة من حدود السعودية الحالية. وقد روى الطبري مزيداً من التفاصيل عما جرى، إذ وجّه معاوية الضحاك بن قيس وأمره أن يمر بأسفل واقصة وأن يغير على كل من مر به ممن هو في طاعة عليّ من الأعراب، ووجه معه ثلاثة آلاف رجل. فسار فأخذ أموال الناس وقتل من لقي من الأعراب ومرّ بالثعلبية فأغار على مسالح عليّ وأخذ أمتعتهم ومضى حتى انتهى إلى القطقطانة.

نجبة الفزاري في ألفي رجل. وحصل القتال بينهم في تيماء وهُزم جماعة معاوية فلجأوا إلى حصن. فأحاط بهم المسيب ومن معه 3 أيام. فناشد ابن مسعدة المسيبَ ورجاه الرحمة قائلاً له: نحن قومك! فمال المسيب إلى رابطة الدم وسمح لابن مسعدة ومن معه بالمغادرة سالمين إلى الشام. فوصلت القصة إلى عليّ فعاتب المسيب على سلوكه وعاقبه بالحبس لبضعة أيام ثم عفا عنه.

ويحدثنا البلاذري عن الغارة التي شنها معاوية على منطقة الجزيرة [1] فيقول انه وجّه اليها حملة بقيادة الحارث بن نمر التنوخي وأسفرت عن القاء القبض على والي عليّ على نصيبين ومعه مجموعة من شيعة علي، ومن ثم حصلت صفقة تبادل أسرى بين الطرفين عاد بموجبها الوالي الأسير شبيب بن عامر الأزدي ومجموعته الى علي مقابل اطلاق سراح مجموعة من فرسان معاوية كانوا مأسورين لدى جيش العراق. ويضيف البلاذري ان علياً بعدها أرسل من عنده رجلاً من قبيلة خثعم الى الموصل والجزيرة لتسكين الناس وأنه دخل في صراعات أسفرت عن مقتله. وكانت النتيجة النهائية تحوّل منطقة الجزيرة الى نوع من الحياد بين طرفي الصراع علي ومعاوية.

وتزايدت وتيرة الغارات والهجمات التي يشنها معاوية على بلاد عليّ حتى وصلت به الجرأة ان سار بنفسه على رأس قواته وتوغل في العراق حتى اقترب من نهر دجلة ثم رجع [2].

وصايا معاوية لقوّاده، ووصايا عليّ

إن وصيته لسفيان بن عوف الغامدي هي نموذج مثالي على توجيهات معاوية وأهدافه:

«إني باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة. فالزم لي جانب الفرات، حتى تمرّ بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلاّ فامض حتى

---

(1) الجزيرة هي المنطقة الواقعة ما بين العراق والشام، وتشمل مدن الرقة ودير الزور والحسكة في شرق سورية الحالية وحتى الموصل في شمال العراق.
(2) تاريخ الطبري، نقلاً عن ابن سعد والواقدي.

تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامضِ حتى توغل في المدائن. ثم أقبل إليّ. واتقِ أن تقرب الكوفة. واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرتَ على الكوفة.

إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فيها هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر.

فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك.

وأخرب كل ما مررتَ به من القرى.

واحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيهٌ بالقتل، وهو أوجعُ للقلب»[1]

وفي المقابل كانت وصايا عليّ لقادته الذين يرسلهم لصدّ غارات قوات معاوية مختلفة تماماً. وهذا عهدُه لجارية بن قدامة «أوصيك يا جارية بتقوى الله فإنها جموع الخير.

وسِرْ على عون الله فالقَ عدوك الذي وجهتك إليه ولا تقاتل إلاّ من قاتلك.

ولا تجهزن على جريح.

ولا تُسخّرن دابة وإن مشيتَ ومشى أصحابك.

ولا تستأثر على أهل المياه بمياههم، ولا تشربن إلاّ فضلهم عن طيب نفوسهم.

ولا تشتمن مسلماً ولا مسلمة، فتوجب على نفسك ما لعلك تؤدب غيرك عليه.

ولا تظلمن معاهداً ولا معاهدة.

واذكر الله ولا تفتر ليلاً ولا نهاراً.

واحملوا رجالتكم وتواسوا في ذات أيديكم.

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

واجعل المسير وأجل المعذر من حيث كان، واقتله مُقبلاً وارددُه بغيظه صاغراً.

واسفك الدم في الحق، واحقنه في الحق.

ومن تاب فاقبل توبته»(1)

ابن كثير يبرر سياسة الغارات الدموية

وكعادته في الدفاع عن معاوية، لجأ العلامة ابن كثير إلى محاولة تبرير سياسة الغارات الدموية فقال في البداية والنهاية عن أحداث سنة 39 للهجرة «فيها جهز معاوية بن أبي سفيان جيوشاً كثيرة ففرقها في أطراف معاملات علي بن أبي طالب، وذلك أن معاوية رأى بعد أن ولاه عمرو بن العاص بعد اتفاقه مع أبي موسى على عزل علي، أن ولايته وقعت الموقع، فهو الذي يجب طاعته فيما يعتقده. ولأن جيوش علي من أهل العراق لا تطيعه في كثير من الأمر ولا يأتمرون بأمره، فلا يحصل بمباشرته المقصود من الإمارة والحالة هذه. فهو يزعم أنه أولى منه إذ كان الأمر كذلك»

وظاهرٌ من النص مدى الجهد الذي يبذله ابن كثير في ابتداع تأويلات لسلوك معاوية الوحشي، وهو العالم بمدى فظاعته وقسوته.

آلام عليّ

وكانت هذه الغارات التي يأمر بشنّها معاوية على نواحي متفرقة من البلاد التي هي في طاعة علي، وما كان يحصل بها من قتل للأبرياء وتنكيل بالناس وانتهاك للحرمات وسفك للدماء، تسبب ألماً عظيماً في نفس علي بن أبي طالب ممزوجاً بالحزن والغضب. وأبرز مثال على مشاعر عليٍّ وهو يسمع أخبار الغارات هي الخطبة البليغة التي ألقاها الإمام علي بعد غارة سفيان بن عوف على الأنبار:

«أما بعد، فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه.

---

(1) تاريخ اليعقوبي

وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوبَ الذلّ وشمله البلاء، ودُيّث بالصغار والقماءة، وضُرب على قلبه بالأسداد، وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد. وسيم الخسف ومُنع النصف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً!

وقلتُ لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غُزي قوم قطّ في عُقر دارهم إلاّ ذلّوا!

فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت عليكم الغارات ومُلكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامدٍ وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها. ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقُلبها وقلائدها ورعاثها، ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام! ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَلْمٌ ولا أُريق لهم دم!

فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً.

فيا عجباً! عجباً والله يميت القلبَ ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرّقكم عن حقكم!

فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم هذه حمارة القيظ، أمهلنا يُسبَّخ عنا الحرّ! وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد! كل هذا فراراً من الحرّ والقرّ. فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون، فإذا أنتم والله من السيف أفرّ!

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال.

لوددتُ أني لم أرَكم ولم أعرفكم معرفة والله جرّت ندماً، وأعقبت سدماً!

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجلٌ شجاع، ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟ لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وها أنذا قد ذرّفتُ على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع»[1]

وعندما حاول استنهاض الناس للخروج إلى مصر وإنقاذها من السقوط بأيدي معاوية، فخرج وانتظرهم ولم يأتوه فرجع. فلما كان من العشيّ بعث في أشراف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزينٌ كئيب، فقال:

الحمد لله على ما قضى من أمري وقدّر من فعلي وابتلاني بكم أيتها الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرتُ ولا يجيب إذا دعوت. لا أبا لغيركم! ما تنتظرون بصبركم والجهاد على حقكم؟ الموت والذل لكم في هذه الدنيا على غير الحق. فوالله لئن جاء الموت، وليأتين، ليفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قالٍ وبكم غير ضنين. لله أنتم! لا دين يجمعكم ولا حمية تحميكم! إذا أنتم سمعتم بعدوكم يرد بلادكم ويشنّ الغارة عليكم! أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة وطائفة منكم على العطاء فتقومون عني وتعصونني وتختلفون عليّ؟»[2]

وهذا نموذج آخر من كلام عليّ، المؤثر البليغ، قاله عندما بلغه خبر سقوط مصر فقام خطيباً وقال: «... إني والله ما ألوم نفسي على التقصير وإني لمقاساة الحرب لجدّ خبير وإني لأقدم على الأمر وأعرف وجه الحزم وأقوم فيكم بالرأي المصيب فأستصرخكم معلناً وأناديكم نداء المستغيث معرباً فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً حتى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة فأنتم القوم لا يُدركُ بكم الثأر ولا تنقض بكم الأوتار. دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع

---

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج1 ص58)

(2) تاريخ الطبري (ج4 ص61)

وخمسين ليلة تجرجرون جرجرة الجمل الأشدق وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إليّ منكم جُنيدٌ متذائبٌ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. فأُفٍّ لكم»[1]

وروى الطبري أيضاً أن علياً خطب فقال: «يا أهل الكوفة، كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم في بيته وأغلق بابه انجحار الضب في جُحره والضبع في وجارها. المغرورُ من غررتموه، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب! لا أحرار عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النجاء. إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا منيتُ به منكم! عُميٌ لا تبصرون، وبُكمٌ لا تنطقون، وصمٌّ لا تسمعون»[2]

وهذا نموذج آخر من كلام عليّ يعبّر به عن غضبه البالغ، ليس على معاوية ومَن معه فقط بل على أصحابه أيضاً، الذين اعتبرهم متقاعسين متخاذلين حتى تمنى لو أن له جنوداً مطيعين مثل معاوية، فقال:

«أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المُبتلى بهم أمراؤهم!

صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحبُ أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه!

لوددتُ والله أن معاوية صارفني بكم صرفَ الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم!

يا أهل الكوفة: مُنيتُ بكم بثلاثٍ واثنتين: صمٌّ ذوو أسماع، وبكمٌ ذوو كلام، وعميٌ ذوو أبصار. لا أحرارُ صدقٍ عند اللقاء، ولا إخوانُ ثقةٍ عند البلاء. تربت أيديكم.

يا أشباه الإبل، غاب عنها رعاتها، كلما جُمعت من جانب تفرقت من آخر»[3]

---

(1) تاريخ الطبري (ج4 ص82-83)
(2) تاريخ الطبري (ج4 ص85)
(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج1 ص188).

وفي رواية ابن قتيبة ان عليا خاطب اهل الكوفة قائلا: ايها الناس المجتمعة ابدانهم المختلفة اهواؤهم ما عزّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم كلامكم يوهي الصم وفعلكم يطمع فيكم عدوكم اذا امرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت، أعاليل بأضاليل، هيهات! لا يُدرَكُ الحق الا بالجد والصبر. أي دار بعد داركم تمنعون ومع اي امام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحتُ لا أطمع في نصرتكم ولا أصدق قولكم! فرّق الله بيني وبينكم وأعقبني بكم من هو خير لي وأعقبكم بعدي من هو شر لكم مني"[1]

استباحة المدينة المنورة[2]

وأرسل معاوية رجله المتوحش بسر بن أرطأة، وهو قرشيّ من بني عامر بن لؤي، لإرهاب وترويع كل من هو في طاعة علي في كل مكان. فكان جلاداً متجولاً يهدف إلى إخضاع الناس لسلطة معاوية عن طريق القتل والدم والقوة الغاشمة. قال ابن عساكر:

«بعث معاوية بسر بن أرطاة إلى مكة والمدينة واليمن، يستعرض الناس، فيقتل من كان في طاعة عليّ بن أبي طالب. فأقام في المدينة شهراً فما قيل له في احد ان هذا ممن اعان على عثمان إلا قتله. وقتل قوماً من بني كعب على مائهم فيما بين مكة والمدينة وألقاهم في البئر».

وواصل ابن عساكر حديثه عن فظاعات بسر بن ارطأة في المدينة المنورة التي احتلها شهراً وارتكب فيها جرائم بحق الأنصار وأبنائهم:

«.... هرب منه أبو أيوب الأنصاري صاحب النبي(ص) إلى عليّ بالكوفة. فصعد بسر منبر المدينة ولم يقاتله بها احد فجعل ينادي: يا دينار

(1) الامامة والسياسة (ج1 ص52)

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج10 ص 152)، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص191)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص300)، تاريخ الطبري (ج3 ص763)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص430)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص3-14).

يا زريق يا نجار[1] شيخ سمح عهدته ها هنا بالأمس، يعني عثمان رضي الله عنه. وجعل يقول يا أهل المدينة والله لولا ما عهد إلي أمير المؤمنين ما تركت بها محتلماً إلا قتلته! وبايع أهل المدينة لمعاوية.

وأرسل إلى بني سلمة، فقال: والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبد الله صاحب النبي.

فخرج جابر بن عبد الله حتى دخل على أم سلمة خفياً فقال لها: يا أمة إني خشيت على ديني وهذه بيعة ضلالة[2]. فقالت له: أرى أن تبايع. فقد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع.

فخرج جابر بن عبد الله فبايع بسر بن أرطأة لمعاوية.

وهدم بسر دوراً كثيرة بالمدينة........»

وكان بسر بن أرطأة لما دخل المدينة المنورة استهل خطبته للأنصار بوابل من الشتائم والتهديدات. روى اليعقوبي أنه صعد المنبر وقال:

«يا أهل المدينة: مثل السوء لكم قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ألا وإن الله قد أوقع بكم هذا المثل وجعلكم أهله! شاهت الوجوه. فما زال يشتمهم حتى نزل»

إذن ظهر في هذه الغارة إلى العلن ما يكنّه القرشيون وزعيمهم معاوية، ممثلين بشخص بسر بن أرطأة، من حقد شديد على المدينة المنورة وأهلها من الأنصار. وعلى غير عادته لم يكن معاوية هنا حليماً ولا حكيماً، بل تصرف ببساطة كسفاح مجرم! كان معاوية يعرف تماماً ماذا يفعل قائد جيشه. فلا شك أنها كانت سياسة مدروسة من القائد الأموي. وهو يتحمّل وزرها كاملاً.

---

(1) وقد وضّح ابن الأثير معنى ندائه هذا (يا دينار يا زريق يا نجار) فقال أن هذه بطون من الأنصار. أضاف ابن الأثير أن بسراً قال أيضاً شيخي شيخي عهدته هنا بالأمس فأين هو؟ يعني عثمان.

(2) وقد روى الإمام البخاري في التاريخ الصغير موقف جابر هذا وقول أم سلمة له: أنا أعلم أنها بيعة ضلالة. وأيضاً رواه ابن حبان في كتاب الثقات.

ولا يمكن تبرير تلك الجرائم بضرورات السياسة[1]، فهي أقرب إلى منهج الانتقام من الرسول(ص) والصالحين.[2]

وأسفرت جهود عليّ المركّزة عن نجاحه في إرسال جيش من الكوفة، انطلق لمطاردة بسر بن أرطأة في أنحاء الحجاز واليمن، ويتبع أثره. ولكنّ بسراً، الذي حقق هدفه المحدد له من قبل معاوية، فرّ من وجهه وتفاداه وعاد سالماً إلى الشام.

وقد روى ابن أبي الحديد بالتفصيل الفظائع التي ارتكبها بسر في المدينة نقلاً عن كتاب «الغارات» لإبراهيم بن هلال الثقفي، وأضاف أنه بعدها توجه إلى مكة فهرب منها عامل عليّ، قثم بن العباس، وقام بسر بتولية شيبة بن عثمان عليها بعد أن أخذ بيعة أهلها لمعاوية. ومن ثم توجه إلى الطائف، فتلقاه هناك المغيرة بن شعبة بالقول الحسن. وذكر أيضاً أنه مر بنجران وقام بشتم أهلها - الذين وصفهم بالنصارى وإخوة القرود - وتهديدهم.

هل استخلف بسرٌ بن أرطأة أبا هريرة على المدينة[3]؟

قال ابن الأثير إنه بعد أن انتهى بسر بن أرطأة من جرائمه، وأجبر كل من بقي في المدينة على البيعة لمعاوية، ودّع أهلها بخطبة أخرى، عيّن فيها والياً جديداً لمعاوية:

«يا أهل المدينة: إني قد صفحتُ عنكم، وما أنتم لذلك بأهل، لأنه ما من قوم قتل إمامهم بين أظهرهم ولم يدفعوا عنه، بأهل أن يُعفى عنهم. وإن

---

(1) الروايات تقول أن الأمر وصل إلى حد هدم بيوت كثيرة في المدينة وحرقها!

(2) وسوف يكرر يزيد بن معاوية بعد هذه الحادثة بعشرين عاماً، ارتكاب نفس الجرائم بحق مدينة رسول الله(ص) وأنصاره، وعلى نحو أشد فظاعة في واقعة الحرة، ليثبت أن الحقد الأموي توارثه الأجيال.

(3) مصادر هذا البحث: كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي (ج4 ص232)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص325)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص11)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص212)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج49 ص169 وص443)، صحيح البخاري باب ما ذكر النبي(ص) وحض على اتفاق أهل العلم (ج9 ص128) وباب علامات النبوة (ج4 ص241 وص243).

تلك الحكم العقوبة في الدنيا، فإني أرجو أن لا تنالكم رحمة الله عز وجل في الآخرة.

ألا وإني استخلفت عليكم أبا هريرة فاسمعوا له وأطيعوا، وإياكم والخلاف، فوالله لئن فعلتم لمعصية لأوردن عليكم بالهلاك وقطع النسل»[1]

وقال البلاذري انه بعد أن فرّ عامل عليّ على المدينة، أبو أيوب الأنصاري، أمر بسر أبا هريرة أن يصلي بالناس»

وفي البداية والنهاية لم يذكر ابن كثير صراحة تعيين أبي هريرة من قبل بسر، ولكنه روى ما يؤكد ذلك. فقد ذكر ان جارية بن قدامة الذي ارسله عليّ لمواجهة هجوم بسر «سار حتى أتى المدينة، وأبو هريرة يصلي بهم، فهرب منه. فقال جارية: والله لو أخذت أبا سنور لضربت عنقه»

هذه الروايات التي تخبرنا ان أبا هريرة تم تعيينه من قبل رجل معاوية كوالٍ على المدينة، رغم الطابع المؤقت والمرحلي للتعيين، يمكن قبولها. فهي مدعومة بما استفاض من أخبار عن الفترة اللاحقة من حياة أبي هريرة – أيام خلافة معاوية. ويمكن القول ان أبا هريرة لعب دوراً إيجابياً لصالح معاوية ومشروعه. ففي الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب في أمس الحاجة إلى دعم كل المسلمين له في صراعه ضد تحالف طلقاء قريش، جاء أبو هريرة بروايات وأحاديث لتثبيط عزم الناس عن نصرة الجانب الذي على الحق، وهو عليٌ كما لا يخفى. فقد صوّر أبو هريرة للناس أن الجهتين متساويان في سعيهما للحق وأن اقتتالهما قدرٌ إلهيّ. روى البخاري في صحيحه:

عن أبي هريرة قال رسول الله (ص): «ستكون فتنٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ومن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به»

وأيضاً عن أبي هريرة «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان، فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة.....»

(1) ويروى مثل ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة.

ورغم أن أبا هريرة لم يشارك مباشرة في القتال إلى جانب معاوية، إلاّ أنه مارس دورَ المحدِّث الرسمي لدولة معاوية، وساهمَ بقدر طاقته في إضفاء الشرعية على فلسفة معاوية وسياسته. فكان أبو هريرة على انسجام تام مع معاوية في حملته الدعائية الهائلة. ومن ذلك ما رواه في رفع ذكر عثمان ومحاولة الحط من قدر علي:

قال أبو هريرة: «كنا معاشر أصحاب رسول الله(ص)، ونحن متوافرون نقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم نسكت»[1]

وعن أبي هريرة أن رسول الله(ص) قال: «لكل نبي رفيقٌ في الجنة، ورفيقي فيها عثمان بن عفان»[2]

وقد جنى أبو هريرة ثمار مواقفه تلك عندما انفرد معاوية بالحكم. فلم يكتفِ معاوية بتعيينه محدثاً رسمياً للدولة، واعتماده مفتياً، وجمع الناس عليه بعد رفع ذكره الذي كان خاملاً، بل أدخله في السلطة التنفيذية عن طريق تعيينه والياً على المدينة المنورة[3]

ولا عجب بعد هذا التحالف المبني على المصلحة والمنفعة بين معاوية وأبي هريرة، أن تنهال العطايا والنعم من الحاكم على الراوية:

فقد جاء في صحيح البخاري بشأن أبي هريرة «كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان ممشقان من كتان، فتمخَّط، فقال: بخ بخ! أبو هريرة يتمخَّط في الكتان»!

المزيد من الضربات لعلي[4]

نصّبَ معاوية نفسه علَماً مرفوعاً وعنواناً معروفاً لكل إنسان لديه مشكلة

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر
(2) تاريخ دمشق لابن عساكر
(3) وهناك المزيد من التفاصيل حول العلاقة التي ربطت أبا هريرة بالأمويين، وقد أسهب في ذكرها واستعراضها الشيخ المصري أبو رية في كتابه «أضواء على السنة المحمدية».
(4) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص144 وص146) تاريخ اليعقوبي (ج2 ص201)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج1 ص219)، كتاب «الثقات» لابن حبان (ج2 ص299-301)، تاريخ خليفة بن خياط (ص190)، نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج3 ص324).

مع شخص عليّ أو سياسة عليّ أو حكم عليّ! بل واتبع معاوية سياسة موجهة إلى عمّال عليّ في كل مكان محاولاً استمالتهم إلى جانبه عن طريق بذل الوعود لهم بالمال الوفير والمناصب العالية لديه! ولم يكن معاوية لينسى أن يُذكّر هؤلاء الولاة وزعماء القبائل بأنهم لن يتمكنوا من جني الفوائد وكنز الغنائم في ظل عليّ الذي لن يسمح لهم بذلك ويحاسبهم بكل شدّة على أي تجاوزٍ على الرعية أو انحراف في الحكم.

فانهمك معاوية في حملة مراسلات مع القيادات المنضوية تحت حكم عليّ، وكان عليّ يعلم بذلك عن طريق بعض ولاته المخلصين الذين كانوا يطلعونه على ما يكتبه لهم معاوية.

ونجح معاوية في إغراء بعض القيادات القبلية والإدارية التي كانت فاسدة أصلاً أو ارتكبت تجاوزات وأعمال نهب وخشيت من ردّة فعل عليّ.

فمثلاً، كان مصقلة بن هبيرة الشيباني عاملاً لعليّ على أردشير خرة في ايران. وقد اتفق مع معقل بن قيس على أن يشتري منه السبي الذي معه من الموصل والنصارى وبني ناجية، وهم خمسمائة، بعد أن انتصر على الخريت وتمرّده. وقام مصقلة بدفع جزء من الثمن المتفق عليه لبيت المال، على أن يستكمل دفع الباقي فيما بعد. وأبلغ معقل أمير المؤمنين عليّ بذلك.

ورغم انهماكه الشديد في حرب معاوية والخوارج، إلاّ أن علياً لم ينس مصقلة وأمواله المستحقة لبيت المال. فلما لاحظ تأخر مصقلة بالسداد كتب له:

«أما بعد: فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف، فابعث بها إليّ ساعة يأتيك رسولي وإلاّ فأقبل حين تنظر في كتابي. فإني قد تقدمت إلى رسولي إليك لا يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلاّ أن تبعث بالمال. والسلام عليك»

وأمام طلب الخليفة القاطع، لم يجد مصقلة بداً من الترحّم على أيام عثمان بن عفان الذي لو كان حياً لما طالبه بدفع ما يستحق عليه لبيت المال! فقال لمندوب عليّ:

«أما والله لو أن ابن هند هو طالبني بها أو ابن عفان لتركها لي! ألم تر إلى ابن عفان حين أطعم الأشعث من خراج أذربيجان مائة ألف في كل سنة!»

وكانت النتيجة أن هرب مصقلة إلى عدو عليّ في الشام: معاوية، ولم يكتف بذلك بل أخذ يكتب لأخيه الرسائل يدعوه فيها إلى ترك عليّ والانضمام إلى معاوية الذي أجزل لهما الوعود!

وكان رد فعل عليّ:

«ما له ترّحه الله! فعل فعل السيد وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر!! أما والله لو أنه أقام فعجز ما زدنا على حبسه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نقدر على مال تركناه»[1]

وبلغ علياً أن واليه على البحرين، النعمان بن العجلان، قد اغتصب من أموال الخراج، فكتب إليه يحذره من الخيانة، فما كان من الوالي إلا أن حمل الأموال ولحق بمعاوية![2]

وتعرّض عليّ إلى خيانة أخرى من واليه على الري، يزيد بن حجية، الذي نهب بيت المال وفر إلى معاوية![3]

رد فعل عليّ

ورغم أن علياً كان يعرف أن معاوية منهمكٌ في محاولاته لرشوة ولاة عليّ وقادة جيوشه وزعماء القبائل ووجهاء الأمصار واستقطابهم لصفّه، إلا أنه لم يغيّر سياسته ورفض أن يسلك نفس المنهج تجاه قيادات معاوية ورجاله. ولقد كان عليّ أيضاً يراسل رجال معاوية، ولكن ليس ليرشيهم أو يطمعهم ويغريهم، بل ليكشف لهم حقيقتهم أمام ضمائرهم وأمام الناس! فليس لدى عليّ ما يطمع به هؤلاء. فمثلاً هو كتب إلى عمرو بن العاص: «فإنك جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئٍ ظاهر غيّه مهتوكٍ ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفّه

(1) خبر مصقلة وكلام عليّ من تاريخ الطبري
(2) تاريخ اليعقوبي
(3) الري هي منطقة طهران الحالية في إيران، وهذا الخبر من أنساب الأشراف للبلاذري.

الحليم بخلقه، فاتبعت أثره وطلبت فضله، اتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته، فأذهبت دنياك وآخرتك، ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت. فإن يمكّني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتما، وإن تعجزا وتبقيا، فما أمامكما شر لكما»[1]

ولم يغير عليٌ سياسته تجاه عماله بعد انسلاخ، رغم حاجته الموضوعية إلى استرضائهم لضمان استمرار ولائهم. كان عليٌ شديد المراقبة للولاة، يشدد عليهم في الحساب، وفي استيفاء ما عليهم من حقوق الناس، ويشدد عليهم في سيرتهم العامة والخاصة فيعطي كل واحد منهم عهداً يقرؤه على الناس حين يتولى أمرهم ليكون عقداً بين الناس وبين حاكمهم لا يجوز لهم ولا له أن ينحرفوا عنه وإلاّ وجبت عليهم العقوبة وأنفذ الحاكم في المخالفين عقد العقوبة. وإذا انحرف الحاكم وجبت عليه العقوبة وأنفذها فيه الإمام نفسه.

ثم كان عليٌ يرسل الأرصاد والرقباء ليطلعوه على سيرة العمال. وكان كل رجل من أهل الأقاليم رصداً ورقيباً على حاكمه، يستطيع أن يشكوه إلى الإمام كلما انحرف عن العهد الذي أخذ عليه.

وكذلك كانت سيرة عليٍّ في عماله سيرة حزم وعدل. يشجع المحسن منهم ويشتد على المسيء، لا يحابي في شيء من ذلك، ولا يعرف مداورة ولا مجاراة وإنما هو النصح للمسلمين والعدل في الرعية وإقامة الحق في أولئك وهؤلاء.

وطبعاً كانت هذه السيرة المثالية فرصة سانحة استغلها معاوية إلى أقصى حد في استقطاب كل من لا تطيب نفسه بها من الولاة والرؤساء.

*****

وأخيراً قرر معاوية أن يعلن تحديه لآخر رمز لشرعية عليّ كخليفة للمسلمين، وهو إقامة شعائر الحج للناس[2] ففي أواخر عام 39 للهجرة،

(1) نهج البلاغة
(2) وهذا الخبر عن ابن شبرمة من أنساب الأشراف للبلاذري، وأيضاً من كتاب الثقات لابن حبان ولكن رواية ابن حبان تذكر أن الذي كان على الحج من طرف علي هو عبد الله بن العباس وليس قثم وهذا خطأ. وقد ذكر خليفة بن خياط في تاريخه خبره مختصراً وضمن أحداث سنة 39.

أرسل معاوية متحدياً له يدعى يزيد بن شجرة الرهاوي، على رأس قوة عسكرية، إلى المدينة ومكة، وأمره بتحدي والي عليّ في مكة ومندوبه على الحج، قثم بن العباس.

وفعلاً وصل ابن شجرة وقواته إلى الأماكن المقدسة في موسم الحج، معلناً أنه جاء لإقامة الصلاة بالناس كمندوب عن معاوية. وبعد أخذٍ وردٍ ووساطات من قِبَل الكثير من المسلمين الذين كرهوا حصول قتالٍ وسفك دماء في بيت الله ومسجد رسوله، انتهت الأمور إلى حلٍّ وسطٍ وهو قيام طرفٍ ثالثٍ بمهمة الصلاة بالناس! وفعلاً تولى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة تلك المسؤولية بعد أن تراضى الناس عليه، نظراً لأن عائلته عبد الدار، هي التي تملك مفاتيح الكعبة منذ زمن الجاهلية، وأقرهم الرسول(ص) على ذلك.

وأن هذا الترتيب لم يرضِ علياً على الإطلاق، فأرسل جيشاً من 1900 رجل بقيادة معقل بن قيس الذي وصل متأخراً فلم يستطع اللحاق سوى ببعضٍ قليل ممن تخلف من قوات ابن شجرة، الذي تابع سيره حتى وصل إلى معاوية في الشام وبشره بنجاحه في تحدي سلطان عليٍّ في أهم رمزٍ لوحدة أمة الإسلام: الحج.

عرضُ معاوية الجديد

وبعد تلك السلسلة من الغارات الوحشية التي شنّها معاوية، وبعد أن بدأ يزاحم علياً في شعائر الحج في الحجاز، قرر معاوية أن يحاول جني الثمار، سياسياً، من ذلك كله، فكتب إلى عليّ عام 40 للهجرة:

«أما إذا شئتَ، فلكَ العراق وليّ الشام.

وتكفّ السيف عن هذه الأمة، ولا تهريق دماء المسلمين»[1]

---

(1) تاريخ الطبري (ج4 ص107). والطبري يكمل هذه الرواية ويقول فيها أن علياً وافق على عرض معاوية فتراضيا على ذلك. ولكن من المؤكد أن هذا الجزء من الرواية غير صحيح، لأن علياً استمر حتى آخر يوم في حياته وهو يعدّ لغزو الشام ولم يوافق أبداً على تكريس التقاسم.

وهكذا فإن معاوية يهدف إلى رفع سقف مطالباته، فهو الآن يرى نفسه أصبح في وضع يتيح له أن يساوي علياً، شكل علني، ليغيّر وضعه من مجرد «والي متمرد» ضد «خليفة المسلمين»، ويصبح هو وعليّ على قدم المساواة في تأهلهما للخلافة.

وكان معاوية جشِعاً في عرضه. ولو أبدى عليّ قبولاً لكان يمكن لمعاوية أن يلتزم تماماً باتفاق لتقاسم العالم الإسلامي، بحيث تكون من نصيبه الشام ومصر، على الأقل.

وكان جواب علي: **الرفض المطلق**

« فأما طلبك إليّ الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس. وأما قولك إن الحرب قد أكلت العرب إلاّ حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة ومن أكله الباطل فإلى النار. وأما استواؤنا في الحرب والرجال فلست بأمضى على الشك مني على اليقين...»[1]

رغم كل الأهوال: عزمُ عليّ لا يلين

قال طه حسين:

«وقد انتهت كل هذه الأمور بعليّ إلى عزيمة أتمها الله له، فيها كثير من اليأس وفيها كثير من المخاطرة. ولكنها كادت أن تبلغه مأربه لولا أن الناس يدبرون وأمر الله غالب، والكلمة الأخيرة للقضاء المحتوم لا لما يدبرون.

فقد خطب عليّ أصحابه داعياً لهم أن يتجهزوا لقتال أهل الشام محرضاً لهم على ذلك أشد التحريض، كما تعود أن يفعل. فسمعوا منه وانصرفوا عنه ولم يصنعوا شيئاً، كما تعودوا أن يفعلوا.

فلما استيأس منهم دعا إليه رؤساءهم وقادتهم وأولي الرأي فيهم. وتحدث إليهم حديثاً صريحاً لا لبس فيه. وجعل نياتهم أمامهم يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم، إن أمكن أن ترى النيات بالعيون وتلمس

---

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده

بالأيدي. بيّن لهم أنهم أرادوه على الخلافة دون أن يطلبها إليهم، وعرضوا عليه بيعتهم دون أن يعرض عليهم نفسه، ثم هم الآن يظهرون طاعة ويضمرون نكثاً. ولقد طاولهم حتى سئم المطاولة، وانتظر نشاطهم لما يدعوهم إليه حتى ملّ الانتظار، ووعظهم في غير طائل، وحرّضهم في غير غناء، وقد أزمع أن يمضي لحرب خصمه في الشام مع من تبعه من أهله ومن قومه، فإن لم يتبعه منهم أحد مضى وحيداً فقاتل حتى يُقتل في سبيل الله ويلقى الموت في ذات الحق.

ولست أرى بدّاً من أن أثبت هنا نص حديثه إليهم كما رواه البلاذري، ففيه الحجة البالغة على هؤلاء الذين أفسدوا عليه رأيه بالعصيان حتى ظنت قريش به الظنون، وقالت فيه الأقاويل، وحتى عُصي الله وهم ينظرون لا يغضبون لحق ولا دين. قال:

(أما بعد: أيها الناس، فإنكم دعوتموني إلى هذه البيعة فلم أردكم عنها. ثم بايعتموني على الإمارة ولم أسألكم إياها. فتوثّبَ عليّ متوثبون كفى الله مؤونتهم وصرّعهم لخدودهم وأتعس جدودهم وجعل دائرة السوء عليهم. وبقيت طائفة تحدث في الإسلام أحداثاً. تعمل بالهوى وتحكم بغير الحق، ليست بأهل لما ادّعت. وهم إذا قيل لهم تقدّموا قُدماً تقدموا. وإذا أقبلوا لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل، ولا يبطلون الباطل كإبطالهم الحق. أما إني قد سئمتُ من عتابكم وخطابكم فبيّنوا لي ما أنتم فاعلون. فإن كنتم شاخصين معي إلى عدوي فهو ما أطلب وما أحب، وإن كنتم غير فاعلين فاكشفوا لي عن أمركم أرَ رأيي. فوالله لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين، لأدعونّ الله عليكم ثم لأسيرنّ إلى عدوكم ولو لم يكن معي إلاّ عشرة. أأجلافُ أهل الشام وأعرابها أصبرُ على نصرة الضلال وأشدّ اجتماعاً على الباطل منكم على هداكم وحقكم؟ ما بالكم وما دواؤكم؟ إن القوم أمثالكم لا يُنشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة)

وكان الرؤساء والقادة قد استحيوا من عليّ، واستخزوا في أنفسهم وأشفقوا أن ينفذ ما صمم عليه فيمضي وحده أو في قلة من الناس لقتال أهل

الشام فيلقاهم بذلك حاز أيّ حاز، وتصيبهم المحنة في دينهم وفي نفوسهم وفي أمورهم كلها. فقام خطباؤهم إلى عليّ فأحسنوا إليه القول وأعطوه له النصح، ثم تفرقوا عنه ثلاثاً وسراعاً، ومضوا لإنجاز ما وعدوا به علياً.

فجمع كل رئيس قومه فوعظهم وحرّضهم، حتى اجتمع لعليّ جيشٌ صالحٌ قد تعاقد الجند فيه على الموت. ثم أرسل عليّ معقل بن قيس يعبّئ له أهل السواد ليضمهم إلى من اجتمع له في الكوفة. وأخذ يرسل إلى عماله فيما وراء العراق من شرق الدولة يدعوهم إلى النهوض إليه ليكونوا معه في حربه. وأرسل زياد بن خصفة في جماعة من أصحابه طليعة بين يديه، وأمره أن يُغيرَ على أطراف الشام ليروّع أهلها.

وإن علياً لفي هذا الاستعداد وقد تراءت له غايته، إذا القضاءُ يقول كلمته فينقضّ عليه وعلى أهل العراق كل تدبير[1]»

وبالفعل فإن عليًا تمكّن في الفترة الأخيرة التي سبقت مقتله من حشد جيش لا يستهان به من أهل العراق يتراوح ما بين 40 إلى 50 ألف مقاتل عربيّ[2]، ويتبعهم ربما 10 أو 15 ألفاً آخرين من مواليهم، وبدأ الاستعداد الجدي لغزو الشام من جديد. كان ذلك نوعا من التعبئة العامة أطلقها عليّ في صفوف أهل العراق الذين ربما بدأوا يشعرون بضرورة الاستجابة لعليّ من أجل وقف تهديد معاوية لهم في معاقلهم ومدنهم، خصوصاً بعدما ظهر منه ومن قواته من بطش وقسوة تجاههم.

وجديرٌ بالذكر أن علياً، بجمهوره الجبار واعتماداً على شخصيته الفذة، نجح في تكوين جيلٍ جديد من القادة من خيرة أهل العراق، ليحلّ مكان الجيل الأول الذي مضى، جيل الأشتر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر وعثمان بن حنيف، ومكان أقرباء عليّ من بني العباس. ونلاحظ في المصادر نشاطاً كبيراً لقادة عسكريين كفوئين وشبان بدأوا في البروز وتولي القيادة العسكرية

---

(1) الفتنة الكبرى - علي وبنوه (ص162-163). والنص الذي أورده طه حسين موجود في أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص216-226).
(2) يقول ابن كثير (البداية والنهاية ج8 ص14) إنه قبيل اغتيال عليّ كان تحت إمرة قيس بن سعد 40 ألف مقاتل بايعوا عليًا على الموت.

والادارية في معسكر علي. ومن أهم هؤلاء كان جارية بن قدامة السعدي (من قبيلة تميم)، ومعقل بن قيس الرياحي (من تميم ايضاً)، وسعيد بن قيس (من قبيلة همدان)، والمسيب بن نجبة (من فزارة)، ومالك بن كعب (من همدان)، وحجر بن عدي (من كندة)، بالاضافة الى قيس بن سعد الانصاري وسعد بن مسعود (الثقفي)، وعمهم زياد بن ابيه في البصرة وفارس.

وهؤلاء بدأوا باظهار كفاءتهم وقدراتهم الحربية، وخصوصاً في التصدي لغارات معاوية ومطاردة قواته واستعادة السيطرة على المناطق التي تعرضت للهجوم. وتميز هذا الجيل الجديد من القادة بالولاء الشديد لعلي، ونجح في ازاحة ظل الاشراف القبليين التقليديين جانباً (وخصوصاً الأشعث بن قيس)، وكانوا جديين تماماً في مشروع اعادة غزو الشام، لولا ان الوقت لم يسعفهم،

الجزء الرابع:

معاوية خليفة

الفصل الأول: مقتلُ عليّ

الخلفيات: عقيدة الخوارج[1]

سبق وتحدثنا عن ظروف نشأة الخوارج كفرقة سياسية مسلحة في أثناء معركة صفين وما بعدها. وقد تطورت معتقدات الخوارج بالتدريج، ومع تطوّر الظروف السياسية في العراق. فشعارهم الأول « لا حكم إلاّ لله » أصبح يعني بالفعل رفضاً لشرعية خلافة علي بن أبي طالب، الذي قبِلَ وكفرَ بنظرهم حين قبِلَ التحكيم. ومع مرور الزمن أصبح للخوارج نظريتهم الخاصة حول نظام الحكم الإسلامي. فخلافاً للفكر الشيعي الذي يحصر حق الخلافة في آل بيت النبي(ص)، وخلافاً للفكر السني الرسمي، التي روّجت له الدولة الأموية، الذي يحصر الخلافة في « قريش »، تبنّى الخوارج النظرية القائلة بأن الخلافة في دولة الإسلام تجوز لكل المسلمين، الذين هم سواسية كأسنان المشط. وكانت بداية تعبير الخوارج الأولين عن هذه الأفكار باختيارهم رجلاً غير قرشي، وهو عبد الله بن وهب الراسبي، « أميراً » وقيامهم بمبايعته.

إذن فرَضَ الخوارج رفض « الهيمنة » القرشية على الخلافة. وهم بذلك يرفضون الفكرة القائلة إن قبيلة الرسول(ص) يمكن أن يكون لها أي فضل لمجرّد كونه منها. فالمؤمنون أخوة، ولا فرق بين عربي ولا أعجمي إلاّ بالتقوى. وإذا أراد القرشيون التميّز، فالإيمان هو المعيار، لا النسب.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص55 وص62)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص141 وص146)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص446)

اعترف الخوارج بصحة خلافة أبي بكر وعمر واعتبروا سيرتهما صالحة لأنهما كانا قد احترما كتاب الله. وقد روى ابن قتيبة حواراً بين علي بن أبي طالب ورجل ممن أصبحوا خوارج، أصرّ فيه الرجل على إدخال « سنة أبي بكر وعمر » كشرط للبيعة:

فقال له الإمام علي: تبايع على كتاب الله وسنة نبيه؟

قال: لا ! ولكن أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسنة أبي بكر وعمر.

فقال علي: وما يدخل سنة أبي بكر وعمر مع كتاب الله وسنة نبيه؟! إنما كانا عاملين بالحق حيث عملا.

فأبى الخثعمي إلاّ سنة أبي بكر وعمر، وأبى علي أن يبايعه إلاّ على كتاب الله وسنة نبيه(ص)»

وروى الطبري أن قيس بن سعد بن عبادة حين كان يدعو نواة الخوارج الأولين إلى طاعة عليّ والخروج معه لحرب أهل الشام واجهه رجلٌ منهم بطلبٍ غريب: إمامٌ كعمر بن الخطاب !

فقال عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قد أضاء لنا فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر!

فقال: ما نعلمه فينا غير صاحبنا! فهل تعلمونه فيكم؟....»

وهناك رواياتٌ تفيد بأنهم اعترفوا بصحة خلافة عثمان خلال السنوات الست الأولى من حكمه، أما بعد ذلك فلم يعترفوا بإمامته، وأنكروا أعماله باعتباره انتهك الكتاب.

واعترفوا بخلافة علي حتى التحكيم[1]، ثم تبرّأوا منه بعد ذلك، ورموه بالكفر وطالبوه بالتوبة، ولم يعترفوا بأحقيته بالخلافة اعتماداً على قرابته للنبي(ص).

---

(1) في رواية ابن الأثير في الكامل أن الخوارج كانوا « يمتحنون » ضحاياهم من عامة المسلمين بأسئلة من قبيل: « ما تقول في عثمان في أول خلافته ؟ ما تقول في علي قبل التحكيم؟ ».

واعتقد الخوارج أنهم أهل الحق والعدل وأن غيرهم أهل الباطل والظلم، وأنهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر. ولذلك مقتوا الدنيا ورفضوها وأنكروا البدع. ومن هذا المنطلق ظهرت بينهم فكرة الخروج من القرية الظالم أهلها لإحقاق الحق ونشر العدل. ولعلّهم أرادوا دارًا للهجرة - حسب المفهوم الإسلامي الأول - متشبّهين بهجرة النبي(ص) من مكة للمدينة. ويبدو أن الخوارج فكروا منذ البداية باتخاذ عاصمة بهم: قال عبد الله بن وهب الراسبي، أول زعيم للخوارج لأتباعه «... فاخرجوا بنا، إخواننا، من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة... اخرجوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله، فإنكم أهل الحق...»(1)

وأجاز الخوارج قتل كلّ مسلم لا يرى رأيهم، وقتلوا بالفعل عدداً من المسلمين بحجة مخالفة آرائهم، بينما عفوا عن أهل الذمة حفظاً لذمة رسول الله(ص)!

قال هشام جعيط إن «رفضهم للتحكيم قد صار بنظرهم بمثابة عملية تفصل «المؤمنين الحقيقيين» عن كل المسلمين الآخرين، المطروحين الآن بوصفهم كفّارًا مارقين. إن مصير الأمة يجب أن يكون بين يدي الله وحده، أي النص (القرآن)، ولكنه نصّ قد انتحلوا لأنفسهم الحق بأن يكونوا مفسّريه الوحيدين.

كانت الحركة(الخوارج) ترغب في مصادرة كل معنى الإسلام لصالحها، وفي أن تجعل من نفسها مفسّرته، وأن تفرض ديكتاتورية تفسيرها على الجميع، ديكتاتورية أخلاقية متطرّفة بحقّها وحقيقتها.

وكانوا يعتبرون كل أولئك الذين لا يشاطرونهم الرأي كفّارًا، وبالتالي يعتبرون أن دمهم حلال: عليّ، مواطنوهم في الكوفة والبصرة وكل المسلمين الآخرين. لاحقًا، سيسمّون أنفسهم ب «المسلمين»، أي أنهم وحدهم المسلمون. وكانوا يتميزون منذ تلك المرحلة الأولى، بأسلوب في العمل

---

(1) تاريخ الطبري. وأيضاً الإمامة والسياسة لابن قتيبة

والاعتقاد الآثم على التوبة، والتكفير (إذ كانوا يكفّرون كل شخص سواهم)، والسعي وراء الشهادة ووجوب إراقة دم الآخرين، سواء في المعركة، أم بالاغتيال الفردي - الاستعراضي»[1].

وكانت أفكار الخوارج تعبر غلوًا وشططًا في الدين. وكانت أيضا تفسيراً سطحياً، أو تحريفاً لنصوص القرآن. وقد كان عليّ بن أبي طالب يميز بين أعدائه الجدد من الخوارج، وأعدائه القدامى من جماعة معاوية. فقد قال بلاغته الفريدة: «ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه».

كانت مشاعر الثأر والانتقام للقتلى، أو للشهداء كما اعتبروهم تحرّك الكثيرين وتدفعهم للحاق بركب الخوارج. وهذه مشاعر ضاربة الجذور في أعماق الشخصية العربية. فكان لكل قتيل من الخوارج من يرثيه ويرتقب بالأعداء بطره من قتله. وبنظرهم كان المسؤول الأول من كل تلاحم هو عليّ.

لقد قدّر لعليّ بن أبي طالب أن يواجه حقداً قرشياً لا يزول، ولا تمحوه الأيام، لأنه بنظر قريش «القاتل السفّاك» الذي وَتَرها وأباد شيوخها. ولم يستطع رسول الله (ص)، برغم سياسته المتسامحة تجاه القرشيين يوم الفتح وبرغم عفوه عن صناديد الكفر الذين كانوا يؤذونه، وبرغم سياسة المؤلفة قلوبهم التي انتهجها أن يمحو ذلك الحقد القرشي الأسود تمحوه، والذي أخذ ترجمته العملية في معاداة علي بن أبي طالب.

وها هو علي بن أبي طالب يجد نفسه، في العراق هذه المرة، يواجه هذا المثل الحقد والكره في نفوس أبنائها لجماعة ترك أيضا القاتل السفّاك الذي أباد الآلاف منهم بلا رحمة! وبالتالي قدّر على عليّ أن يواجه جيشاً آخر من الموتورين المستعدّين للسير في طريق العداء إلى نهايته.

سيناريوهات عملية الاغتيال

وردت عدة روايات فيها الكثير من الخيال حول تفاصيل حادث اغتيال الإمام علي.

(1) من الفتنة لهشام جعيط (ص 226-227).

رواية تقول إن الخوارج نسجوا خيوط مؤامرة ثلاثية محكمة، عندما اجتمعوا في مكة أثناء الحج عام 39. وتمضي الرواية فتقول إن الخوارج تدارسوا أوضاع الأمة وعابوا كلاً من عليّ ومعاوية «اللذين أفسدا في الأرض، واستحلا حرمة هذا البيت»، وذكروا إخوانهم الذين قتلوا في النهروان وترحموا عليهم، وفي النهاية قرروا التخلّص من كل المسؤولين، فاتفقوا على مؤامرة ثلاثية الأبعاد. بحيث يقوم أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي، بقتل عليّ في الكوفة، ويقوم ثانٍ، وهو البرك بن عبد الله الصريمي، بقتل معاوية في الشام، ويقوم الثالث، وهو عمرو بن بكر التميمي[1]، بقتل عمرو بن العاص في مصر. واتفقوا على أن ينفذوا عمليتهم في نفس اليوم وهو 17 رمضان عام 40.

وحسب هذه الرواية فإن ابن ملجم نجح في مهمته، بينما فشل زميلاه الآخران. فالثاني طعن معاوية ولكن الطعنة أتت في إليته[2]، بسبب الحراس الذين تدخلوا. وأما الثالث ففشل أيضاً لأن عمرو بن العاص كان معتلاً ذلك اليوم ولم يذهب للصلاة فقام الخارجيّ بقتل المندوب الذي بعثه ابن العاص ليؤمّ الناس نيابة عنه[3]، عن طريق الخطأ!

وهناك رواية أخرى تتحدث عن حبكة يدخل فيها الثأر والحقد والعشق لتشكّل عناصر الاغتيال! وتتلخّص هذه الرواية في أن عبد الرحمن بن ملجم، حين قدم الكوفة تمهيداً لاغتيال عليّ، تعرّفَ على امرأة فائقة الجمال، تدعى قطام بنت علقمة، كان أبوها وأخوها قد قتلا في النهروان مع الخوارج، فأحبها

---

(1) وتفرد أبو حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال من بقية المصادر بذكر اسمين مختلفين من بين هؤلاء الثلاثة: فعدا عن ابن ملجم قال عن المتآمرين الآخرين هما: النزال بن عامر وعبد الله بن مالك الصيداوي.

(2) ومن طرائف الروايات أن بعضها يربط بين قلة أبناء معاوية وانقطاع نسله وبين الضربة هذه التي تلقاها على إليته! قال ابن الأثير في الكامل إن الطبيب عندما أتى معاوية قال له «اختر إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فإن ضربتك مسمومة. فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد ففي يزيد وعبد الله ما تقر به عيني. فسقاه شربة فبرأ ولم يولد له بعدها».

(3) ومن طرائف الروايات أيضا ما ذكره الطبري والبلاذري أن الشخص الذي أنابه عمرو بن العاص للصلاة بدلا عنه كان صاحب شرطته واسمه خارجة بن حذافة، وأن القاتل حين أحضر إلى عمرو بن العاص بعد تنفيذ جريمته قال له عمرو «أردتَ عمراً وأراد الله خارجة» فذهبت مثلا!

وطلب منها الزواج. ولكنها دون أن تعرف شيئاً عن نوايا ابن ملجم، طلبت منه مهراً غالياً: رأس عليّ! وعند ذلك صارحها ابن ملجم أنه قدم الكوفة لأجل ذلك الهدف بالتحديد. وكمثال عليها نورد ما ذكره ابن حبان في كتاب الثقات عن مقتل علي: «... وكان السبب في قتله أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي أبصر امرأة من بني تيم الرباب يقال لها قطام وكانت من أجمل أهل زمانها وكانت ترى رأي الخوارج، فولع بها. فقالت: لا أتزوج بك إلاّ على ثلاثة آلاف وقتل علي بن أبي طالب، فقال لها: لك ذلك. فتزوجها وبنى بها فقالت له: يا هذا قد عرفت الشرط. فخرج عبد الرحمن بن ملجم ومعه سيف مسلول ....»[1]

والرواية الثالثة تتحدث عن مؤامرة تبناها الأشعث بن قيس الذي، حسب هذه الحبكة، قدّم لعبد الرحمن بن ملجم الدعم اللوجستيّ الذي احتاجه لتنفيذ عملية الاغتيال، فكان مقيماً عنده، وبات يناجيه ليلة أقدم على الجريمة. قال البلاذري في انساب الأشراف «لم يزل ابن ملجم تلك الليلة عند الأشعث بن قيس يناجيه حتى قال له الأشعث: لقد فضحك الصبح. وسمع ذلك من قوله حجر بن عدي الكندي فلما قتل عليّ قال له حجر: يا أعور أنت قتلته»[2]

وهذه الروايات لا تخلو من عنصر إثارة وتشويق ظاهر لدى رواتها ويمكن رفضها بكل تأكيد، وأحيانا تتداخل الروايات الثلاث بعضها ببعض بحيث يصبح القتل نتيجة مؤامرة ثلاثية[3] من الخوارج في مكة، تصادفت مع مؤامرة قطام في الكوفة وتصادفت مع تآمر الاشعث بن قيس وتحريضه!

---

(1) أليس من المنطقي التساؤل عن قطام هذه إذا كانت امرأة ذات حسب كبير كقتل علي، فلماذا تطلب منه مبلغ مالي (ثلاثة آلاف درهم) بالاضافة الى قتل علي؟ ألم يكن قتل علي كافيا بنظرها كمهر لها؟!

(2) بل ان أبا الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيين يضيف اثارة للرواية فيقول ان حجر بن عدي عندما سمع وشوشة الاشعث مع ابن ملجم انطلق راكضاً لكيْ يخبر عليّاً ولكن ابن ملجم سبقه فوصل حجر ليجد الناس يقولون: قتل أمير المؤمنين!

(3) ومن غرائب الروايات تلك التي أوردها الامام الذهبي في سير أعلام النبلاء نقلا عن الزهري وتتحدث عن مؤامرة ثلاثية مختلفة: لاغتيال معاوية وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة الفهري! وليس فيها علي بن أبي طالب! ويبدو أن هذه الرواية لم تكن للذهبي مقنعة فلجأ الى الاجتهاد بشأنها قائلاً: هذه المرة غير المرة التي جرح فيها وقتل فيها علي رضي الله عنه.

وأما الذي حصل فعلاً فهو أن الخوارج قرروا الثأر لقتلاهم فأرسلوا أحد قتلتهم فكمنَ لعليّ وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر، فضربه بالسيف المسموم على رأسه وهو يصرخ «الحكم لله لا لكَ يا عليّ».

وهناك احتمالٌ أن تكون عملية الاغتيال عملاً فردياً من القاتل عبد الرحمن بن ملجم، وليس بناءً على تخطيط من قيادة الخوارج.

يدُ الشيطان تغتالُ إمامَ الزمان[1]

وفي تفاصيل العملية: رغم أن المشهور والشائع ان القاتل هو عبد الرحمن بن ملجم، إلا أن كثيراً من المصادر تتحدث عن شريك له في التنفيذ: شبيب بن بجرة الأشجعي. فيُقال انه شارك في الهجوم بالسيف على عليّ ولكن ضربته أخطأته في حين أصابه ابن ملجم. وتقول الروايات ان ابن بجرة هذا قُتل مباشرة بعد العملية على يد بعض الناس، خلافاً لابن ملجم الذي أُسر وبقي حياً الى حين إعدامه بعد وفاة عليّ. وقد وصف ابن ملجم قوة ضربته التي وجهها بالسيف الى رأس عليّ «والله لقد ضربته ضربة لو قُسمت بين أهل الارض لأهلكتهم»[2]. وعندما أتاه الطبيب وعاين إصابته ورأى جرحه قال له «يا أمير المؤمنين اعهدْ عهدك! فإن عدو الله قد وصلت ضربته الى أم رأسك».

لم يعش عليّ كثيراً بعدها. لم يتم ثلاثة أيام وتوفي مساء يوم الاحد التاسع عشر من رمضان سنة 40 للهجرة. ولكنها كانت كافية لكي يعرف من

---

(1) إنا أعترف أن هذا العنوان «يد الشيطان تغتال إمام الزمان» به قدر كبير من العاطفة تجاه عليّ، وقد فكرت في تغييره ولكني في الأخير قررت ابقاءه كما هو كما صدر من قلبي، رغم حرصي الأكيد على الموضوعية والعقلانية في الكتابة.
مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص110-113 - 115 وص116)، والإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص180-181)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص252-254 و257-254 وص243-244)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص211-212)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص302-303)، مقاتل الطالبيين للأصفهاني (ص18-22)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص446)، مسند الامام الشافعي (ص313)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج4 ص280)، الأخبار الطوال للدينوري (ص213 وص214)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص141)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج18 ص120).
(2) مقاتل الطالبيين للأصفهاني.

عنه وليترك وصيته بشأنه: فقد مرض وهو يجود بأنفاسه الأخيرة على أن يوصي بنيه بحُسن معاملة قاتله حين قبضوا عليه!

«... أطيبوا طعامه وألينوا فراشه. فإن أعِش فأنا وليّ دمي فإما عفوتُ وإما اقتصصتُ. وإن أمت فألحقوه بي، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»[1]

ولما حضرته الوفاة دعا أولاده وقال لهم: عليكم بتقوى الله وطاعته، ولا تأسوا على ما صُرف عنكم منها. وانهضوا إلى عبادة ربكم، وشمّروا عن ساق الجد، ولا تثاقلوا إلى الأرض، وأقروا بالخسف، وتبوؤوا بالذل.

اللهم اجمعنا وإياهم على الهُدى، وزهّدنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى. والسلام»[2]

وتولى غسله ابناه الحسن والحسين، ومعهما ابن عمهما عبد الله بن جعفر، وكفنوه بثلاثة أثواب، ودفنوه وصلى عليه الحسن.

مكان دفنه المجهول

قال الدينوري في الأخبار الطوال فلا يعلم أحد أين دفن؟

وروى البلاذري قالوا: ودفن علي بالكوفة عند مسجد الجماعة في الرحبة مما يلي أبواب كندة، قبل انصراف الناس من صلاة الفجر. ويقال: دفن في الغري، ويقال في الكناسة، ويقال بالسبخة. وأخفي قبره مخافة أن ينبشه الخوارج فلم يعرف»

خطبة ابنه الحسن[3]:

«أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن جهلني أنبئه باسمي على أن الناس بي عارفون.

---

(1) أنساب الأشراف للبلاذري. وقريبٌ من ذلك ورد في مسند الإمام الشافعي. وكذلك في كتاب الثقات لابن حبان.

(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

(3) هذا النص من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي.

أيها الناس، لقد قتلتم في هذه الليلة رجلاً لم يدركه الأولون بعلمه ولا الآخرون بحلمه.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعثه للحرب لجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يلبث أن يفتح الله على يديه.

أيها الناس، إنه ما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم قد كان أراد أن يبتاع بها لأختي أم كلثوم خادماً، وقد أمرني أن أردها إلى بيت المال».

إعدام ابن ملجم

لقد أورد البلاذري في أنساب الأشراف تفاصيل بشعة عن طريقة إعدام ابن ملجم وقتله بشكل شنيع على يد آل عليّ وأنصاره. والرواية تخبرنا أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب هو بطل تلك القصة الشنيعة «... ثم بادر عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه، وهو ساكتٌ لا يتكلم، ثم عمد إلى مسمار محمّى فكحل به عينيه، فلم يجزع وجعل يقول: كحّلتَ عمك بملمول مضٍ، ثم قرأ (اقرأ باسم ربك الذي خلق) حتى فرغ منها وعيناه تسيلان. ثم عولج عن لسانه ليقطعه، فجزع ومانعهم! فقيل له: أجزعت؟ قال: لا، ولكني كرهت أن أبقى وقتاً لا أذكر الله فيه بلساني! فقطعوا لسانه. ثم إنهم جعلوه في قوصرة كبيرة ويقال في بواريه وأحرق بالنار».

وهذه البشاعة من الصعب جداً تصديقها. فهي أقرب ما تكون إلى السادية والأمراض النفسية، وهي بعيدة تماماً عن أخلاق الإمام علي وتربيته. ولا ننسى أن عدداً من الروايات تقول أن علياً قد شدد في وصيته قبل موته على ضرورة عدم التمثيل بقاتله. روى ابن الأثير في الكامل أن علياً قال: «انظر يا حسن إذا أنا متُّ من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلنّ بالرجل، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: إياكم والمثلة، ولو بالكلب العقور».

كما أن البلاذري ذاته وبعد ختم روايته تلك بشأن الطريقة الشنيعة لقتل ابن ملجم، أتبعها بالقول: ويقال أن الحسن ضرب عنقه وقال: لا أمثل به، وهذا أصح.

*****

وقد أصبح القاتل (بطل) الخوارج الذي يمتدحونه بالأشعار، فقال قائلهم عمران بن حطان في شعر مشهور:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

*****

وهكذا انتهت حياة الإمام الذي وصفه ضرار بن ضمرة الصدائي لمعاوية بقوله:

«فأشهدُ لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليلُ سدوله، وهو قائمٌ في محرابه، قابضٌ على لحيته، يتململُ تململَ السليم، ويبكي بكاءَ الحزين، وهو يقول:

يا دنيا يا دنيا، إليكِ عنّي، أبي تعرّضتِ؟ أم إليّ تشوّقتِ؟ لا حانَ حينكِ. هيهات! غُرّي غيري، لا حاجة لي فيكِ! قد طلقتكِ ثلاثاً لا رجعة فيها. فعيشكِ قصير، وخطركِ يسير، وأملكِ حقير.

آهٍ من قلة الزاد، وطول الطريق، وبُعد السفر، وعظيم المورد!»[1]

وقال أبو الأسود الدؤلي يرثي علياً[2]:

ألا أبلغ معاويةَ بن صخرٍ ... فلا قرّت عيونُ الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طرّاً أجمعينا

قتلتم خيرَ مَن ركبَ المطايا ... ورحّلها ومَن ركب السفينا

ومَن لبسَ النعالَ ومَن حذاها ... ومَن قرأ المثاني والمئينا

إذا استقبلتَ وجهَ أبي حسينٍ ... رأيتَ البدرَ راعَ الناظرينا

لقد علمت قريشٌ حيث كانت ... بأنك خيرها حسباً ودينا

وفي أنساب الأشراف أن أم العريان بنت الهيثم قالت:

وكنّا قبلَ مقتلهِ بخيرٍ ... نرى مولى رسولِ الله فينا

يقيم الحقَّ لا يرتابُ فيه ... ويعدلُ في البعيد والأقربينا

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
(2) تاريخ الطبري

الفصل الثاني:

انهيارٌ ماديٌ ومعنويٌ، الحَسَن يقرر السلام

بيعة حفيد الرسول[1]

هل أوصى الإمام علي لابنه الحسن بالخلافة؟ أم أن بيعة الحسن كانت عن توافق من أصحاب عليّ عليه، دون نص صريح على ذلك؟

الجواب أن هناك بعداً جدلياً كلامياً لهذه المسألة، مما يجعلها تخرج عن نطاق التحقيق التاريخي الصرف والبحث في الروايات.

فالشيعة لديهم إجماع بلا خلاف أن علياً قد أوصى للحسن من بعده. وهذه قضية عقائدية لدى الشيعة، والمصادر الشيعية تذكر أن علياً في معرض وصيته قد حدد ترتيب الأئمة من أهل البيت. فمثلاً روى ابن أبي الفتح الأربلي في كشف الغمة عن سليم بن قيس الهلالي: *شهدت أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال له: يا بني أمرني رسول الله (ص) أن أوصي إليك وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه. وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت*

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص119 وص123)، الكامل لابن الأثير (ص461)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ق3 ص174)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص262 وص278-279)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص214)، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج4 ص283)، البداية والنهاية لابن كثير (ج8 ص15)، الأخبار الطوال للدينوري (ص216) مقاتل الطالبيين للأصفهاني (ص33-39)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأربلي (ج2 ص155).

أن تدفعها الى اخيك الحسين. ثم أقبل على الحسين عليه السلام فقال: وأمرك رسول الله (ص) أن تدفعها الى ابنك هذا، ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال: وأمرك رسول الله (ص) أن تدفعها الى ابنك محمد فاقرأه من رسول الله (ص) ومني السلام»

وأما المصادر غير الشيعية، مصادر التاريخ عموما، فلا ترد فيها الوصية المباشرة من علي باستخلاف ابنه الحسن، بل هي تتحدث ان الناس اجتمعوا وبايعوا الحسن دون الاشارة الى ان ذلك تم بناء على وصية: قال اليعقوبي «ثم اجتمع الناس فبايعوا الحسن بن علي» وقال ابن اعثم الكوفي «فلما مضى علي بن ابي طالب رضي الله عنه الى سبيل الله اجتمع الناس الى ابنه الحسن فبايعوه» وقال ابو حنيفة الدينوري «ولما توفي علي رضي الله عنه خرج الحسن الى المسجد الاعظم، فاجتمع الناس اليه فبايعوه»

بل ان بعض المصادر تذكر رواية تنفي فيها صراحة فكرة أن علياً أوصى لابنه: فقد قال الطبري وابن الأثير وابن خلدون ان شخصا اسمه جندب بن عبد الله دخل على عليّ حين طُعن فقال «يا امير المؤمنين ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا انهاكم. انتم ابصر». والبلاذري روى نفس الخبر تقريبا ولكن اسم السائل فيه كان: عبد الرحمن بن جندب.

وابن كثير في البداية والنهاية أخرج رواية «ضعيفة سنية» بامتياز يقول فيها «ان عليا رضي الله عنه لما ضربه ابن ملجم قالوا له: استخلف يا امير المؤمنين. فقال: لا، ولكن أدعكم كما تركَكم رسول الله (ص)، يعني بدون استخلاف، فان يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله (ص)»

وأما ما حصل تاريخيا بالفعل فهو أن الحسن قد بويع. بايع أهل العراق الحسنَ بن عليّ بالخلافة، عقب وفاة والده مباشرة وبدون أي خلافٍ يُذكر. روى البلاذري نقلا عن صالح بن كيسان «قام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري فخطب وحمد الله واثنى عليه، ثم وصف فضل عليّ وسابقته وقرابته والذي كان عليه في هديه وعدله وزهده، وقرظ الحسن ووصف حاله ومكانه من

رسول الله(ص) والذي هو أهله في علمه وسلمه واستخلافه الأمر بعد أبيه، ورغّبهم في بيعته ودعاهم إلى طاعته. وكان قيس أول من بايعه ثم ابتدر الناس بيعته[1].

كان الشعور الجماعي بحجم الخسارة التي نتجت عن فقدان عليّ، وضرورة الاجتماع بسرعة، على قطب موحّد جديد لقيادتهم، يدفعهم إلى سرعة مبايعة الحسن بالخلافة، وتجنب أي نزاع. كان الحسن هو الخيار الطبيعي والمعنوي لأهل العراق، ليخلف والده. لم يكن الأمر يتعلق بعملية وراثة عادية، ملكية، للحكم. كانت ردّة فعل جماهيرية عامة على حادث الاغتيال الأليم. كان إحساس أهل العراق بالخوف على مستقبلهم، ومصيرهم، وقضيتهم، هو الذي يدفعهم إلى مبايعة الحسن بن عليّ بالخلافة أولاً، ثم الخروج معه لمواجهة الغزو القادم من الشام، بعد فترة وجيزة، ثانياً.

وعلى الرغم من أن بيعته كانت بإجماع كل أتباع أبيه إلاّ أنّ الدلائل كانت تشير إلى أن الأمور لا تسير كما يشتهي الخليفة الجديد.

فالصعوبات الهائلة التي واجهها والده في آخر سنتين من حكمه كانت مرشحة للتفاقم والتصاعد. ولم يكن ليغيب عن ذهن الحسن أن أباه، بكل ما له من تاريخ ونُبل لا نظير له في الإسلام، لم يستطع أن يضبط شؤون أهل العراق، ويجمع شملهم على نحو يؤهله لتحقيق هدفه الجوهري في إلحاق الهزيمة بمعاوية ومَن معه من أهل الشام.

فالحرب الأهلية التي حصلت داخل البيت العراقي، قتال الخوارج، أضعفت كثيراً معسكر علي بن أبي طالب. ورغم هزيمتها الكبيرة في النهروان، إلاّ أن الحركة الخارجية غدت أخيراً في طريقها إلى التأطّر والانتظام في سياق تنظيمي وفكري محدد. ورغم أنهم استمرّوا في كونهم أقلية ضمن أهل

---

[1] وفي رواية أخرى للبلاذري أن عبد الله بن العباس هو الذي خرج إلى الناس ودعاهم إلى بيعة الحسن. وفي رواية الأصفهاني أن عبد الله بن العباس هو الذي دعا الناس إلى بيعته. وربما يكون الذي حصل أن جميع هؤلاء المذكورين، قيس وابن العباس، قاموا بدعوة الناس إلى بيعة الحسن وحثهم على ذلك.

العراق، إلاّ أنه أصبح للخوارج، تدريجياً، قاعدة اجتماعية تدعم حركتهم وتمدّهم بالرجال.

وهكذا وجد الحسن بن علي نفسه في وضع لا يُحسد عليه. فمن جهة، كانت جبهته الداخلية تعاني من الفرقة والتشتت، وقد نخّر فيها الصراع الداخلي الذي تفجّر بين أبيه وبين الخوارج حتى أثر على عموم جيشه ومقاتليه، ومعنوياتهم وتصميمهم. وهذا العدو الداخلي لا يكلّ ولا يملّ، وقد نجح في اغتيال القائد الأعلى، علي، ولم تكن هناك إشارات على نيته التراجع عن أفكاره ونهجه.

ومن جهة أخرى، كان عدوه الرئيسي، معاوية ومَن معه، قد ازداد شراسة وجرأة، بعد أن نجح في الصمود بصفين، وفي الهيمنة على مصر. وكانت سياسة الغارات التي شنّها معاوية في السنة الأخيرة قد أظهرت أنه لن يتورّع عن أي سلوك لنشر نفوذه وسلطانه، حتى لو كان الإجرام العاري من أي غطاء.

وقد انعكست هذه الأوضاع على الطريقة التي قبل بها الحسن البيعة. ويحدثنا المؤرخون أن النوايا السلمية للحسن ظهرت من اللحظة الأولى لتوليه، أو حتى قبل توليه، في صيغة البيعة ذاتها، مما أحدث إشكالاً؟

قال البلاذري «كانت بيعته التي أخذ على الناس: أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. فقال بعض من حضر: والله ما ذكر السلم إلا ومن رأيه أن يصالح معاوية»

وروى الطبري نقلا عن الزهري «بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة، فطفق يشترط عليهم الحسن: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت. فارتاب أهل العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتال». وقال الطبري أيضا «وقيل: إن أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلّين. فقال له الحسن رضي الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط. فبايعه وسكت. وبايعه الناس»

فإن رفض الحسن مبادرة «مقاتل المحلين» التي يقصد بها ليس الاستمرار في قتال أهل الشام، في صيغة البيعة، ووضح له أن كتاب الله وسنة نبيه تكفي.

ولكني أعتقد أن هناك مبالغة من قبل الرواة في إبراز التوجهات السلمية للحسن، وخصوصاً في تلك الفترة المبكرة وبعد موت عليّ مباشرة. لقد توجه الحسن للسلم، صحيح، ولكن بسبب الظروف الموضوعية التي اضطرته لذلك وبعد أن رأى تدهور جبهته، كما سنرى. ومما يدعم فكرتي تلك الروايات التي تقول إن أول شيء قام به الحسن بعد توليه: «أن زاد رواتب المقاتلين مائة مائة»[1]، وهذا طبعاً يُشكل على فكرة المبالغة في الرؤيا السلمية لأنه يظهر اهتمام الحسن بالجيش والجنود وحرصه على رضاهم.

معاوية يبدأ التحرك[2]

وبدأ معاوية العمل على الفور لاستغلال الفرصة الذهبية التي نتجت عن صدمة غياب علي المفاجئ، فأعلن النفير العام في صفوف قواته:

ثم كتب إلى عماله على النواحي بنسخة واحدة:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتل خليفتكم. إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده، فاغتاله فقتله. فترك أصحابه متفرقين مختلفين. وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم. فأقبلوا إليّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن

---

(1) مقاتل الطالبيين للأصفهاني

(2) مصادر هذا المبحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص29 وص30-31)، مقاتل الطالبيين للأصفهاني (ص 37 وص42)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص280 وص249)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص214)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص149-150)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج4 ص285)، البداية والنهاية لابن كثير (ج8 ص21 وص16).

معشكم. فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1]

وبعد أن حشد كل جيوش الشام، سار معاوية الى العراق، لاظهار قوته وتفوقه.

ورغم أن القوة هي الأساس في سياسة وتحركاته، إلاّ أن معاوية كان أيضاً حريصاً على تقديم خطاب لين للخليفة الجديد في العراق من أجل تشجيعه على التسليم بلا حرب جديدة وقتال. فإن أمكن تحقيق هدفه سلماً والوصول الى غايته بدون خسائر جديدة في صفوف جيشه وقواته فذلك أفضل بنظر معاوية، ولا يأس أن يبذل من الوعود والعهود ما تقتضيه المصلحة، ولا بأس أن يجامل الحسن بالكلام، فيسهّل عليه القرار الصعب!

وبعض المصادر[2] تقول ان الحسن كان قد أرسل، لما تولّى، كتاباً إلى معاوية يدعوه فيه إلى الطاعة[3]. فأجابه معاوية:

«... إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله وأخشاها له وأقواها على الأمر، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا. ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويذب عن حرم الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر.

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وفي رواية البلاذري ان معاوية قال في معرض التنبيه للناس: ان الله أتاح له من أطاع فبلغت رغائبه. وأن ولي الكوفة بعده ابنه وهو حدث غرّ لا علم له بالحرب!

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وأيضاً مقاتل الطالبيين للأصفهاني وأنساب الأشراف للبلاذري وكتاب الفتوح لابن أعثم.

(3) غالبية المصادر لا تذكر ذلك بل تبدأ في الحديث عن تحركات الحسن العسكرية منذ لحظة مبايعته أو حتى قبلها! ولكني أعتقد أن إرسال الحسن لمعاوية يطلب بيعته صحيح تماماً ومنسجم مع فكرة تولية المهمة نفسها. فما دام قد تصدّى لمنصب الخلافة وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين فلا بد أن يتصرف بمقتضى ذلك كجزء من واجبات منصبه بغض النظر عن نواياه السلمية. وحسب «مقاتل الطالبيين» للأصفهاني فإن الحسن قد وضح ذلك فقد ورد في نص رسالته لمعاوية «إنما حملني على الكتاب اليك الإعذار فيما بيني وبين الله سبحانه وتعالى في أمرك»

والحال بيني وبينك على ما كانوا عليه.

فلو علمتُ أنك أضبط لأمر الرعية، وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأكيد للعدو وأقوى على جمع الفيء، لسلمتُ لك الأمر...»[1]

وفي رواية أخرى لابن أبي الحديد أنه كتب للحسن:

«... إنك أمرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين، ولا المسيء، ولا اللئيم...

والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص)...

إني أطول منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سناً.

فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني...»

وهكذا فإن معاوية الآن يبرر للحسن أسباب رفضه لخلافته على أساس الخبرة والقدرة والمصلحة العامة. وهو يطول للحسن بكل وضوح إن عليه أن يُضحي بالخلافة من أجل مصالح المسلمين كما ضحى أبوه (أو اضطر للتضحية) من قبلُ لمصالح أبي بكر الذي تولى الحكمَ استناداً لنفس الأسباب التي يشير إليها معاوية: أقوامهم على الأمر[2].

*****

وتجمع الروايات على أن الحسن بن علي لما علم بمسير معاوية وجيوشه، حثَّ الناس على الجهاد وبذل جهده لحشدهم من أجل الخروج لمواجهة أهل الشام. ولكن التفاصيل تختلف. فالطبري مثلا يحدثنا أن الحسن سار من الكوفة على رأس جيش من 40 ألف مقاتل، حتى وصل

(1) النص هنا من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وأيضاً مقاتل الطالبيين للأصفهاني وبه المراسلات بالتفصيل. ويورد قريب من ذلك، ببعض الاختصار، في أنساب الأشراف للبلاذري، وبه يذكر اسم حامل رسالة الحسن إلى معاوية: جندب بن عبد الله بن ضب. وأيضاً: كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي.

(2) ولكن معاوية يتجاهل حقيقة أنه إذا كان جائزاً مقارنة الحسن بأبيه، فإنه ليس جائزاً مقارنته هو بأبي بكر، الذي كانت له سابقته المعلومة وصحبته الرسول (ص)!

ساباط المدائن. فأرسل منهم جيشاً من اثني عشر ألفاً لمواجهة جيش الشام[1]، بقيادة ابن عمه عبيد الله بن العباس، وجعل معه قيس بن سعد بن عبادة، وذلك من أجل منع تقدم معاوية داخل العراق. ويبدو رقم الـ 50 ألفاً الذي أورده الطبري، كعدد للمقاتلين الذين حشدهم الحسن وساروا معه إلى المدائن، مبالغاً فيه. ولكن لو سلّمنا أن عدداً كبيراً من مقاتلي الكوفة قد خرجوا بالفعل معه، فإن السبب في هذا التجاوب للحسن هو بالتأكيد الشعور الذي ساد بين أهل العراق بأنهم مُهددون، ويتعرضون للغزو من أهل الشام. فالمسألة هنا مختلفة عما كانت عليه عندما كان عليّ يندبهم لغزو الشام. هنا الأمر دفاعيّ. والهجوم الذي يتعرضون له كلّي، وليس غارة محدودة. فلا بد من الخروج. ولا ننسى أن علياً في أواخر أيامه كان قد نجح في حشد 40 ألف مقاتل تجهزوا وبايعوه على الموت[2] واستعدوا للخروج معه لغزو الشام. فربما استجاب عدد كبير منهم للحسن.

ويبالغ مؤرخو الملحمة السنية، ومنهم ابن كثير، في تقدير حجم وقوة جيوش الحسن بن علي، وذلك بهدف إظهار أن تسليمه الأمر لمعاوية كان طوعياً واستجابة لحديث ونبوءة من الرسول (ص). يقول في البداية والنهاية: «اجتمعوا اجتماعاً عظيماً لم يسمع بمثله. فأمّر الحسن قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة في اثني عشر ألفاً بين يديه، وسار هو بالجيوش في أثره قاصداً بلاد الشام ليقاتل معاوية»[3]

ولكن هناك روايات، وهي الأرجح عندي، تقول لنا أن العدد الذي تبع الحسن في حشده كان أقل بكثير، كان 12 ألفاً فقط. ومنها رواية عن

---

(1) يقول البلاذري في رواية عن الحسن البصري: «وجمع له الحسن ألفاً فخرج بهم حتى نزل المدائن، وسرّح بين يديه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عشرين ألفاً، فنزل بمسكن».
(2) البداية والنهاية لابن كثير.
(3) ومن يقرأ هذه الرواية يكاد يشعر بالاشفاق على معاوية المسكين الذي سيواجه جحافل الحسن بن علي الجبارة الجرارة! لا شك أنها رواية خيالية لفقها شيعي لكي تنسجم مع الملحمة السنية المناقضة عند الملحمة الشيعية وتحت بحديث تروي مصالح أنها.

أبي الحسن المدائني ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وتقول أن معاوية سار إلى العراق في جيش من ستين ألفاً بينما الحسن مقيمٌ بالكوفة لم يشخص حتى عبر معاوية جسر منبج. فعقد الحسن لقيس بن سعد على اثني عشر ألفاً ووجههم فساروا على الفرات وقرى الفلوجة ووصل قيس إلى مسكن ثم إلى الأخنونية (وهي من نواحي بغداد الحالية) فنزلها قبالة معاوية هناك. وقدم معاوية قواته بقيادة بسر بن أرطاة فحصلت مناوشات بينهم إلى أن انتهى الأمر كله.

ويلاحظ على هذه الرواية أنها لم تذكر تعيين عبيد الله بن عباس كقائد للجيش بل قيس بن سعد، ولم تذكر أن جيش قيس المكون من اثني عشر ألفاً كان طليعة لقوات أكبر حركها الحسن، بل لم تذكر أن الحسن خرج من الكوفة اصلاً.

اذن توجه الجيش الذي ارسله الحسن، الصغير بالقياس الى جيش الشام للقاء معاوية. وهناك اضطراب في الروايات بشأن المكان الذي تواجه فيه الجيشان حيث تتحدث بعضها عن الموصل[4] وبعضها عن مناطق في الانبار/ غرب العراق وبعضها عن منطقة المدائن[5] (بغداد الحالية). وانا استبعد ان تكون قوات الحسن قد توجهت الى الموصل في اقصى شمال العراق، فالعادة كانت ان الجيوش الشامية والعراقية تسير وتتحرك على مسار نهر الفرات، وليس دجلة الذي تقع عليه الموصل.

ولما تقابل الجيشان، سواء قرب المدائن او في الانبار، شنّ معاوية حملة نفسية مركّزة موجهة إلى عموم الجيش العراقي وقيادته. وعرض معاوية الرشوة بمبالغ كبيرة على كل من عبيد الله بن العباس، وقيس بن سعد من أجل الإنشقاق والانضمام إليه، وصلت إلى ألف ألف درهم! وتدفّق سيلٌ كبيرٌ من الإشاعات إلى المعسكر العراقي بأن الحسن بن عليّ قد صالح معاوية وبايعه!

(4) تاريخ اليعقوبي. وايضا: مقاتل الطالبيين للأصفهاني.
(5) بعض الروايات تذكر ان المكان الذي التقى فيه الجيشان اسمه «مسكن»، ومنها رواية ابن كثير في البداية والنهاية. ومسكن هي منطقة تبعد عن بغداد الحالية «عشرة فراسخ» حسب رواية البداية والنهاية.

وبالتالي لا فائدة من المقاومة والعناد. وفي تلك الوقت كانت إشاعات معاوية تملأ الكوفة أيضا وتصل الحسن بأن قيادة جيشه قد خانته وانضمت إلى معاوية!

إذن نجح معاوية في خلق حالة من الإرباك الشديد في العراق، ولم يعد أحد يدري ما الذي يجري؟ فلا الحسن يثق بجنوده، ولا قيادته تثق به، ولا العامة تدري إلى متى ستستمرّ حالة الحرب.

وأسفرت تلك الأجواء عن نجاح كبير لمعاوية، تمثّل بخيانة تعرّض لها الحسن من حيث لا يتوقع: ابن عمه عبيد الله بن العباس! يبدو أن معاوية قد نجح في إقناع عبيد الله أنه يخوض حرباً خاسرة وأن إمامه وقائده على وشك الاستسلام وبالتالي يكون من الأفضل لعبيد الله أن يستبق الأحداث ويبادر إلى الاستفادة من عروض معاوية، قبل أن تصبح معدومة القيمة إذا ما حصل فعلاً وسلّم الحسن. وربما اقتنع عبيد الله نفسه أنه لا يجوز له أن يبقى على هامش الأحداث منتظراً قدره بينما الحسن يفاوض معاوية على الصلح!

استطراد بشأن خيانة عبيد الله بن عباس[1]:

الأخبار الواردة في المصادر بشأن خيانة عبيد الله بن العباس لابن عمه الخليفة الجديد الحسن بن عليّ وانضمامه إلى معاوية ليست حاسمة بما يكفي لتكوين رأي قطعيّ حول هذا الأمر بل هي تبعث لدى الباحث نوعاً من الحيرة والشك. ومن المؤكد أن الحسن بن عليّ تعرض لخيانات في تلك الفترة العصيبة التي سبقت تسليمه لمعاوية من قبل قياداته السياسية والعسكرية.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص122-125)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص42)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص284)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص219)، البداية والنهاية لابن كثير (ج8 ص17)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ق2 ص187)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الأربلي (ج2 ص247)، مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني (ص42)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج37 ص440)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص344)، الإصابة لابن حجر (ج4 ص330)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص141)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص449)، تاريخ الإسلام للذهبي (ج4 ص6)، الأخبار الطوال للدينوري (ص216)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج4 ص288)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص174).

ذلك لا شك فيه. ولكن السؤال المطروح هنا هو بشأن عبيد الله بن عباس بالتحديد، هل خان؟؟

فيما يلي عرض لأهم المصادر التي تثبت خيانة عبيد الله وتروي تفاصيلها:

قال ابن أبي الحديد فأرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلّم الأمر إليّ. فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع. ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر. فانسلّ عبيد الله إليه ليلاً فدخل عسكر معاوية فوفى له بما وعده وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلي بهم فلم يخرج حتى أصبحوا فطلبوه فلم يجدوه فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة!

قال البلاذري في ثم بعث معاوية بعد ذلك عبد الرحمن بن سمرة إلى عبيد الله فخلا به وحلف له أن الحسن قد سأل معاوية الصلح، وجعل لعبيد الله ألف ألف درهم إن سار إليه. فلما علم عبيد الله رأي الحسن وأنه إنما يقصد قصد الصلح وحقن الدماء، صار إلى معاوية فأكرمه وبرّه وحفظ له مسارعته إليه، وقام بأمر الناس بعد عبيد الله قيس بن سعد، وقال في عبيد الله قولاً قبيحاً وذكر أباه وما كان بينه وبين علي ونسب عبيد الله إلى الخيانة والغدر والضعف والجبن!

قال اليعقوبي في تاريخه وأقام الحسن بن علي بعد أبيه شهرين، وقيل أربعة أشهر، ووجه بعبيد الله بن العباس في اثني عشر ألفاً لقتال معاوية، ومعه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وأمر عبيد الله أن يعمل بأمر قيس بن سعد ورأيه. فسار إلى ناحية الجزيرة وأقبل معاوية لما انتهى إليه الخبر بقتل علي، فسار إلى الموصل بعد قتل علي بثمانية عشر يوماً، والتقى العسكران، فوجه معاوية إلى قيس بن سعد يبذل له ألف ألف درهم على أن يصير معه أو ينصرف عنه. فأرسل إليه بالمال وقال له: تخدعني عن ديني! فيقال إنه أرسل إلى عبيد الله بن عباس وجعل له ألف ألف درهم فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه، وأقام قيس على محاربته!

قال ابن خلدون في تاريخه «وكان معاوية قد بعث عبدالله بن عامر في جيش إلى عبيد الله بن عباس لما كتب إليه في الأمان بنفسه، فلقيه ليلاً ولحق به وسار معه إلى معاوية. فقام بأمر العسكر بعده قيس بن سعد»

ومن جهة المصادر الشيعية، فإن ابن أبي الفتح الاربلي في كشف الغمة يؤكد الرواية القائلة بأن عبيد الله بن العباس قد خان الامام الحسن وانسلّ ليلاً هو وخاصته الى معاوية مقابل وعده بإعطائه ألف ألف درهم نصفها معجل ونصفها مؤجل، وأن قيس بن سعد استلم القيادة مكانه وكتب للحسن بذلك. وأيضاً روى ابو الفرج الاصفهاني مثل ذلك في مقاتل الطالبيين.

ولكن في المقابل هناك ما يشكل على قصة خيانة عبيد الله. ومن ذلك أن غالبية كتب التراجم وأخبار الصحابة المشهورة لم تذكر خبر الخيانة! فترجمة عبيد الله بن عباس في تاريخ دمشق لابن عساكر ليس فيها ذكر لخيانته وهو على جيش الحسن ولحوقه بمعاوية. ولم يذكر هذه الخيانة ابن الأثير في أسد الغابة، ولا ابن حجر في الاصابة، ولا الذهبي في سير أعلام النبلاء، ولا ابن عبد البر في الاستيعاب.

كما ان عددا من كتب التاريخ المهمة لم تشر الى خبر الخيانة هذا في معرض كلامها عن صلح الحسن ومعاوية. فلم يذكر ذلك الدينوري في الاخبار الطوال ولا ابن كثير في البداية والنهاية ولا ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح، ولا الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام.

وكذلك فإن ما رواه الطبري في تاريخه يمثل إشكالية حقيقية للباحث! فالطبري لا يذكر عبيد الله بن عباس على الإطلاق بل يتحدث عن عبد الله بن عباس! فقد روى عن الزهري أن الحسن كان قد نزع قيس بن سعد عن قيادة الجيش وعيّن عبد الله بن عباس مكانه بسبب نواياه الدموية التي لا يوافقه عليها قيس. ولما نما الى علم عبد الله بن عباس نية الحسن مصالحة معاوية، كتب إلى معاوية يسأله الأمان، ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها. فشرط ذلك له معاوية.

وبعث إليه معاوية ابن عامر في خيل عظيمة، فخرج إليهم عبد الله ليلا حتى لحق بهم، ونزل وترك جنده الذي هو عليه لا أمير لهم فيهم قيس بن سعد»

إذن الطبري يثبت حصول الخيانة، ولكنه ينسبها إلى شقيق عبيدالله عبد الله. فهل حصل خلط بين اسمي الأخوين ابنيّ العباس؟ ذلك أمر غريب جدا من قبل شيخ المؤرخين وعملاقهم! فلا يعقل أن يكون الإمام الطبري غير مدرك لمكانة عبد الله بن عباس الرفيعة في مجال رواية الحديث النبوي والفتوى الشرعية حتى أطلقوا عليه (حبر الأمة) حتى يتجرأ على تلطيخ سمعته بهذه الطريقة من طريق إظهار خيانته بذلك الشكل الرخيص. أم أن عبد الله بن عباس هو بالفعل من ارتكب الخيانة[1]، وليس أخوه؟!

وعلى كل حال، فقد روى الطبري رواية أخرى عن حوادث بشأن صلح الحسن، وفيها أن قيس بن سعد كان على الجيش لما صالح الحسنُ معاوية، تلقى أمر الحسن بأن يكف فتشاور الناس حول الدخول بطاعة أمير ضلالة أو أن يبقوا بلا إمام فاختاروا الأمر الأول. وليس في هذه الرواية أي ذكر لا لعبد الله ولا لعبيد الله ابني العباس!

ومما يزيد المسألة تعقيدا ما رواه الحاكم النيسابوري (وهو من أهل الحديث) في المستدرك على الصحيحين من أن الخائن كان شخصاً ثالثاً، وهو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب!! فقد ذكر عن أبي مخنف أنه لما وقعت البيعة للحسن بن علي جدّ في مكاشفة معاوية والتوجه نحوه. فجعل على مقدمته عبد الله ابن جعفر الطيار في عشرة آلاف، ثم أتبعه بقيس بن سعد في جيش عظيم، فراسل معاوية عبدَالله بن جعفر، وضمن له ألف ألف درهم إذا صار إلى الحجاز. فأجابه إلى ذلك، ودخل مسيرة وتوجه إلى معاوية ليرضى له.

وافترق العسكر، وأقام قيس بن سعد على حنق وانضم إليه كثير...

والخلاصة رأينا وما نعتقد بشأن قصة خيانة عبيد الله بن العباس: إنه قد خان بالفعل، وذهب مستسلماً إلى معسكر معاوية في ذلك الوقت العصيب، طالباً الأمان لنفسه، ولكن ذلك كان عملا فردياً منه، فلم يأخذ معه ثمانية الاف مقاتل كما تقول رواية اليعقوبي. فهو لم يكن شخصاً مؤثراً ولا قيادياً مرموقاً.

---

(1) وهكذا تظهر الرواية عبد الله بن عباس كمتخصص في الخيانات: فأولاً لعلي في البصرة ثم الآن للحسن بن علي في الكوفة!!

هو فقط رأى الأمور تسير في غير صالح الحسن بن عليّ وأن معاوية سيكسب لا محالة فقرر أن يسبق الحدث لعل ذلك ينفعه لدى معاوية في قادم الأيام. وليس ذلك مستغرباً منه، فالأحداث أثبتت أن أبناء العباس الثلاثة: عبد الله عبيد الله وقثم كانوا فاشلين وعديمي الكفاءة من ناحية القيادة والإدارة، ولم يكونوا بمستوى المناصب التي أسندها إليهم ابن عمهم عليّ[1]، ومن بعده الحسن.

الحسن يفقد السيطرة[2]

قال اليعقوبي: «أنفذ معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه. ويوجّه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه»

ومن ثم أرسل معاوية إلى الحسن وفداً رفيعَ المستوى، من خلصائه وأقربائه. ووصل الوفدُ الشامي المؤلف من عبد الله بن عامر بن كريز، وعبد الرحمن بن سمرة[3] إلى المدائن. ويبدو أن وفد معاوية قد جاء حسب خطة مدروسة لاستغلال ظروف الاضطراب في معسكر الحسن. وقد نجح رجال معاوية في مفاقمة مشاكل الحسن إلى الحد الأقصى:

فهم أولاً قد أحضروا معهم مجموعة من الرسائل والكتب التي أرسلها

---

(1) ويعتقد [illegible] أن علياً أراد تعويض بني العباس، وبني هاشم عموماً، عن التهميش الكبير الذي تعرضوا له خلال فترة الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، وإقصائهم عن كافة المناصب المهمة (التي كانت تكون حكراً على بطون قريش الأخرى) طوال ربع قرن بعد وفاة الرسول (ص)، فقرر تعيينهم في مناصب رئيسية في حكومته هم والأنصار أيضاً.

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص214-215)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص265)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج1 ص282 وص290)، تاريخ الطبري (ج4 ص122)، الأخبار الطوال للدينوري (ص217)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج4 ص288)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص14)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج13 ص269).

(3) وكلاهما، عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، من أقرباء معاوية وأبناء عمومته من بني عبد شمس. وفي تاريخ اليعقوبي ورد اسم «عبد الرحمن بن أم الحكم» بدلاً من سمرة. كما يذكر الطبري المغيرة بن شعبة من ضمن بعثة معاوية.

بعض الزعماء القبائليين من العراق إلى معاوية يمالئونه فيها ولاءهم له ويدعونه للقدوم إليهم!

وهم حرصوا وهم خارجون من مضارب الحسن، على أن يرفعوا أصواتهم حتى يسمعهم أفراد الجيش العراقي المتفرقين لما يجري: «إن الله قد حقن بابن رسول الله الدماء، وسكّن به الفتنة، وأجاب إلى الصلح»[1]

وقال الدينوري إن عبد الله بن عامر كان قد خاطب الناس بصوت عالٍ: «يا أهل العراق، إني لم أرَ القتال، وإنما أنا مقدمة معاوية، وقد وافى الأنبار في جموع أهل الشام، فأقرئوا أبا محمد -يعني الحسن- مني السلام، وقولوا له: أنشدك الله في نفسك وأنفس هذه الجماعة التي معك»

وأدى كل ذلك إلى خلق جو مأساوي لاهب من الفتنة في المعسكر العراقي، إلى درجة أن عناصر مختلفة قامت بالهجوم على مضارب الحسن بن عليّ وانتهبت متاعه.

وقد ساءت أحوال الحسن وتفاقمت، عندما تعرض إلى محاولة اغتيال خطيرة كادت تودي بحياته. فقد طعنه أحدهم، ولكن الضربة جاءت في فخذه فرملت العظم. ونجا الحسن من الموت بعد علاجه. قال اليعقوبي «وحُمل الحسن إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً، واشتدّت به العلّة، فافترق عنه الناس». والأرجح أن يكون الخوارج هم أيضاً مَن نفّذوا تلك العملية، رغم وجود احتمال بأن يكون عميلٌ لمعاوية هو الذي قام بها. قال الدينوري في الأخبار الطوال «فكمن له رجل ممن يرى رأي الخوارج، يسمى الجراح بن قبيصة[2] من بني أسد بمظلم ساباط[3]، فلما حاذاه الحسن قام إليه بمغولٍ فطعنه في فخذه. وحمل على الأسدي عبد الله بن خطل وعبد الله بن ظبيان فقتلاه. ومضى الحسن رضي الله عنه مثخناً حتى دخل المدائن»

---

(1) تاريخ اليعقوبي
(2) قال ابن أعثم في كتاب الفتوح أن الرجل اسمه «الجراح بن سنان» وأضاف «أن الجراح بن سنان كان معه حربة فاتكأ عليه. فصاح الحسن صيحة وخرّ عن فرسه مغشياً عليه، وابتدر الناس إلى ذلك الأسدي فقتلوه، وأفاق الحسن من غشيته وقد ضعف فعصبوا جراحه وأقبلوا به إلى المدائن»
(3) اسم المكان الذي وقعت به الحادثة.

ويبدو أن تلك المحاولة الفاشلة كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة للحسن. فهو شعر أن كل شيء ينهار، وأنه حتى حياته هو شخصياً معرّضة للخطر على يد أناس يحيطون به، لا يدري أيهم معه وأيهم عليه!

وقد أخرج الذهبي في سير أعلام النبلاء رواية عن عوانة بن الحكم تصف اضطراب معسكر الحسن: «سار الحسن حتى نزل المدائن، وبعث على المقدمة قيس بن سعد في اثني عشر ألفاً. فبينا الحسن بالمدائن إذ صاح صائح: ألا إن قيساً قد قتل! فاختبط الناس[1]. وانتهب الغرفاء سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطاً تحته. وطعنه خارجيٌّ من بني أسد بخنجر...»

وقال البلاذري «وقد رأى أمر الحسن، وتواكل تبعه لحال العراق، فوثبوا عليه فانتزعوا رداءه عن ظهره، وأخذوا بساطه من تحته، ونهبوا سرادقه»

وقد بلغ تخاذل وضع الحسن وانهيار جبهته حداً دفع البعض إلى طرح فكرة تسليمه بشخصه إلى معاوية طمعاً في الحظوة عنده! روى الطبري أن المختار بن أبي عبيد الثقفي، وهو يومئذ شاب، قدّم اقتراحاً إلى عمه سعد بن مسعود وهو كان والي عليّ على المدائن، حين كان الحسن يعالج عنده من أثر طعنة الخنجر: «فقال له المختار، وهو غلام شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية! فقال له سعد: عليك لعنة الله، أثِبُ على ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأوثقه! بئس الرجل أنت»[2].

ولافتة للنظر تلك العبارة التي استعملها الحسن مرة في خطابه لأهل الكوفة: نحن ضيوفٌ عليكم! وهذا النص كما أورده البلاذري «اتقوا الله

---

(1) وفي رواية الطبري «... إذ نادى منادٍ في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا. فنفروا ونهبوا سرادق الحسن»

(2) ينبغي الانتباه إلى احتمال وجود نية للإساءة إلى المختار بن أبي عبيد من خلال هذه الرواية. فالمختار كان من كبار الطالبين بدم الحسين بن عليّ في العراق بعد هذه الأحداث بعشرين عاماً، وتزعّم ثورة وخاض حروباً كبيرة في العراق ضد الحكم الأموي وضد الزبيريين كذلك. أي أن أعداءه كثيرون. لكن الإطار العام للرواية مفيد في إيضاح صورة وضعية الحسن الصعبة جداً في تلك الظروف.

أيها الناس حق تقاته، فإنا أمراؤكم وأضيافكم، ونحن أهل البيت الذين قال الله ﴿ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[1]. إن هذا الكلام العاطفي، الذي يخاطب به الحسن الناس، ليس كلام رئيس لمرؤوسين، كما هو واضح.

الحسن يقرر التسليم لمعاوية[2]

قرر الحسن التضحية بالخلافة والجنوح إلى مسالمة معاوية.

وفيما يلي مجموعة من النصوص في المصادر توضح أسباب الحسن:

روى ابن الأثير أن الحسن قال لأتباعه من العراقيين:

«إنا والله ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع.

وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم،

ألا وإنا لكم كما كنا، ولستم لنا كما كنتم.

ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره.

فأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر.

ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة.

---

(1) وفي رواية أسد الغابة لابن الأثير أن الحسن بقي يكرر كلامه حتى بكى كل الحاضرين وسمع نشيجهم. ونفس هذه الرواية أخرجها ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده عن الزهري، فقال: فما بقي أحد في المسجد إلا وهو يحن بكاء.

(2) مصادر هذا البحث: سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص145)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص13)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج4 ص209)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص78 وص22)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (ص401)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص215)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي (ج2 ص162)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج13 ص268) و(ج59 ص149)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص245).

فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا.

فناداه القوم من كل جانب: البقية البقية!

فلما أفرده أمضى الصلح(1)

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء، قال الحسن بن علي: يا أهل الكوفة! لو لم تذهل نفسي عليكم إلا لثلاث لذهلت: لقتلكم أبي، وطعنكم في فخذي، وانتهابكم ثقلي؟

وقال ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح أن الحسن قال: يا أهل العراق! ما أصنع بجماعتكم معي وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن أهل الشرف منكم قد صاروا إلى معاوية! أما والله ما هذا بمنكر منكم لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفين على الحكمين فلما أمضى الحكومة وقبل منكم اختلفتم. ثم دعاكم إلى قتال معاوية ثانية فتوانيتم. ثم صار إلى ما صار إليه من كرامة الله اياه. ثم إنكم بايعتموني طائعين غير مكرهين، فأخذتُ بيعتكم وخرجتُ في وجهي هذا والله يعلم ما نويتُ فيه. فكان منكم إلي ما كان! يا أهل العراق! فحسبي منكم لا تغروني في ديني، فإني مسلِّمٌ هذا الأمر إلى معاوية

وفي رواية أخرى عبّر الحسن بكل وضوح عن إحباطه الشديد من الكوفة وأهلها والذي كان السبب الرئيس لقراره: ...ورأيتُ أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد إلا غُلب، ليس أحدٌ منهم يوافق الآخر في رأي ولا هوى، مختلفين، ولا نية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً...(2)

ووصف ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة كيف كان الحسن يحاول، بلا جدوى، حشد الناس من خلفه للتصدي لزحف جيش معاوية، فقال انه لما بلغه ان معاوية وصل العراق وقطع جسر منبج ألقى خطبة في الناس قال فيها اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا ونرى وتروا.

---

(1) أسد الغابة لابن الأثير. ونفس هذه الرواية أخرجها أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق.
(2) الكامل في التاريخ لابن الأثير.

قال: وإنه في كلامه ليتخوّف خذلان الناس له.

قال: فسكتوا فما تكلم منهم أحد ولا أجابه بحرف!

فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قام فقال: أنا ابن حاتم! سبحان الله، ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟

وروى ابن أبي الحديد أيضا أن الحسن خطب الناس ووبخهم وقال: خالفتم أبي حتى حكم وهو كاره ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله. ثم بايعتموني على أن تسالموا من سالمني وتحاربوا من حاربني. وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية وبايعوه. فحسبي منكم! لا تغروني من ديني ونفسي؟

وقال اليعقوبي: وتقدم معاوية العراق، فغلب على الأمر. والحسنُ عليلٌ شديد العلّة، فلما رأى الحسن أن لا قوة به، وأن أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له صالح معاوية؟

وقد أجاد ابن أبي الفتح الإربلي في كشف الغمة وصف الذين كان يقودهم الحسن حيث استنفر الناس للجهاد، فتثاقلوا عنه ثم حضروا ومعه أخلاطٌ من الناس:

بعضهم من شيعته وشيعة أبيه عليه السلام

وبعضهم محكّمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة

وبعضهم أصحاب طمع في الغنائم

وبعضهم شكاك

وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين؟

وكانت فترة خلافة الحسن بحدود الستة أشهر حسب أغلب الروايات. وتم الصلح في جمادى الأولى سنة 41[1].

---

(1) يقول ابن عساكر أن الصلح تم في شهر ربيع الآخر أو في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وأن مكان اجتماع الصلح والتسليم هو مسكن التي تقع ما بين بغداد الحالية والأنبار.

كان القرار الصعب الذي اتخذه الحسن تعبيراً عن إدراكه لحقيقة موازين القوى الحالية التي صارت تميل لصالح عدوه. لقد قدّر الحسن أنه ليس بمقدوره إصلاح الخراب الذي اجتاح الجبهة العراقية. اختار الحسن تجنب مواجهة كبيرة وطاحنة مع جيش الشام ليس هناك أي أمل في الانتصار بها، لأنه لم يُرد أن يفرض توجهاً انتحارياً على أنصاره المخلصين. وليس صحيحاً أيضاً أن ما جرى كان طواعية أو رغبة من الحسن.

شروط الصلح: الروايات الظالمة للحسن[1]

هناك عدد كبير من الروايات حول هذا الأمر، وبعضها تذكر تفاصيل أو مطالب غريبة يمكن الشك فيها ورفضها. ومجموعة كبيرة منها تذكر مطالبات مالية شخصية للحسن واشتراطات بمبالغ ضخمة له ولأخيه الحسين! وأنه طلب من معاوية أن يفضّل بني هاشم في العطاء على بني عبد شمس!

وفيما يلي بعض هذه الروايات التي تظهر الحسن بصورة القائد لاأي إحساس بالمسؤولية القيادية تجاه أهل العراق وثورات فيه، وكأنه لا هم له سوى نفسه وراحته الشخصية!

روى الطبري في تاريخه:

عن إسماعيل بن راشد أن «شرط معاوية صالحه الحسن على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها، وأضاف في موقع آخر «ولقد كان صالح الحسنُ معاويةَ على أن جعل له ما في بيت ماله، وخراج دارابجرد، على أن لا يشتم علي وهو يسمع، فأخذ ما في بيت ماله بالكوفة وكان فيه خمسة آلاف ألف»

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص121-124)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج13 ص261، 264)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص264)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص282 وص287-289)، فتح الباري لابن حجر (ج13 ص54-55)، البداية والنهاية لابن كثير (ج8 ص18 وص20)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 180-182)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص231)، الأخبار الطوال للدينوري (ص218)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص13)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج4 ص290-291)، كشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي (ج2 ص164)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص184).

وعن الزهري في رواية قصيرة انه بعد مقتل عليّ اكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة!

وتوجد رواية طويلة وسخيفة عن الزهري تجعل موضوع الصلح عبارة عن مناورات ولقلكات متبادلة بين الحسن ومعاوية. فتقول ان الحسن كان ارسل لمعاوية كتابا به شروط للصلح، في ذات الوقت الذي كان معاوية ارسل للحسن كتابا فارغا مختوماً بتوقيعه وطلب من الحسن أن يكتب فيه ما شاء من الشروط! فلما وصلت صحيفة معاوية المختومة كتب بها الحسن أضعاف الشروط والمطالبات التي كان ارسلها لمعاوية اصلا. ولكن معاوية في النهاية، عندما قابل الحسن فيما بعد، رفض الاعتراف بالشروط التي كتبها الحسن في الصحيفة المختومة وقال له انه يلبي فقط الشروط التي طلبها الحسن في الاول، قبل استلامه صحيفة معاوية. فاختلفا، ومن ثم لم ينفذ للحسن شيئا من الشروط ! ويلاحظ انه ليس في الرواية الطويلة ذكر لتلك الشروط بالتحديد!

ولكن اذا جمعنا روايتي الزهري القصيرة والطويلة لبعضهما سيظهر لنا ان شروط الحسن كلها مادية وشخصية.

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق ان الحسن كتب لمعاوية بالصلح على ثلاثة شروط:

«يسلم له بيت المال فيقضي منه دينه ومواعيده التي عليه ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته.

ولا يسب عليّ وهو يسمع

وأن يحمل اليه خراج فسا ودارابجرد من أرض الفرس كل عام الى المدينة ما بقي.

فأجابه معاوية الى ذلك وأعطاه ما سأل»

وروى الذهبي في سير اعلام النبلاء عن ابن سعد عن الشعبي انه كاتب معاوية في الصلح على ان يسلم له ثلاث خصال:

يسلم له بيت المال فيقضي منه دينه ومواعيده ويتحمل منه هو وآله

ولا يُسب علي وهو يسمع

وأن يحمل اليه خراج فسا ودرابجرد كل سنة الى المدينة

فأجابه معاوية وأعطاه ما سأل»

وذكر البلاذري في رواية عن صالح بن كيسان «فلم يزل معاوية بالحسن حتى بايعه وأعطاه كل ما ابتغى، حتى قيل انه اعطاه عيرا أولها بالمدينة وآخرها بالشام»

وروى ابن حجر في فتح الباري عن طريق عوانة بن الحكم «وكان الحسن صالح معاوية على ان يجعل له ما في بيت مال الكوفة، وان يكون له خراج دارابجرد»

وجديرٌ بالذكر ان كثيرا من الروايات المسيئة للحسن والتي تتحدث عن مطالبات مالية شخصية للحسن واشتراطات بمبالغ ضخمة له ولأخيه الحسين! وأن يفضّل معاوية بني هاشم في العطاء، انما مصدرها ابن شهاب الزهري، وقد اعتمدها ونشرها الطبري في تاريخه. والزهري رغم كونه من كبار رجال الحديث الموثقين عند اهل السنة (مثلا: صحيح البخاري) إلا انه كان أموي الهوى والتوجه، وكان شديد القرب والارتباط بعبد الملك بن مروان وابنائه وتقلّد مناصب رفيعة في دولتهم.

واما مؤرخ السلطة السنية ابن كثير، فنرى في روايته أكبر قدر من الاحتقار للحسن ولمفاوضته وشروطه! فهو يؤكد ان الحسن هو الذي بادر الى الاتصال بمعاوية الذي ارسل له مندوبين فدارت بينهم مفاوضات تكاد تكون مالية بحتة اقتصرها على الكوفة، ليبذلا له ما اراد من الاموال. «فاشترط ان يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة الاف الف درهم وأن يكون خراج دارابجرد له وأن لا يُسبّ علي وهو يسمع، فاذا فعل ذلك نزل عن الامرة لمعاوية». وقال ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن البخاري في كتاب الصلح أن الحسن قال لمندوبي معاوية، عبد الرحمن بن سمرة

وعبد الله بن عامر اللذين كلفهما اليه ليعرفا شروطه للصلح "إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قالا له: نحن لك به. فصالحه".

والفكرة أن الحسن اشترط ألا يُسب عليّ وهو يسمع! فيها قدر من الإهانة يهبط بحفيد رسول الله إلى مستوى لا يمكن قبوله لها من الوضاعة والدناءة. لأنها تعني بكل بساطة، أنه لا يمانع أن يُسب عليّ ما دام هو لا يسمع! وليس هناك من بأس عند ابن كثير أن يكون ابنا عبد المطلب، وعلى لسان الحسن، قد "أصابوا من هذا المال" و"أصابوا من هذا المال" تعني سرقوه. لا بأس عند مؤرخ المنهجية السنية أن تكون العائلة النبوية قد نهبت الاموال مثلها كمثل بني أمية، فالكل سواء! هذا من موضوع أنها عاثت في دماء الأمة

وكذلك كان ابن عبد البر في الاستيعاب ملتزماً بالنظرية المنهجية السنية في تناوله لموضوع صلح الحسن لمعاوية. فقد امتدح الحسن بن علي بسبب جنوحه للسلم وقال عنه "كان رضي الله عنه حليماً ورعاً فاضلاً، دعاه ورعه وفضله إلى أن ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله. وقال: والله ما أحببتُ منذ علمتُ ما ينفعني وما يضرني أن إليّ أمر أمة محمد(ص) على أن يهراق في ذلك محجمة دم". وهذا الكلام الذي ظاهره المديح يحمل في طياته قدحاً في الإمام علي، وخاصة عند كلامه عن "ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله"، فهل كان الإمام علي راغباً في الملك والدنيا ولذلك لم يسالم معاوية؟

واستكمالاً لهذه النظرة يروي ابن عبد البر أن الحسن ردّ على من اتهمه بإذلال المؤمنين بسبب تنازله لمعاوية "... فإني لم أذلّ المؤمنين، ولكني كرهتُ أن أقتلهم في طلب الملك" فهذه الرواية فيها أيضاً طعنٌ من الحسن بأبيه!

ويتابع ابن عبد البر، انسجاماً مع هذا السياق، ليقول ان الحسن سار بجيش العراق (وقد بايعه أكثر من اربعين ألفاً)، وسار معاوية بجيشه، حتى التقى الجمعان في مسكن من ناحية الانبار، وعندما قدر الحسن انه لن تغلب إحدى الفئتين حتى تبيد أكثر الفئة الأخرى، بادر الى طلب الصلح[1].

●●●

وعدا عن الروايات المسيئة للحسن التي استعرضنا جانباً منها، هناك طائفة من الروايات تخلط في طياتها ما بين شروط شخصية ومالية للحسن وبين شروط لها علاقة بالمسؤولية القيادية والاخلاقية له. ومن هذه الطائفة:

ما رواه الدينوري في الأخبار الطوال. فقد ذكر أن الحسن ارسل شروطه للصلح مع مندوب معاوية، عبد الله بن عامر، فوافق عليها فوراً وبذل عليه العهود والايمان وأشهد عليها الناس.

«وكانت الشرائط:

ألا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة

وأن يؤمن الأسود والأحمر، ويحتمل ما يكون من هفواتهم

ويجعل له خراج الأهواز مسلماً في كل عام

ويحمل الى أخيه الحسين بن علي في كل عام ألفي ألف

ويفضل بني هاشم في الصلات على بني عبد شمس»

ومنها ايضاً ما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء «... فأرسل اليه الحسن يبذل له تسليم الأمر اليه

على ان تكون له الخلافة من بعده

---

(1) والملاحظ ان كل روايات ابن عبد البر لم تذكر شيئاً عن مطالبات أو اشتراطات مالية للحسن من أي نوع. بل هي تركز على فكرة «رغبة» الحسن بالسلام «طوعاً» وإيثاره لمصلحة الأمة.

وعلى ان لا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه

وعلى ان يقضي عنه ديونه

فأجابه معاوية الى ما طلب فاصطلحا على ذلك"[1]

***

وخلافاً للروايات السنية للحسن، التي تجعل تفاوضه مع معاوية متمحوراً حول مطالبات مالية، نجد الرواية التالية في كتاب الفتوح لابن اعثم، وفيها رفضٌ مباشرٌ من الحسن لكل المزايا المالية التي عرضها عليه معاوية. تقول الرواية «ثم دعا الحسن بن علي بعبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم، وهو ابن اخت معاوية، فقال له: سِرْ الى معاوية فقل له: إنك إنْ آمنتَ الناسَ على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ونسائهم بايعتك، وإنْ لم تؤمنهم لم أبايعك». وهكذا فإن همّ الحسن الاساسي كان تأمين أهل العراق جميعاً بعيداً عن أي شؤون مالية. ثم نتابع مع الرواية لنرى ان مندوب الحسن، من تلقاء ذاته على ما يبدو، قد عرض مطالبات مالية على معاوية بالاضافة الى شرط الحسن الاساسي (والوحيد) بشأن الأمان لكل الناس «فتقدم عبد الله بن نوفل بن الحارث على معاوية فخبره بمقالة الحسن. فقال له معاوية: سلْ ما أحببت، فقال له: أمرني أن أشرط عليك شروطاً. فقال معاوية: وما هذه الشروط؟ فقال: انه سلّم إليك هذا الامر على أن له ولاية الامر من بعدك، وله في كل سنة خمسة آلاف ألف درهم من بيت المال، وله خراج دار ابجرد من ارض فارس، والناس كلهم آمنون بعضهم من بعض. فقال معاوية: قد فعلت ذلك.

فدعا معاوية بصحيفة بيضاء فوضع عليها طينة وختمها بخاتمه ثم قال: خذ هذه الصحيفة فانطلق بها الى الحسن وقل له: فليكتب فيها ما شاء وأحب، ويشهد أصحابه على ذلك، وهذا خاتمي بإقراري.

---

(1) نص هذه الرواية بالحرف تقريبا وردت في أسد الغابة لابن الأثير ولكن دون ذكر (وعلى ان يقضي عنه ديونه) بل أورد غير ذلك من (التراجعات) بدلا منها.

فأخذ عبد الله بن نوفل الصحيفة وأقبل إلى الحسن ومعه نفر من أصحابه من أشراف قريش منهم عبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن سمرة ومن أشبههما من أهل الشام فدخلوا فسلموا على الحسن ثم قالوا: أبا محمد ان معاوية قد أجابك إلى جميع ما أحببت. فاكتب الذي تحب.

فقال الحسن: أما ولاية الأمر من بعده فما أنا بالراغب في ذلك ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه إليه. وأما المال فليس لمعاوية أن يشرط لي في المسلمين. ولكن أكتب غير هذا. وهذا كتاب الصلح.

ثم دعا الحسن بن علي بكاتبه فكتب: هذا ما اصطلح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. صالحه على:

/ أولاً/ أن يسلم إليه ولاية أمير المؤمنين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه (ص) وسيرة الخلفاء الصالحين.

/ ثانياً/ وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد لأحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

/ ثالثاً/ وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا في أرض الله في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم.

/ رابعاً/ وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم. وعلى معاوية بن أبي سفيان في ذلك عهد الله وميثاقه وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء بما أعطى الله من نفسه.

/ خامساً/ وعلى أنه لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت النبي (ص) غائلة سراً وعلانية، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق.

شهد على ذلك عبد الله بن نوفل بن الحارث وعمر بن أبي سلمة وفلان وفلان

ثم رد الحسن بن علي هذا الكتاب إلى معاوية مع رسل من قبله ليشهدوا عليه بما في هذا الكتاب.

وقد أثبتُّ هذا النص الطويل نظراً لأهميته، ولأنه يوضح كيف كان موقف الحسن واهتماماته الأساسية الحقيقية، وليس المزعومة المقصود منها تلطيخ السمعة عن طريق التركيز على النواحي الشخصية وإظهار الحسن كلامبالي بشيعته وشيعة أبيه وأنصارهم الذين نصروهم وقاتلوا معهم.

ومن الروايات المنصفة للحسن تلك التي أوردها البلاذري بصيغة الجمع «قالوا» وفيها أن الحسن كتب «هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان. صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين، على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين، وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى أن لا يبغي الحسن بن علي غائلة سراً ولا علانية، ولا يخيف أحداً من أصحابه»

ويمكن إدراج ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب في باب الروايات المنصفة نوعا ما للحسن «فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على أن يشترط عليه ألا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء كان في أيام أبيه.

فأجابه معاوية، وكاد يطير فرحاً، إلا أنه قال: أما عشرة أنفس فلا أؤمنهم

فراجعه الحسن فيهم. فكتب إليه يقول: إني قد آليت أنني متى ظفرت بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده. فراجعه الحسن: إني لا أبايعك أبداً وأنت تطلب قيساً أو غيره بتبعة قلّت أو كثرت.

فبعث إليه معاوية حينئذ برق أبيض وقال: اكتب ما شئت فيه وأنا ألتزمه.

فاصطلحا على ذلك. واشترط عليه الحسن أن يكون له الأمر من بعده»

ومن الطبيعي والمتوقع أن تكون المصادر الشيعية منصفة للحسن، فلا تتحدث بتلك الطريقة المهينة عن مطالبات ومساومات مالية، بل تذكر مضامين مهمة أصر عليها الحسن في مفاوضاته مع معاوية. ذكر ابن أبي الفتح الإربلي في كشف الغمة أن الحسن اشترط على معاوية:

ترك سب أمير المؤمنين عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة

وأن يؤمن شيعته رضي الله عنهم ولا يتعرض لأحد منهم بسوء

ويوصل إلى كل ذي حق حقه

فأجابه معاوية إلى ذلك وعاهده عليه وحلف له بالوفاء»

***

وهناك شرط يتردد ذكره في العديد من المصادر: أن يكون للحسن بن علي الخلافة من بعد معاوية.

فمثلا روى ابن حجر في فتح الباري:

«عن محمد بن قدامة أن الحسن بن علي قال "إني اشترطت على معاوية لنفسي الخلافة بعده»

وروى أيضا من طريق ابن أبي خيثمة أن الحسن بايع معاوية على أن يجعل العهد للحسن من بعده»

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن عمرو بن دينار «وأعطاه معاوية عهداً إن حدث به حدثٌ والحسن حي ليسمينّه وليجعلن هذا الأمر إليه»

ولم يذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة من شروط الصلح سوى أن الإمامة تكون لمعاوية ما دام حياً فإذا مات فالأمر للحسن من بعده.

ولا أعتقد أن هذا الشرط حقيقي، لأنه بلا معنى ولا قيمة، ولا يخفى ذلك على الحسن. ربما يكون اشتراط العمل بكتاب الله وسنة نبيه أقرب إلى منطق الحسن وخلفيته من اشتراط ولاية العهد[1].

***

(1) روى ابن حجر في فتح الباري (ج13 ص61) عن ابن بطال «سلم الحسن لمعاوية الأمر وبايعه على إقامة كتاب الله وسنة نبيه»

لذا يمكن تلخيص الشروط الأساسية التي وضعها الحسن بن علي أمام معاوية مقابل تسليم الأمر إليه كما يلي:

أن لا يأخذ أحداً من أهل العراق بإحنة فلا يُحاسبون على ما مضى من مواقف لهم ضد معاوية، وأن يكون الناس آمنين حيث كانوا. وعلى معاوية عهد الله وميثاقه أن أصحاب عليّ وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم ودمائهم.

ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده عهداً بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

وعدٌ من معاوية أن يُحسن في سياسته في الحكم وأن يلتزم بما جاء في كتاب الله وسنة النبي(ص).

ولكن ماذا عن الأموال التي طلبها معاوية للحسن، أو التي وعد بعطفها ؟! هل يمكن إنكار كل تلك الروايات التي تحدثت عنها ؟! الجواب عندي أنه من الصعب ردها جملة وتفصيلا وتجاهلها كأنها لم تكن. ولكن الأرجح أن موضوع الأموال والمبالغ التي دفعت وخراج دارابجرد، الخ كان بمبادرة من معاوية. أي أن معاوية كان يعرض على الحسن كل ذلك[1] لإظهار حسن نيته ولطفته على وضعه ومعيشة عائلته والمقربين منه. وليس ذلك ببعيد عن معاوية، بل كان من ميزاته وسيماه: اللجوء الى الدفع، أو الرشوة بالدفع، لشراء ضمائره والحصول على مبتغاه بأقل الخسائر.

ومن المشروع التساؤل: هل كان الحسن ساذجاً إلى درجة أن يعتقد أن معاوية سيلتزم فعلاً بشروط الصلح؟ وما هي الضمانات لتنفيذ هذه التعهدات؟ هل كان الحسن يظن أن معاوية، بعد أن ينفرد بالحكم ويضم العراق إلى ملكه، سيحترم وعوده التي قطعها لعدوّه؟

---

(1) وهناك رواية لدى البلاذري في أنساب الأشراف ومفادها يظهر أن معاوية هو الذي يرسل للحسن كتاباً للسلم مليئاً بالتعهدات ويؤكد له فيه أنه سيمنحه ألف ألف درهم كل سنة من بيت المال وأن له خراج فسا ودارابجرد خالصاً له. وقد تجاهل الحسن عروض معاوية هذه ورد بكتاب عرض فيه شروطه للصلح دون أي ذكر للنواحي المالية.

والجواب هو بالنفي. فالحسن كان يعرف أن معاوية رجلٌ لا تسيّره المبادئ ولا الأخلاق، بل المصالح المجردة. ولم يكن معاوية ليرتدع عن فعل أي شيء في سبيل تمكين دعائم سلطانه ومُلكه ودولته. ولكن الصلح الذي أبرمه الحسن هو انعكاسٌ لما هو قائم على الأرض من اختلال في موازين القوى السائدة بين الطرفين. ومن المؤكد أن الحسن كان لا يمكن أن يُسلم لعدوّه لو كان هناك أي أمل واقعي، ولو ضئيل، في كسب المواجهة، أو حتى الصمود فيها. وفي حقيقة الأمر، كان صُلحُ الحسن تخرّجاً سلمياً لإعلان هزيمة الجانب العراقي من الصراع. فقد هُزم مشروع عليّ بن أبي طالب، وسياساته وبرنامجه، وانتصر معاوية وتحالفه وقُريشٌ وطلقاؤها.

تلك هي الحقيقة المجرّدة، ومن الظلم تحميل الحسن المسؤولية التاريخية عن سيطرة معاوية على العراق أو اتهامه بالتقاعس والتخاذل. وكان من سوء حظ الحسن أن الإعلان الرسمي عن هزيمة أبيه في ذلك الصراع الطويل كان لا بد أن يحصل على يديه هو.

***

وقبل الانتهاء من موضوع شروط الصلح لا بد من الاشارة الى رواية تتكرر في كثير من المصادر، خلاصتها ان معاوية، بعد أن بويع وتم له الأمر، أعلن تنكره لكل الشروط والتعهدات التي كان أعلنها ووقع عليها وأشهد عليها الناس! وهذا النص من أنساب الأشراف للبلاذري:

«ثم قام معاوية ليخطب الناس، فقال في خطبته: ألا إني شرطتُ في الفتنة شروطاً أردتُ بها الألفة ووضع الحرب، ألا وإنها تحت قدمي!».

وهذه الرواية لا يمكن تصديقها، وهي بعيدة عن الواقع تماماً. فهي تتعارض مع شخصية معاوية وطريقة تفكيره وحكمه وإدارته. فهو رجل مصلحة وسياسة، وحتى لو أراد بالفعل نقض بنود الصلح والتحلل من التزاماته وتعهداته، فلن يفعل ذلك علناً وعلى رؤوس الأشهاد. كما ان هذه الحركات المستفزة للجمهور، السطحيّة والمُهينة، لم تكن مما يمتاز به معاوية ولا من خصاله.

***

وهناك من الروايات ما يُظهِرُ أن الحسن كان يريد وقفاً مرحلياً للصراع ضد بني أمية، وكان يأمل أن يتم استئناف المواجهة في مستقبل الأيام إن سمحت الظروف بذلك. وهذا بيّنٌ في خطبته العلنية في الكوفة بعد الصلح، وبحضور معاوية شخصياً.

قال ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن ابن جرير «أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن علي أن يخطب الناس ويعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية. فأمر معاوية الحسن فقام في الناس خطيباً فقال في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله (ص): أما بعد أيها الناس، فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا. وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه (ص) ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾.

فلما قالها غضب معاوية وأمره بالجلوس، وعتب على عمرو بن العاص في إشارته بذلك»

وذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري عن ابن منصور والبيهقي بسندهما إلى الشعبي قال «لما صالح الحسن بن علي معاوية قال له معاوية: قم فتكلم.

فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن أكيس الكيس التقى وإن أعجز العجز الفجور. ألا وإن هذا الأمر الذي اختلفتُ فيه أنا ومعاوية حق لامرئ كان أحق به مني أو حق لي تركته لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم. وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاعٌ إلى حين. ثم استغفر ونزل»

وقد وردت هاتان الروايتان في الاستيعاب لابن عبد البر نقلاً عن الزهري والشعبي.

استطراد بشأن حديث نبوي: ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[1]

---

(1) مصادر هذا البحث: صحيح البخاري (كتاب الفتن ج9 ص71 وص66)، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج13 ص67)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص15)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص212)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص112)، سنن أبي داود (حديث 4260 ج2 ص304)، سنن الترمذي (ج3 ص341)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص8)، البداية والنهاية لابن كثير (ج8 ص19-20).

روى البخاري في صحيحه عن أبي بكرة قال: بينا النبي(ص) يخطب جاء الحسنُ فقال النبي(ص): «ابني هذا سيّدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»

يمكن القول ان هناك جملة من المآرب والاهداف يرمي اليها هذا الحديث المنسوب للنبي(ص)، الخّصها كما يلي:

أولا: تصوير ما جرى من حرب اهلية طاحنة بين المسلمين بأنه مجرد خلاف بين مجموعتين متكافئتين من المسلمين: فئة عليّ وفئة معاوية، وكلاهما على خير، ولا امتياز اخلاقيا لاحدهما على الاخرى.

ثانيا: تزكية معاوية واظهار ان غلبته على الخلافة امرٌ جيدٌ لأمة محمد(ص).

ثالثا: اظهار أن الحسن بن علي إنما كان ينفذ تعليمات جده له وإن تسليم الحسن الأمرَ لمعاوية لم يكن اضطراراً وقهراً، ولكن حباً وطواعية!

وكدليل على ما قلناه وعلى خطورة حديث ابي بكرة هذا لا بأس من استعراض الاستنتاجات التي استخلصها ابن حجر العسقلاني منه. فقد قال في فتح الباري:

«وفي هذه القصة من الفوائد علم من اعلام النبوة ومنقبة للحسن بن علي فإنه ترك الملكَ لا لقلة ولا لذلة ولا لعلة بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة.

وفيها ردّ على الخوارج الذين كانوا يكفرون عليا ومن معه ومعاوية ومن معه بشهادة النبي(ص) للطائفتين بأنهم من المسلمين .....

واستدلّ به على تصويب رأي من قعد عن القتال مع معاوية وعلي، وإن كان علي أحق بالخلافة وأقرب الى الحق، وهو قول سعد بن ابي وقاص وابن عمر ومحمد بن مسلمة وسائر من اعتزل تلك الحروب. وذهب جمهور اهل السنة الى تصويب من قاتل مع علي لامتثال قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا - الآية) ففيها الأمر بقتال الفئة الباغية، وقد ثبت ان من

قاتل علياً كانوا بغاة، وهؤلاء مع عامة المصوبة متفقون على انه لا يأثم واحد من هؤلاء بل يقولون اجتهدوا فأخطأوا. وذهب طائفة قليلة من اهل السنة وهو قول كثير من المعتزلة الى ان كلا من الطائفتين مصيب، وطائفة الى ان المصيب طائفة لا بعينها».

وأما صاحب الحديث، وبطله الأبرز، فهو الصحابي أبو بكرة بن مسروح. فمن هو ابو بكرة وما هي مكانته في ميزان الصحابة؟

هو من عبيد قبيلة ثقيف. وهو ابن سمية، البغيّ المشهورة التي أنجبت زياد بن أبيه، فهو أخوه لأمه. وبالتالي كان مجهول النسب[1] رغم ان كثيرا من الناس ينسبونه الى قبيلة ثقيف بحكم ولادته بها، فيقول بعضهم «ابو بكرة الثقفي». وقد حاصر رسول الله(ص) ثقيفاً في الطائف بعد فتح مكة ومعركة هوازن في السنة الثامنة للهجرة. وصمدت ثقيف في حصنها وامتنعت عن الاستسلام رغم وطأة الحصار. وفي محاولة لزعزعة صمودها أعلن رسول الله(ص) ان مَن نزل الحصن من ثقيف فهو آمن وان مَن هرب من عبيدها فهو طليق. فكان أبو بكرة ممن هرب من الحصن فأعتقه رسول الله(ص). قال ابن سعد في الطبقات الكبرى عنه «واسمه نفيع بن مسروح، وفي بعض الحديث اسمه مسروح. وأمه سمية، وهو أخو زياد بن ابي سفيان لأمه. وكان عبداً بالطائف. فلما حاصر رسول الله(ص) أهل الطائف قال: أيما حر نزل إلينا فهو آمن، وأيما عبد نزل إلينا فهو حر. فنزل اليه عدة من عبيد أهل الطائف فيهم أبو بكرة فكنوه أبا بكرة. فكان يقول: أنا مولى رسول الله(ص)».

أي أنه في ميزان الصحابة هامشيّ بلا قيمة حقيقية ولا مكانة تذكر. فلا هو من المهاجرين ولا الانصار، ولا اهل بدر او أحد، ولا ممن يُذكر لهم أي دور او تميز. فقط هو من عامة الذين أسلموا في أواخر ايام النبي (ص) بعد انتصاره على قريش. ورغم ذلك فان المتتبع لشأنه يلاحظ عنده نزعة لإبراز مدى «علاقته» برسول الله(ص) الى حد أن كثيرا من الأحاديث التي شهدها بعد ثلاثين عاماً من وفاة النبي(ص) كان قد حدّث عنها مسبقاً!

---

(1) روى ابن عبد البر في الاستيعاب «كان ابو بكرة يقول: انا من اخوانكم في الدين، وانا مولى رسول الله (ص). فإن أبى الناس إلا أن ينسبوني فأنا نفيع بن مسروح»

فبالإضافة إلى حديث الفتنة هذا فإنه كان هو أيضاً صاحب حديث «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» الذي قاله بمناسبة حرب الجمل. وحديث «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» يندرج في سياق «النبوءات التبريرية» التي تخصص بها أبو بكرة. فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين رواية «عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: عصمني الله بشيء سمعته من رسول الله(ص) لما هلك كسرى، قال: من استخلفوا؟ قالوا: ابنته. فقال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة. قال: فلما قدمت عائشة ذكرتُ قول رسول الله(ص) فعصمني الله به»

لئن كان أبو بكرة يمتاز بتخصصه في ربط الأحداث التاريخية بأحاديث نبوية ينسبها للرسول(ص)، وبشكل فوري ساعة الحدث.

ومن ذلك أيضاً: أن الأحنف بن قيس لما ذهب يريد أن يقاتل مع عليّ قبيل معركة الجمل لقيه أبو بكرة وثبّطه عنه بحديث نسبه إلى الرسول(ص). ورد في سنن أبي داود «عن الأحنف بن قيس قال: خرجتُ وأنا أريد، يعني في القتال، فلقيني أبو بكرة. فقال: ارجع. فإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قال: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه». وذكر البخاري في صحيحه أن الأحنف بن قيس لما خرج بسلاحه يريد نصرة عليّ لقيه أبو بكرة وقال له هذا الحديث على لسان النبي(ص).

وروايات نبوءات أبي بكرة ليست عفوية بل كانت تصب في الخط المعادي لعليّ بن أبي طالب. فقد أخرج الذهبي في سير أعلام النبلاء الرواية الأخيرة التي ذكرناها بصورة فيها قدح مباشر من أبي بكرة في شخص علي بن أبي طالب، حيث يجعله مجرد طالب للدنيا! قال الذهبي «عن الأحنف قال: بايعتُ علياً، فرآني أبو بكرة وأنا متقلد السيف. فقال ما هذا يا ابن أخي؟ قلتُ: بايعتُ علياً. قال: لا تفعل، إنهم يقتتلون على الدنيا، وإنما أخذوها بغير مشورة»

وكذلك دافع عن والي عثمان، عبد الله بن عامر، بحديث نبوي أيضاً

فكأنّ أحاديث أبي بكرة كانت تفصّل فوراً على مقاس الحاكمين من أجل إسكات كل منتقديهم على أساس أن تلك هي إرادة الله ورسوله. فعندما انتقد الناس والي عثمان بن عفان على البصرة وعابوا عليه لبسه ما رقّ ولانَ من الثياب، خلافاً لرعيته، انبرى أتباع الوالي للرد عليهم، ممثلين بأبي بكرة على النحو التالي:

«... كنتُ مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثيابٌ رقاق،

فقال أبو بلال: أنظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق!

فقال أبو بكرة: أسكت! سمعتُ رسول الله(ص) يقول: من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله[1]»

فحسب كلام أبي بكرة يكون ابن عامر هنا هو سلطان الله على الأرض، ولا تجوز إهانته أو انتقاده.

الآن لدينا أربعة أحاديث لأبي بكرة «ما أفلح قوم» و«إذا التقى المسلمان بسيفيهما» و«من أهان سلطان الله في الأرض». وبالتأمل في هذه الأحاديث الأربعة، يظهر لنا ما يلي:

رأى أبو بكرة الناسَ ينتقدون والي عثمان على البصرة، فأسكتهم على الفور بحديث نبوي يدافع عن الحاكم. ورأى عائشة وقد ترعمت الجيوشَ لهُزِمَ أتباعها فأعلن ان ذلك مذكور على لسان النبي(ص). ورأى الأحنف بن قيس وهو يهبّ لنصرة علي بن أبي طالب فأراد تثبيطه عن طريق أمر نبوي مباشر. وأخيراً رأى الحسنَ بن علي وقد صالح معاوية وسلم الأمر له فأكّد أن ذلك أيضاً إرادة النبي(ص) نفسه.

وذلك كله يدعونا للشك في مصداقية أحاديث أبي بكرة. خاصة وأن أحاديثه تلك تتضمن أحكاماً دينية في غاية الأهمية، مثل الموقف السلبي من المرأة، وطاعة الحكام الفاسدين، والقعود عن نصرة الحق، والتسليم بحكم

---

(1) سنن الترمذي.

التعصب والقهر. وحتى سيرة أبي بكرة أيام حكم الأمويين تثير الشبهة أيضاً. فعلى الرغم من أن خلافاً حصل بين أبي بكرة وبين أخيه زياد بن أبيه لما شهد أبو بكرة على المغيرة بن شعبة بالزنا بينما امتنع زياد عن تأكيد ذلك أمام عمر بن الخطاب، مما دفع عمر إلى جلد أبي بكرة بتهمة القذف، إلا أنه سرعان ما زال الخلاف بين الأخوين. فتوسط أبو بكرة عند معاوية حينما كان زياد متحمساً يمارس معارضاً له من أجل ردع بسر بن أرطاة عن إيقاع الأذى بأولاد زياد الذين كانوا بالبصرة. فلما ولّى معاوية زياداً بعد أن ادّعاه، ردّ هذا الأخير معروف أخيه. قال ابن سعد (وكان زياد قد قرّب ولد أبي بكرة وشرّفهم وأقطعهم وولاهم الولايات، فصاروا إلى دنيا عظيمة وادعوا أنهم من العرب، وأنهم من ولد نفيع بن الحارث الثقفي)

وبالعودة إلى حديث الابن هذا سيد الذي بدأنا به: فقد تطرق العلامة ابن كثير في البداية والنهاية إلى إخراج هذا الحديث عن أبي بكرة من مصادر الحديث. فقال إن الحديث رواه البخاري في كتاب الفتن، ورواه أحمد وابن أبي شيبة. وكذلك أبو داود والنسائي والترمذي وابن عساكر. وتناول تفصيل إسناده الذي به دائماً الحسن البصري. ويمكن القول إن هذا الحديث هو حصرياً لأبي بكرة وحاشيته[1]

معارضة الصلح في المعسكر العراقي[2]

لقد تجرّع الكثيرون مُرّ العلقم. فلا شك أن القرار الذي اتخذه

---

(1) حاولت بعض الأخبار أن الحديث روي أيضاً من طريق غيره من الصحابة. لكن هذه الأخبار ضعيفة جداً ولم يأخذ بها كبار نقاد الحديث، فيمكن تجاهلها. ومنها ما ذكره ابن كثير «قال الحافظ أبو الحجاج المزي في أطرافه: وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أم سلمة. وقد روي هذا الحديث من طريق جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه». ولكنه لم يوضح تفاصيل هذا القول الأخير وأين ورد. وقال ابن حجر في فتح الباري: قال البزار: روى هذا الحديث عن أبي بكرة وعن جابر، وحديث أبي بكرة أشهر وأحسن إسناداً، وحديث جابر غريب. وقال الدارقطني: اختلف على الحسن فقيل عنه عن أم سلمة، وقيل عن ابن عيينة عن أيوب عن الحسن، وكلا منهما وهم؟

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج13 ص260)، تاريخ الطبري (ج4 ص122 وص123)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص289)، الأخبار الطوال للدينوري (ص220 وص221)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص455)

الحسن بن علي كان قاسياً وصعباً جداً على أنصار علي وشيعته، وخاصة القاعدة الصلبة منهم الذين كان وقعه عليهم كالصاعقة، وعلى معسكر أهل العراق برمته.

كانت القاعدة الصلبة لأنصار عليّ بن أبي طالب في العراق مستعدة للمضيّ في المواجهة إلى النهاية، حتى لو كانت موازين القوى المادية تميل لصالح العدو، وحتى لو كان الموت هو المصير المحتوم الذي ينتج عن صراع غير متكافئ مع عدو منظم ومصمم.

فالتسليم لمعاوية بن أبي سفيان بقيادة أمة محمد (ص) كان أمراً لا تحتمله نفوس عامة المسلمين، وبالأخص في العراق. كان الذين عايشوا علياً والتحوا وساروا في ركابه وشاركوا في جهاده وآمنوا بسموّ رسالته ورفعة نواياه، كمن يتجرّع مرّ العلقم وهم يرون الأمور تؤول إلى معاوية.

كانت المفارقة بين معاوية، بتاريخه الملطّخ في الإسلام، والملتفّين حوله من بقايا طلقاء قريش وأبنائهم، وبين عليّ بن أبي طالب وآل بيته، ساطعة صارخة تفرض نفسها على العراقيين في كل حين.

روى الدينوري:

«وكان أول من لقي الحسن بن علي رضي الله عنه، فندّمه على ما صنع، ودعاه إلى رد الحرب حجر بن عدي[1].

فقال له: يا ابن رسول الله: لوددتُ أني متّ قبل ما رأيتُ، أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحق الذي كنا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه، وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيسة التي لم تلق بنا.

فاشتد على الحسن رضي الله عنه كلام حجر.

فقال له: إني رأيتُ هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب. فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون. فصالحتُ بقياً على شيعتنا خاصة من القتل. فرأيتُ دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن.

---

(1) وسوف يقوم معاوية، بعد بضعة سنوات، بإعدام حجر بن عدي بدم بارد.

«فخرج من عنده ودخل على الحسين رضي الله عنه، مع عبيدة بن عمرو فقالا: أبا عبد الله! شريتم الذل بالعز! وقبلتم القليل وتركتم الكثير! أطعنا اليوم واعصينا الدهر، دع الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها، وولني وصاحبي هذه المقدمة فلا يشعر ابن هند إلاّ ونحن نقارعه بالسيوف!

فقال الحسين: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا»

واضطر الحسن إلى سماع المزيد من العبارات اللاذعة، الملبئة بالاتهامات القاسية، من أتباعه المحبطين. وبذل جهده ليوضح لهم أنه أقدم على الصلح، مكرهاً، حفاظاً على حياتهم هم بالذات، ومن أجل مصلحة دين جده رسول الله:

«قال له مالك بن ضمرة: السلام عليك يا مسخم وجوه المؤمنين!

قال: يا مالك لا تقل ذلك، إني لما رأيتُ الناس تركوا ذلك إلاّ أهله، خشيتُ أن تجتثوا عن وجه الأرض، فأردتُ أن يكون للدين في الأرض ناعي»(1)

وروى البلاذري «وقام سفيان بن ليلى إلى الحسن فقال له: يا مذلّ المؤمنين! وعاتبه حجر بن عدي الكندي وقال: سوّدتَ وجوه المؤمنين!

فقال له الحسن: ما كل أحدٍ يحب ما تحب ولا رأيه كرأيك. وإنما فعلتُ ما فعلتُ إبقاءً عليكم!»

وكذلك كان وقع الصلح قاسياً على قيس بن سعد الذي كان لا يزال في قيادة جيش العراق. قال الطبري:

«وكتب إلى قيس بن سعد بالصلح، ويأمره بتسليم الأمر إلى معاوية والانصراف إلى المدائن»

ولكن قيس بن سعد ومعه قواته، لم يقبل ذلك الأمر الوارد إليه في

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر.

البداية، وبقي مصرا على عدم التسليم لمعاوية وعبر عن استعداده وجيشه للقتال حتى النهاية[1]

فتشاور معاوية وعمرو بن العاص بشأن هذه المعضلة وكيفية التصرف السليم، واستقر رأيهما على ضرورة تجنب القتال بأي وسيلة ممكنة. يضيف الطبري:

قال معاوية: إنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك؟ وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بداً»

وحاول معاوية أسلوب الإقناع. تابع مع الطبري:

«أرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله، ويقول: على طاعة من تقاتل؟! وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك!

فأبى قيس أن يلين له»

وأخيراً اضطر معاوية إلى أن يكتب تعهدات وضمانات إضافية خاصة بقيس بن سعد ومَن معه[2] تتضمن «الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال» وأرسلها لسعد في سجلّ مختوم.

وبعد ذلك فقط لم يعد أمام قيس ومَن معه سوى القبول بالأمر الواقع، فقام قيس بن سعد:

فقال: أيها الناس: اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام!

---

(1) روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن هشام بن عروة قال: كان قيس بن سعد بن عبادة مع الحسن بن علي رضي الله عنهم على مقدمته ومعه خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعد ما مات علي رضي الله عنه وتبايعوا على الموت»

(2) روى ابن عبد البر في الاستيعاب: «فلما دخل الحسن في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، وقال لأصحابه: ما شئتم؟ إن شئتم جالدت بكم حتى يموت الأعجل منا، وإن شئتم أخذت لكم أماناً. فقالوا: خذ لنا أماناً. فأخذ لهم أن لهم كذا وكذا، وألا يعاقبوا بشيء، وأنه رجل منهم، ولم يأخذ لنفسه خاصة شيئاً»

فقالوا: لا، بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة»[1]

وكان تسليم قيس بن سعد آخر عقبة أمام سيطرة معاوية الرسمية على العراق.

قال عباس محمود العقاد: «وليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً، من المؤرخين الذين سمّوا سنة 41 هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحدٌ فيها. لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها، كما وقع فيها»

---

(1) تاريخ الطبري. وفي رواية الأخبار الطوال للدينوري أن قيسا قال «أيها الناس: اختاروا أحد الأمرين: القتال بلا إمام أو الدخول في طاعة معاوية»

الفصل الثالث: معاوية يكمل السيطرة على امبراطورية الاسلام

زياد بن أبيه يرفض الانصياع لمعاوية [1]

لم يبقَ أمام معاوية سوى مدّ نفوذه إلى ولاية فارس حتى تكتمل سيطرته على الامبراطورية الإسلامية.

ولكن كانت هناك مشكلة صعبة تواجهه: إنها والي عليّ القوي زياد بن أبيه!

تصلح قصة زياد بن أبيه أن تكون نموذجاً للجحود ونكران الفضل. فهو من أصل دنيء بمعايير العرب: ابن بغيّ مشهورة عند قبيلة ثقيف في الجاهلية، سمية. وقد أنجبت ابنها الذي أسمته زياداً ولم يُعرف له أبٌ فسُمّي «ابن أبيه». وكان أحياناً يُنسب إلى زوج أمه، الذي كان يمارس دور القوّاد، واسمه عبيد، وهو من أصل رومي، وكان غلاماً للحارث بن كلدة الثقفي، فيقال له «زياد بن عبيد». وكان أيضاً يعرف بـ «زياد بن سمية».

ولقد شاءت إرادة الله أن يكون هذا الشاب على قدر عالٍ من الذكاء والنشاط والقوة. ولكن طبعاً في المجتمع العربي – حيث تسود قيم العشائرية والشرف – تبقى دناءة الاصل حائلاً صلباً أمام فرص الصعود والتقدم.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج4 ص164 وص129–214)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص144–166 وص181 وهامش ص180)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج12 ص214 وج19 ص123 وص175 وص171 وص203)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج4 ص157)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص219 وص230)، سنن ابن ماجة (ج2 ص904 باب لا وصية لوارث)، تاريخ ابن خلدون (ج3 ص7–8)، البيان والتبيين للجاحظ (ج2 ص100).

وكان الأمر بحاجة الى شخصية من المدرسة النبوية حتى يمكن لهذا الشخص أن يأخذ فرصة لاظهار قدراته، وهنا دور الإمام علي الذي لم ينظر الى وضاعة أصله ولا الى نسبه المجهول، وعامله كإنسان مسلم متساوي الحقوق مع غيره من العرب الأصلاء. ولم ينظر الإمام علي اليه الآ كشاب مسلم طموح وذكي، فاعتمده كاتب لعبد الله ابن عباس؛ واليه على البصرة.

وهكذا أتيحت الفرصة لهذا الشخص أن يُظهر قدراته الإدارية والقيادية الفذة، والتي تجلّت أثناء مشكلة البصرة، حينما حاول معاوية أن يستولي عليها من طريق عملائه أثناء غياب واليها ابن عباس عنها. عندها أظهر زياد بن أبيه رباطة جأش نادرة ونجح في منع سقوط البصرة بأيدي رجال معاوية، وتثبيتها تحت سلطة أمير المؤمنين علي.

وقدّر الإمام عليّ ذلك فولاّه فيما بعد حكم إمارة فارس الشاسعة والغنية. فقد بلغ أهل فارس ما هو حاصلٌ بين العرب في الشام والعراق من حرب أهلية طاحنة استنزفت قواهم، فبدت لهم الظروف مواتية للتمرد على السلطة العربية في بلادهم. وجاءت الأخبار علياً أن مناطق عديدة في ايران قد أعلنت في الامتناع عن دفع الجزية والخراج، بل إن بعضها قامت بطرد الوالي العربي منها. فكان لا بد له من إرسال والٍ قوي قدير يعيد فرض الأمن والنظام.

وكان زياد عند حُسن ظنّ الإمام عليّ. وقد وصف الطبري ما فعله زياد فقال:

«... ولما قدم زيادٌ فارسَ، بعث إلى رؤسائها، فوعدَ مَن نصره ومنّاه وخوّفَ قوماً وتوعّدهم، وضربَ بعضهم ببعض، ودلَّ بعضهم على عورة بعض.

وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضاً. وصفت له فارس، فلم يلقَ فيها جمعاً ولا حرباً.

وفعل مثل ذلك بكرمان.

ثم رجع إلى فارس فسار في كورها، ومنّاهم، فسكنَ الناس إلى ذلك. فاستقامت له البلاد.

وأتى اصطخر، فنزلها وحصّن قلعةً بها ما بين بيضاء اصطخر واصطخر فكانت تسمى قلعة زياد فحمل إليها الأموال ثم تحصّن فيها بعد ذلك.

... وكان أهل فارس يقولون: ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي.»

المفاوضات بين عقلين متشابهين:

حينما اغتيل عليّ وتولّى ابنه الحسن القيادة، كثّف معاوية من جهوده لاستقطاب زياد وإحكام الطوق على الإمام الجديد. ولكن زياداً أظهر تمرداً شديداً وأصرّ على موقفه المعادي لمعاوية. يقول الطبري:

«كتب معاوية حين قتل عليّ عليه السلام إلى زياد يتهدده.

فقام خطيباً فقال: العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب!

كتب إليّ يتهددني وبيني وبينه ابنا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ابن عباس والحسن بن علي، في تسعين ألفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون!

لئن خلص إليّ الأمر ليجدني أحمز ضراباً بالسيف»

ولكن الأمور تغيرت بعد الصلح الذي أبرمه الحسن مع معاوية. فقد امتدت سيطرة معاوية الآن إلى العراق، ولم يبقَ أمامه سوى إخضاع إقليم فارس حتى يجلس متوجاً على عرشه. ولكن مشكلة معاوية أن زياداً لم يلن، ولم يُظهر رغبة في الدخول في طاعته، رغم أنه لم يعُد لديه غطاءٌ يحميه!

فبادل معاوية وزياد المزيد من الرسائل(2) المليئة بالشتائم والتهديدات:

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد. أما بعد

فإنك عبدٌ قد كفرت النعمة، واستدعيت النقمة. ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر، وإن الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها.

---

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

إنك - لا أم لك بل لا أبا لك - قد هلكت وأهلكت، وظننت أنك تخرج من قبضتي، ولا ينالك سلطاني.

هيهات! ما كل ذي لب يصيب رأيه، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته.

أمس عبد واليوم أمير؟ خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية.

وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة، وأسرع الإجابة. فإنك إن تفعل فدمك حقنت، ونفسك تداركت. وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعي.

وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زمارة تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام حتى أقيمك في السوق، وأبيعك عبداً وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه. والسلام!

فخطب زياد بشدة وأجابه:

أما بعد، فقد وصل إليّ كتابك يا معاوية وفهمت ما فيه. فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع، طمعاً في الحياة.

إنما يكفر النعم ويستدعي النقم من حادّ الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً.

فأما سبّك لي: فلولا حلم ينهاني عنك، وخوفي أن أدعى سفيهاً، لأثرت لك مخازي لا يغسلها الماء.

وأما تعييرك لي بسمية، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة.

وأما زعمك أنك تختطفني بأضعف ريش، وتتناولني بأهون سعي، فهل رأيت بازياً تفزعه صغير القنابر، أم هل سمعت بذئب أكله خروف؟!

فامض الآن لطيتك، واجتهد جهدك، فلست أنزل إلا بحيث تكره، ولا أجتهد إلا فيما يسوءك. وستعلم أينا الخاضع لصاحبه، الظالع إليه. والسلام!

وطمع الكيل بمعاوية، فلجأ حين ذاك إلى أسلوب آخر، ليتقله سفاحه

المشهور بسر بن أرطأة. فقد كانت عائلة زياد لا زالت تقيم في البصرة فوجّه معاوية بسراً إلى البصرة وأمره بإلقاء القبض على أبناء زياد! قال الطبري:

«كتب بسرٌ إلى زياد: لئن لم تقدم لأصلبنّ بنيك!»

ورغم هذا الوعيد الرهيب إلا أن زياداً صمد وقاوم:

«فكتب إليه: إن تفعل فأهل ذلك أنت. إنما بعث بك ابن آكلة الأكباد»

فكان بسر بن أرطأة على وشك تنفيذ تهديده وقتل أبناء زياد لولا أن أبا بكرة، أخا زياد، ذهب إلى معاوية ورجاه أن يأمر بسراً بعدم قتلهم متعهداً له أن يساعده في إقناع زياد بتغيير موقفه، فاستجاب له معاوية.

ولما تأكد معاوية أن أسلوب التهديد لن يجدي نفعاً مع زياد، كان عليه أن يفكر بطريقة أخرى. لجأ معاوية إلى مستشاره المخلص: المغيرة بن شعبة، طالباً نصحه. روى ابن أبي الحديد ان معاوية استدعاه وقال له:

«يا مغيرة إني أريد مشاورتك في أمر أهمّني، فانصحني فيه وأشر عليّ برأي المجتهد، وكُنْ لي أكُنْ لك...

إن زياداً قد أقام بفارس، يكشّ لنا كشيش الأفاعي، وهو رجلٌ ثاقب الرأي، ماضي العزيمة، جوال الفكر، مصيبٌ إذا رمى.

وقد خفتُ منه الآن ما كنتُ آمنه إذ كان صاحبه حياً. وأخشى ممالأته حسناً.

فكيف السبيل إليه؟ وما الحيلة في إصلاح رأيه؟

قال المغيرة: أنا له إن لم أمت. إن زياداً رجلٌ يحب الشرف والذكر وصعود المنابر. فلو لاطفته المسألة، وألنت له الكتاب، لكان لك أميل، وبك أوثق. فاكتب إليه وأنا الرسول»

وليس غريباً أن يلجأ معاوية إلى المغيرة بن شعبة ليعينه في شأن زياد، فمعاوية كان ولا شك يعرف أن الصلة وثيقة بين الرجلين منذ أن قام زياد بإنقاذ حياة المغيرة من حد الموت رجماً في عهد عمر بن الخطاب بعد أن شهد

ثلاثة رجال على المغيرة بالزنا مع امرأة بالبصرة، فكان زياد رابعهم فقرر إنقاذ المغيرة الذي رجاه أن يفعل، فشهد زياد أمام عمر بأنه رأى المغيرة عارياً بين فخذي المرأة ولكنه لم يرَ «الميل في المكحلة» فأنقذ رقبة المغيرة بشهادته تلك. ولذا فالمغيرة تهمه حتماً مصلحة زياد ولن يتوانى عن بذل الجهد في التوفيق بينه وبين معاوية.

وبالفعل شدّ المغيرة بن شعبة الرحال إلى بلاد فارس، حاملاً رسالة يلفها جاذبية من معاوية، فبدلاً من قوله له إنه عبد وابن العاهرة سمية، ولا أبَ له، أصبح الآن أخاه وابن أبيه! وصل المغيرة يحمل عرضاً لا يمكن لزياد أن يرفضه:

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان: أما بعد

فإن المرء ربما طرحه الهوى في مطارح العطب، وإنك للمرء المضروب به المثل، قاطع الرحم وواصل العدو، وحملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عققت قرابتي وقطعت رحمي، وبتتَّ نسبي وحرمتي، حتى كأنك لستَ أخي، وليس صخر بن حرب أباك وأبي... فارجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك،... وقد أصبحت على بينة من أمرك ووضوح من حجتك، فإن أحببتَ جانبي ووثقت بي فإمرة بإمرة،...»[1]

واستجاب له زياد «فالحمد لله الذي عرّفك الحق وردّك إلى الصلة، ولستُ ممن يجهل معروفاً ولا يغفل حسباً ....

إن كنتَ كتبتَ كتابك هذا من عقد صحيح ونية حسنة وأردت بذلك برّاً فستزرع لي قلبي مودة وقبولاً ...»

يتابع ابن أبي الحديد «فأعطاه معاوية جميع ما سأله، وكتب إليه بخط يده ما وثق به، فدخل إليه الشام فقربه وأدناه، وأقره على ولايته، ثم استعمله على العراق»

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد بتصرف في القطعة.

استلحاق معاوية لزياد:

أعلن معاوية الإعلان أن زياداً هو أخوه! وليس ابن أبيه، ولا ابن عبيد، بل ابن أبي سفيان! وأما الأساس الذي استند إليه فهو ما يلي:

«كان أبو سفيان سار إلى الطائف، فنزل على خمّار يقال له أبو مريم السلولي.

فقال أبو سفيان لأبي مريم بعد أن شرب عنده: قد اشتدّت بي العزوبة فالتمس لي بغيّاً!

قال: هل لك في جارية الحارث بن كلدة، سميّة امرأة عبيد؟

قال: هاتها، على طول ثدييها وذفر إبطيها.

فجاء بها إليه فوقع بها»[1]

وحينما كان أبو سفيان لا يزال على قيد الحياة، أظهر زيادٌ، وهو شابٌ يافع، في مجلس ضمّ الخليفة عمر وكبار رجالات قريش، فصاحة لافتة ملّت على شخصية واعدة:

فقال عمرو بن العاص: لله أبوه! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه!

فقال أبو سفيان: أما والله إنه لقرشي، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك!

فقال: ومن أبوه؟

قال: أنا والله وضعته في رحم أمه»[2]

كانت هذه العبارة التي قالها أبو سفيان قبل أكثر من 20 عاماً هي الأساس الذي استند عليه معاوية في اتخاذه زياداً وكان زياد على علم بكلمة أبي سفيان تلك. وكذلك معاوية الذي يبدو أنه كان يستعملها ورقة يناور بها عند الحاجة. وقد كان عليّ بن أبي طالب أشار إلى هذه الحادثة في إحدى رسائله إلى زياد حينما بلغه أن معاوية يحاول إغراءه، ويلوح له بقول أبي سفيان المذكور:

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر.
(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر.

«وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك، ويستفل غربك. فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرته.

وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر فلتة من حديث النفس، ونزغة من نزغات الشيطان، لا يثبت بها نسبٌ، ولا يستحق بها إرثٌ. والمتعلق بها كالواغل المدفّع، والنوط المذبذب»[1]

وأحضر معاوية وزياد ذلك الخمّار العجوز من الطائف ليؤدي دوره في المسرحية: فتقدم أبو مريم السلولي فقال: «كنتُ خماراً بالطائف، فمرّ بي أبو سفيان منصرفاً من سفر له، فطعم وشرب ثم قال: يا أبا مريم طالت الغربة، فهل من بغيّ؟

فقلت: ما أجد لك إلا أمة بني عجلان.

قال: ائتني بها على ما كان من طول ثدييها ونتن رفغها.

فأتيته بها، فوقع عليها ثم رجع إليّ.

فقال: يا أبا مريم! لاستكّت ماء ظهري استلالاً كسيب ابن المحيل في عينها.

فقال له زياد: إنما أتيناك شاهداً، ولم نأتِ بك شاتماً»[2]

ويبدو أن الخمار العجوز انغمس في الدور الذي يؤديه إلى درجة أنه غير مصدق أن هكذا منزلة يمكن لمثله أن تحصل عليه، فلجأ إلى تناول بعض التفاصيل حول قذارة سمية، مما استفزّ زياداً ودفعه إلى إسكات العجوز وتذكيره بأن لا يتجاوز الدور المطلوب منه أن يؤديه.

---

(1) نهج البلاغة بشرح محمد عبده. والواغل هو الذي يهجم على الشاربين وهو ليس منهم فيشرب معهم. والنوط المذبذب هو ما يعلق برحل الراكب من قدح أو ما شابه فهو يتقلقل كلما سار. وفي رواية ابن عساكر في تاريخه أن علياً كتب لزياد: غرني رأيك وإنا كرهنا لك. وقد كان من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب ميراثاً ولا نسباً. ومعاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثم احذره.

(2) تاريخ الطبري. وفي رواية ابن أبي الحديد أن أبا سفيان تحدث من خالة [illegible] سمية وأن زياداً قال لأبي مريم: لا تشتم أمهات الرجال.

إذن تمت الصفقة، وكملت فصول المسرحية، وأعلن معاوية أن زياداً أخوه، وابن أبيه!

وكان هذا هو الثمن الوحيد الذي يمكن لزياد أن يقبله في مقابل انضمامه لمعاوية وحزبه. فزياد كان يتحصّن عميقاً داخل بلاد فارس مسيطراً على مقدراتها وثرواتها. وكان مستعداً للصمود فترة طويلة في أية مواجهة مع معاوية. كان زياد يدرك موازين القوى، ويفكّر بعقول خصومه والخيارات المتاحة أمامهم. أدرك زياد أنه في وضع ممتاز للمساومة، وأن بإمكانه رفع الثمن المطلوب من معاوية.

وبدأت الطريقة يفكر معاوية! فهو رجلٌ عمليٌ وهدفه واضحٌ محدد، ولا تهمّه الوسيلة المتبعة للوصول إلى غايته: الانفراد بحكم دولة الإسلام الفتيّة بنظرها في كل أمصارها. لم يكن بإمكان معاوية أن يتناسى أمر زياد، ويكتفي بالسيطرة على بقية الأمصار الإسلامية، لأن ذلك يعني أن عمله غير مكتمل وانجازه مهدد إذ من المتوقع أن تصبح الولاية الرافضة لطاعته، فارس، قطباً جاذباً لكل العناصر المعادية له وهي كثيرة جداً، وهذا ما لا يستطيع معاوية أن يتحمله.

كان أمام معاوية خياران لا ثالث لهما: إما أن يوجّه حملة عسكرية ضخمة إلى عمق بلاد فارس، حيث زياد، لهزيمته وإخضاعه، وإما أن يتوصل إلى حل وديّ مع حاكم فارس القوي، ويدفع الثمن المطلوب.

كان الخيار الأول، العسكريّ، باهظ التكاليف، خطراً وصعباً. لقد كان دخول معاوية إلى العراق وبسط نفوذه عليها حدثاً جللاً، وكانت تنتظره مهمة ليست باليسيرة، لتثبيت حكمه هناك. وكان آخر ما يريده هو الانجرار إلى مزيد من الحروب. فأهل الشام وجيشها كانوا لا شك متعبين بعد كل تلك المعارك. ولا يستطيع معاوية طبعاً الاعتماد على مقاتلي العراق في مهمة كهذه.

ولحسن حظ معاوية انه كان يتعامل مع خصم من نفس طينته. وبحكم تركيبتهما، كان الرجلان قادرين على التوصل، في النهاية، إلى تفاهم مبنيّ على أساس حسابات الربح والخسارة، والمنفعة والمصالح المتبادلة.

ولكن الثمن الذي يطلبه زياد كان مختلفاً تماماً عن كل ما عهده معاوية واعتاد عليه. فهو يطلب نسباً، ويريد اسماً، ويحتاج أصلاً!

وقرر معاوية أن دفع هكذا ثمن لزياد هو أيسر وأهون من شن حملة عسكرية صعبة ومؤلمة. سيمنح معاوية زياداً نسباً قرشياً صريحاً، ليس ذلك فحسب سيجعله أخاً!

وسيصبح «زياد بن أبي سفيان» أخا أمير المؤمنين! وهكذا كان.

لم يبالِ معاوية بحكم الشرع، ولا بفتوى الرسول(ص) في حديثه الصحيح:

«... الولد للفراش وللعاهر الحجر. ومن ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين...»[1].

ولم يبالِ أيضاً بالرأي العام أو ما يمكن أن يقوله الناس حول هذه المسرحية الهزلية. فكل هذه الأمور تهون وتصغر ولا تستحق أي اعتبار بنظر معاوية، أمام سياسة الدولة ومقتضيات الحكم! فما قيمة حديث نبوي بنظر معاوية؟ هو بسلطة قادر على اصطناع فقهاء ومفتين عملاء يبررون له كل قراراته.

قال الشاعر[2] معبراً عن رأي الناس في الاستلحاق:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	مغلغلة من الرجل اليماني
أتكره أن يقال أبوك عفٌّ	وترضى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زيادٍ	كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها حملت زياداً	وصخرٌ من سمية غير داني

وكان الناس واعين للعقدة النفسية التي يعاني منها زياد، وكيف أنه لا يصدّق نسبه الجديد! ولذا أصبح مَن له حاجة أو مصلحة عند الوالي يلجأ إلى النفاق في موضوع نسبه بالتحديد. روى ابن عساكر أن رجلاً كانت له

(1) سنن ابن ماجة.
(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. والشاعر هو يزيد بن ربيعة الحميري.

حاجة عند زياد، فلجأ إلى عبد الرحمن بن أبي بكرة، الذي وافق أن يكتب له كتابا لكنه رفض أن ينسب زياداً إلى أبي سفيان، فخاف الرجل غضبَ زياد فجاء إلى عائشة لكي تتوسط له، فقبلت أن تساعده فكتبت له كتاباً حمله إلى زياد:

فكتبت له من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان.

فلما جاء بالكتاب قال له: إذا كان غداً فجئني بكتابك.

وجمع الناس، وقال: يا غلام اقرأه.

فقرأه من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان.

فقضى له حاجته

وحتى بنو أمية أنفسهم لم يكونوا يأخذون هذا النسب الجديد لزياد على محمل الجد. فقد روى ابن أبي الحديد أن الفرع الأموي الآخر، آل أبي العاص، رأى في حركة معاوية مخالفة لنظرية الفرع السفياني على حسابه، حتى أن عبد الرحمن بن الحكم قال لمعاوية: *لو لم تجد إلاّ الزنج لاستكثرت بهم علينا!* بل إن أخا زياد، وابن امه سمية الصحابي أبا بكرة لم يكن يعترف بنسب زياد الجديد. روى ابن أبي الحديد أن أبا بكرة قال لزياد: *لا والله ما علمتُ سمية رأت أبا سفيان قط!*

وروى ابن أبي الحديد طرفة عن شخص قرشيّ عجوز، من بني عدي، اسمه أبو العريان، الذي سمع ضجة موكب زياد في البصرة فقال: *ما هذه الجلبة؟ قالوا: زياد بن أبي سفيان. قال: والله ما ترك أبو سفيان إلاّ يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد؟*

فبلغ الكلام زياداً. وقال له قائل: لو سددت عنك فم هذا الكلب.

فأرسل إليه بمائتي دينار. فقال له رسول زياد: إن ابن عمك زياداً الأمير قد أرسل إليك بمائتي دينار لتنفقها.

فقال: وصلته رحم! إي والله ابن عمي حقاً!

ثم مر به زياد من البُعد في موكبه، فوقف عليه فسلّم. وبكى أبو العريان! فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوت أبي سفيان في صوت زياد!»[1]

ويروي ابن خلدون أن عبد الله بن عامر بن كريز غضب يوماً من زياد، فهمّ بأن يُحضر مجموعة من رجال قريش ليشهدوا على رؤوس الأشهاد ويقسموا أن أبا سفيان لم يرَ سمية قط لولا تدخل معاوية!

*****

وهكذا فإن معاوية ضم إلى صفوفه رجلاً من طراز قيادي وإداري رفيع، وسوف يصبح زياد من أعمدة الحكم الأموي وأركانه بعد أن ربط مصيره به. قال عنه ابن خلدون فكان أول من شدد أمر السلطان وأكّد الملك، وجرّد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة. لم يجد معاوية أفضل من زياد ليعينه في منصب والي العراق، فزياد يعرف العراق بكل دقة، وهو قادرٌ بلا شك على إرهاب أنصار عليّ ومحبيه الكثر في العراق، فهو يعرفهم لأنه كان منهم. ومارس زياد دوره بإخلاص وتفانٍ، فحوّل حياة شيعة عليّ إلى جحيم لا يطاق على مدى سنين طويلة.

وما قاله زياد لحجر بن عدي الكندي لا يمكن إلا أن يصدر عن نفسية مريضة:

«زياد: يا أبا عبد الرحمن! كيف تعلم حبي لعلي؟

حجر: شديداً.

زياد: فإن ذلك قد انسلخ أجمع، فصار بُغضاً! فلا تكلمني بشيء تكرهه فإني أحذرك»[2]

وأظهر زياد لؤماً غريباً في تعامله مع آل علي بن أبي طالب. فعندما كتب

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وربما صدقت أبيات في السبعة أبناء لأبي سفيان الذين ذكرهم الحصين، فأسقط منهم عمرو وأضيف إليهم محمد.
(2) تاريخ دمشق لابن عساكر. ومثل ذلك ورد في تاريخ الطبري وفيه أن زياداً قال أيضاً إن بغضه لمعاوية انقلب حباً ومودة!

الحسن بن علي له رسالة تدعوه إلى عدم التعرض لأحد أصحابه الذي كان زياد يطارده، ردّ عليه بكتاب يطفح جهلاً «من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن: أما بعد فقد أتاني كتابك في فاسق يأويه الفسّاق من شيعتك وشيعة أبيك. وأيم الله لأطلبنهم ولو بين جلدك ولحمك. وإن أحبّ الناس إليّ لحماً أن آكله للحمٌ أنت منه»[1]

ولم يقنع زياد بن أبيه أن يرى بغض عليّ أمراً مقتصراً عليه وحده فقام يجمع أهل الكوفة في المسجد ليجبرهم على البراءة من عليّ[2]

كلمة ختامية: هل كان عليٌّ الخاسرَ؟

يلوم بعض الباحثين علياً لكونه لم يُحسن شؤون الحكم والسياسة، فلم يداري الظروفَ السياسية ولم يتألف الناسَ أو يساوم الولاة والرؤساء. وبنظر محترفي السياسة الذين لا يرون في التاريخ سواها، عليٌّ خاسرٌ كبير أضاع المُلكَ والخلافة وفقد كل شيء، فكثيرٌ من الأعمال التي قام بها عليٌّ أثناء فترة «خلافته» القصيرة تُظهره كمن لا يفهم السياسة ولا تفهمه، أو كمن هو بليدٌ أو حتى معتوهٌ، لشدّة ما يُرى في أعماله من قِصر نظر ولكثرة الفرص التي لم يغتنمها. فعليٌّ فشل في ميدان السياسة حقاً، وكانت تفصله فجوة عن عصره وزمانه.

ولكن المشكلة هي في المعايير! فعليٌّ كان ثائراً، وظل ثائراً حتى مات. وبنظر أولئك الذين يعتبرون التاريخ معركة مبادئ، عليٌّ بطل جليلٌ لا يُشق له غبار! فمن الخطأ أن يقاس عليٌّ بمعايير معاوية وأمثاله من دهاقين السياسة ودهاتها لأن له مقياساً مختلفاً من الأساس: إنه قائد ثورة ورائد تغيير، والثوريون منطقهم الذي يعتبر التضحية والفناء في سبيل المبادئ نصراً مؤزراً، أو حسب تعبيره هو «الغالبُ بالشر مغلوبٌ».

إن أعمال عليٍّ وسياسته أثناء فترة حكومته لا يمكن أن تصدر عمّن يريد

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ.
(2) تاريخ دمشق لابن عساكر.

أن يحكم الناسَ ويسطيعَ منهم. إنها العقلُ مَن يريدُ أن يموتَ ليبقي نماذجَ تقتدي بها الأجيال التالية. إنه أرادَ أن يضرب المثَلَ ويكون القدوة ويقيم الحجة على مَن يأتي من بعده.

وبهذا المعنى، انتصرَ عليٌّ كما لم ينتصر بشر.

بقي عليٌّ بطلاً للعقيدة، للعلم والعدل والبسالة والجهاد. لقد تحدّى الزمانَ وتحدّى كل مراحل الانهيار التي مرّت بها حضارة المسلمين، وبقي اسمه ملاذاً لآلام المعذبين والمظلومين، والثائرين في كل زمان ومكان. لقد ارتفع عليٌّ فوق عوارض السياسة من خلال القيم المستقيمة التي جسّدها، وكان له حياة ممتدة جداً بعد وفاته مستندة إلى مزاياه الدينية والأخلاقية والفكرية.

وباسم عليٍّ قامت ثورات، وانهارت دولٌ وحكومات، ونشأت ممالك وعلاقات. وباسم عليّ انتشرت أفكارٌ ودعوات. لقد شغَل عليٌّ كل أحداثه بعد وفاته، وكان انتصارُه خالداً وعظيماً وشُعشعاً.

ملحق: عهد الامام عليّ لمالك الاشتر حين ولّاه مصر

وهو رسالة طويلة عظيمة وشهيرة في روعتها وكمالها. وقد رأيتُ أن أثبت هذا الخطاب، أو كتاب التكليف، كما ورد في نهج البلاغة، لما به من فائدة ولقراءته وتميّزه

هذا ما أمر به عبد الله عليٌّ أميرُ المؤمنينَ مالكَ بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها. أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه. وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من

عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت.

وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك. وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته.

ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن إني مؤمر آمر فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير.

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك. إياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط الخاصة

يغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرا عند الاعطاء، وأبطأ عذرا عند المنع، وأضعف صبرا عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم.

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعايب الناس، فإن في الناس عيوبا الوالي أحق من سترها. فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام ! فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثما على إثمه. أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفا، وأقل لغيرك إلفاً، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك.

ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع، والصق بأهل الورع والصدق، ثم رُضْهُم على أن لا يطروك، ولا يَبْجَحُوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو، وتدني من الغِرَّة. ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه.

واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم،

وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده. ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية. ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك بما نقضت منها.

وأكثر مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك. واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الانصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلا قد سمى الله سهمه، ووضع على حده فريضته في كتابه أو سنة نبيه * عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم، وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين نفسه على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل. فولّ من

جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف. ثم الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف.

ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقمن في نفسك شئ قويتهم به. ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه. وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم، حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو. فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك.

وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية. وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم، وقلة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم. فافسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم. فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله. ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً.

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ..﴾ فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به

الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه، وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمل فيه بالهوى، وتُطلب به الدنيا!

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً. ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك.

ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية. وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم

بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر.

ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطي منك، ولا يُضعف عقداً اعتقده لك، ولا يُعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها، ولا يتشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. اعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع،

وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فامنع من الاحتكار فإن رسول الله [ص] منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به، وعاقب في غير إسراف.

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه. وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل. وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع». ثم احتمل الخرق منهم والعيّ، ونحّ عنك الضيق والأنفَ يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. وأعط ما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار.

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمالك بما يعيى عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور

أعمالك. وأمضِ لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية. وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك، إقامة فرائضه التي هي له خاصة. فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفّ ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص، بالغاً من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله ' حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيما.

وأما بعد فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه ؟ أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس، في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة.

وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيتك، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق. ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن.

وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحُطْ عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استوبلوا من عواقب الغدر؛ فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه.

ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله فيه طلبة، فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها! والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله. ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد، لأن فيه قود البدن. وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ. وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل عمل موقعه. وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما يعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك. وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم.

فاملك حمية أنفك، وسورة حدك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك. والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا، أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، وإنا إليه راغبون. والسلام على رسول الله وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً.

مصادر الكتاب

- عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي 630 للهجرة:
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهبية 1280.
- الكامل في التاريخ
- اللباب في تهذيب الانساب، دار صادر، بيروت.
- أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الاربلي، توفي 693 للهجرة، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية 1405 هـ - 1985 م.
- أحمد بن أعثم الكوفي، توفي 314 للهجرة، كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى، سنة 1411هـ - 1991م، مطبعة دار الأضواء، الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع
- محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، توفي 256 للهجرة:
- الجامع الصحيح، طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان
- التاريخ الصغير، تحقيق محمود ابراهيم زايد، الطبعة الأولى 1406، دار المعرفة - بيروت.
- محمد بن حبيب البغدادي، توفي 245 للهجرة، المنمق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، 1964، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية - حيدر أباد - الهند

- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري توفي 279 للهجرة:
- أنساب الأشراف، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت ط1، 1394 - 1974.
- أنساب الأشراف، تحقيق / سهيل زكار، ورياض زركلي. دار الفكر، 1417.
- فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة.
- أبو عيسى الترمذي توفي 279 للهجرة، سنن الترمذي (وهو الجامع الصحيح)، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1983.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ توفي 255 للهجرة، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية - بيروت.
- هشام جعيط، معاصر، الفتنة، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الرابعة 2000
- أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري توفي 405 للهجرة، المستدرك على الصحيحين، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة - بيروت، 1406
- محمد بن حبان أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة 354 للهجرة
- صحيح ابن حبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1993
- كتاب الثقات، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393 - حيدر آباد/ الهند. الناشر مؤسسة الكتب الثقافية
- أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، توفي 852 للهجرة.
- الاصابة في تمييز الصحابة، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى 1995
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة - بيروت.
- عز الدين أبو حامد بن هبة الله ابن أبي الحديد توفي 656 للهجرة، شرح

نهج البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى 1959

- محمد بن الحسن الحر العاملي، توفي 1104 للهجرة، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد رضا الجلالي، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث بقم المشرفة، مطبعة مهر - قم، الطبعة الثانية 1414.
- أحمد بن محمد بن حنبل، توفي عام 241 للهجرة:
- كتاب العلل ومعرفة الرجال تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الأولى. دار الخاني للنشر والتوزيع - الرياض.
- مسند أحمد، طبعة دار صادر - بيروت
- أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، توفي 463 للهجرة، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1 1417 - 1997.
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، توفي 808 للهجرة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور ب تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1971.
- خليفة بن خياط العصفري، توفي 240 للهجرة ، تاريخ خليفة، رواية بقي بن مخلد، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 1993
- علي بن عمر الدارقطني، توفي 385 للهجرة، علل الدارقطني، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، منشورات دار طيبة - الرياض، ط1 1405.
- عبد الله بن بهرام الدارمي، توفي 255 للهجرة، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال - دمشق.
- سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بأبي داود توفي 275 للهجرة، سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى 1990، دار الفكر - بيروت.

- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري توفي 282 للهجرة. الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط1 1960، دار إحياء الكتب العربية.
- أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، توفي 748 للهجرة:
- تاريخ الاسلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الاولى 1407 - 1987.
- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1413 - 1993
- السيد سابق، فقه السنة ط1 2001، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- محمد بن سعد توفي 230 للهجرة، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت
- كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، توفي 76 للهجرة، بتحقيق الشيخ محمد باقر الانصاري (الناشر غير مذكور).
- جلال الدين السيوطي، توفي 911 للهجرة، تاريخ الخلفاء، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى 2003. دار اليقين - مصر.
- الفضل بن شاذان الازدي النيسابوري الايضاح، توفي 260 للهجرة، بتحقيق جلال الدين الحسيني الارموي (الناشر غير مذكور).
- أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، توفي 262 للهجرة، تاريخ المدينة المنورة، حققه فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية 1410 مطبعة قدس - قم.
- سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني توفي 360 للهجرة، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط2، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، توفي 310 للهجرة، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.
- أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي 460 للهجرة، رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الاولى، رمضان 1415.
- ابو عمر بن عبد البر القرطبي النمري، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد. دار الاعلام - الاردن. الطبعة الاولى 2002.

● احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث - الاسكندرية .الطبعة الاولى 1998

● محمد عبده شرح نهج البلاغة، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة العصرية - بيروت، 2002.

● أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، توفي 571 للهجرة، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

● ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي 276 للهجرة، الامامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الاستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى - ايران، 1413

● محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، دار المعرفة - بيروت.

● عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، توفي 774 للهجرة:

● تفسير القرآن العظيم تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت - لبنان 1992

● البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، الطبعة الولى 1408 للهجرة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

● علي الكوراني العاملي، معاصر، جواهر التاريخ. الناشر: دار الهدى الطبعة الاولى 2004.

● محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر

● علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، توفي 975 للهجرة، كنز العمال، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة - بيروت.

● أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، توفي 346، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية - لبنان، 2005.

● أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة المكتبة العصرية - صيدا \ لبنان - 2005

● محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد كتاب الجمل، مكتبة الداوري، قم - ايران.

- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، توفي 845 للهجرة، النزاع والتخاصم بين بني امية وبني هاشم، تحقيق السيد علي عاشور.
- د. عدنان محمد ملحم، معاصر، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، دار الطليعة – بيروت، الطبعة الأولى 1998.
- أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الأسدي الكوفي، أسماء مصنفي الشيعة المشتهر برجال النجاشي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة 1416.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، توفي 303 للهجرة، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. طبعة 1348/ 1930، دار الفكر – بيروت.
- نصر بن مزاحم المنقري، المتوفي سنة 212 للهجرة، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، 1382، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة، طبعة المكتبة العصرية، صيدا – لبنان، 2003
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، توفي 468 للهجرة، أسباب النزول، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة 1968. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع – القاهرة.
- محمد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي، توفي 207 للهجرة، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة 1989
- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، توفي 292 للهجرة، تاريخ اليعقوبي، دار صادر – بيروت.

نبذة عن المؤلف

ولد حسام عبدالكريم، واسمه الكامل حسام محمود حسن شحادة عبد الكريم، في مدينة إربد في الأردن عام 1968، لأسرة فلسطينية نازحة.

وفي عام 1986 حصل على شهادة الثانوية العامة من الزرقاء - الأردن، وكان من ضمن الطلاب العشرة المتفوقين على مستوى المملكة الأردنية الهاشمية.

وفي عام 1991 حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية، من الجامعة الأردنية - عمان. وكان صاحب الترتيب الأول.

وفي عام 1992 حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكيميائية المتقدمة، من جامعة لندن، بمرتبة الشرف ومنذ ذلك الوقت عمل كمهندس في القطاع الخاص في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

وقد صدر له من قبل:

«قريشٌ وعليّ» نشر عام 2006

«اخبار الفتنة الكبرى: عهد عثمان» نشر عام 2012

THE RISE OF MUAWIYAH

صعود معاوية

صفّين، الخوارج، ونهاية عليّ

▼

هذا هو الجزء الثالث من العمل الموسوعيّ الكبير (**صعود معاوية**)، الّذي يبحث في أحداث قضيّة كبرى من قضايا تاريخ صدر الإسلام، ويغوص في تفاصيلها محلّلاً وباحثًا في وقائع الفتنة الكبرى التي امتدّت أحداثها في الفترة ما بين السنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) والسنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم).

وفي هذا الجزء يرتكز الحكم على صراع عليّ ومعاوية وحربهما في صفّين، وتطوّرات الأحداث حتّى استيلاء معاوية على السلطة وتأسيسه أوّل حكم سلاليّ في الإسلام، وقد رأى المؤلّف أن يسمّي هذا السفر (**صعود معاوية**) نظرًا لما في ذلك من غرابة تصل إلى حدّ العجب، إذ كيف يصل أحد الطلقاء إلى رئاسة دولة الرسول وهم الّذين أصرّوا على معاداته ومعاداة دعوته إلى الرمق الأخير؟! كيف استطاع أن يتجاوز المهاجرين والأنصار الّذين صنعوا ملحمة الإسلام بدمائهم وتضحياتهم وصبرهم؟! وما الّذي جرى ليتمكّن رجل يحمل وسم «**الطليق**» من أن يصعد إلى القمّة، ويؤسّس عرشًا عائليًا تتوارثه سلالته؟!

الناشر

يسبق هذا الجزء، جزء أوّل يتناول خلفيات الفتنة الكبرى وعهد عثمان، وجزء ثانٍ يتناول موضوع حرب الجمل بين عليّ وعائشة.

حسام عبد الكريم ◆ صعود معاوية صفّين، الخوارج، ونهاية عليّ

3